التفسير الموضوعي

لآيات التوحيد في القرآن الكريم

تأليف راجي عفو القدير

الدكتور عبد العزيز بن الدردير

أستاذ التفسير وعلوم القرآن

بكلية أصول الدين - أسيوط





اهداءات ٢٠٠٢

أ/حسين كامل السيد بك فهمى

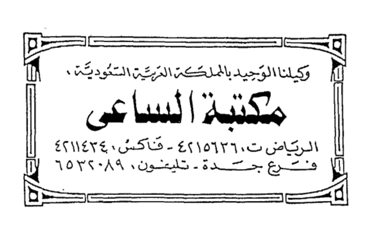
الاسكندرية

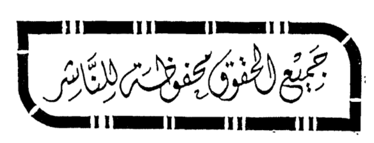
التفسير الموضوعي

لآيات التوحيد في القرآن الكريم

تأليف راجي عفو القدير
الدكتور عبد العزيز بن الدردير
أستاذ التفسير وعلوم القرآن
بكلية أصول الدين - أسيوط

مكتبة القرآن
للطبع والنشر والتوزيع
٣ شارع القماش بالفرنساوي - بولاق
القاهرة - ت: ٧٦١٩٦٢ - ٧٦٨٥٩١


وكيلنا الوحيد بالمملكة العربية السعودية :
مكتبة الساعي
الرياض ت: ٤٢١٥٦٢٦٠ - فاكس: ٤٢١١٤٣٤٠
فرع جدة - تليفون: ٦٥٣٢٠٨٩


جميع الحقوق محفوظة للناشر



نبذة عن حياة المؤلف العلمية

يقول - أصلح الله حاله - :

ولدت فى قرية « خارفة المنشاة » مركز المنشاة - محافظة سوهاج . فى يوم الأحد الرابع عشر من جمادى الآخرة سنة ١٣٥٣ هـ الموافق للثالث والعشرين من سبتمبر سنة ١٩٣٤ م وتلقيت تعليمى الأولى بمدرسة القرية . ثم توجهت إلى حفظ القرآن الكريم بجمعية المحافظة على القرآن الكريم بالمنشاة . على يد الشيخ متولى قاسم قارىء القراءات السبع بالمنشاة وهو رجل صالح متواضع متخلق بأخلاق أهل القرآن وقد أولانى عناية خاصة - أمد الله بقاءه - ثم بعثنى والدى - رحمه الله - إلى بلدة « بلصفورة » مركز سوهاج فأتممت القرآن الكريم إعادة على يد الشيخ أحمد محمد قاسم الفقى وقد حظيت عنده بالعناية أيضا - رحمه الله رحمة واسعة - ثم التحقت بعد ذلك بمعهد « بلصفورة الدينى » فحصلت منه على الشهادة الابتدائية الأزهرية سنة ١٣٧٤ هـ الموافقة سنة ١٩٥٤م . وقد حظيت أثناء دراستى بهذا المعهد بالعناية التامة من فضيلة شيخ المعهد آنذاك . وهو فضيلة الشيخ جمال الدين بدر - أطال الله بقاءه -. وكذا من شقيقه فضيلة الشيخ أبى المواهب بدر وفضيلة الشيخ زكى بدر - رحمهما الله تعالى رحمة واسعة -.

ثم التحقت بعد ذلك بمعهد سوهاج الأزهرى فحصلت منه على الثانوية الأزهرية سنة ١٣٧٩هـ الموافقة سنة ١٩٥٩م . ثم التحقت فى نفس العام بكلية أصول الدين بجامعة الأزهر بالقاهرة فحصلت منها على « الإجازة العالية » شعبة التفسير والحديث وذلك سنة

١٣٨٣هـ الموافقة سنة ١٩٦٤م . ثم عينت فى نفس العام للتدريس بمعهد سوهاج الأزهرى وفى أثناء عملى التحقت بالدراسات العليا بكلية أصول الدين بالقاهرة فحصلت على « الماجستير » سنة ١٣٩٠هـ الموافقة سنة ١٩٧٠م . ثم على « الدكتوراه » فى – التفسير وعلوم القرآن – سنة ١٣٩٣هـ الموافقة سنة ١٩٧٧م . ثم عينت مدرسا بكلية أصول الدين بأسيوط سنة ١٣٩٩هـ الموافقة سنة ١٩٧٩م . ثم رقيت إلى رتبة « أستاذ مساعد » فى الأول من فبراير سنة ١٩٨٣م . ثم إلى درجة « أستاذ » فى – قسم التفسير وعلوم القرآن – فى الرابع من ربيع الآخر سنة ١٤٠٧هـ الموافق للرابع من مارس سنة ١٩٨٧م .

ولى من التحقيقات والمؤلفات والبحوث مايلى :

١ – تحقيق كتاب « طبقات المفسرين للداودى » وهو موضوع رسالة الدكتوراه لم يطبع بعد .
٢ – تحقيق كتاب « فتح الرحمن بكشف ما تلبس من آى القرآن » للشيخ زكريا الأنصارى طبع سنة ١٩٨٤م .
٣ – « تفسير سورة الحجر » وهو تفسير تحليلى . طبع سنة ١٩٨٣م .
٤ – « التفسير العلمى للقرآن الكريم . قضية ومناقشة ونتيجة » طبع سنة ١٩٨٥م .
٥ – « التفسير الموضوعى لآيات التوحيد فى القرآن الكريم » وهو الكتاب الذى بين يديك .
٦ – « التفسير الموضوعى لآيات الملائكة فى القرآن الكريم » طبع سنة ١٩٨٩م .
٧ – « التفسير الموضوعى للآيات القرآنية المتعلقة بالكتب السماوية » طبع سنة ١٩٨٦م .

٨ - « التفسير الموضوعى للآيات القرآنية المتعلقة بوجوب الإيمان بالأنبياء والرسل عليهم السلام » طبع سنة ١٩٨٨م .

٩ - « تحديد النسل أو تنظيمه فى ضوء الكتاب والسنة » .

١٠ - « عدد من الأبحاث العلمية نشرت بمجلة كلية أصول الدين بأسيوط ومجلة كلية البنات الإسلامية بسوهاج » .

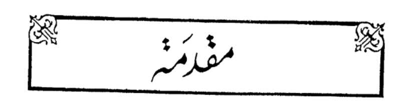
أما ما قمت به من الإشراف على الرسائل العلمية ومناقشتها فكثير جداً بجامعة الأزهر بأسيوط والجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة التى أعرت إليها للتدريس بقسم الدراسات العليا بها من سنة ١٤٠٥هـ إلى سنة ١٤٠٧هـ .

وأسأل الله تعالى أن يمدنا بعونه . ويزيدنا من فضله وأن يرزقنا الإخلاص والقبول وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين . وصلى الله وسلم وبارك على نبيه الأمين وآله وصحبه أجمعين .

كتبه المعتز بالله تعالى

الدكتور : عبد العزيز بن الدردير بن موسى

غفرَ الله له ولوالديه ولأصحاب الحقوق عليه آمين



الحمد لله الذى أنزل هذا الكتاب المعجز الخالد على عباده فهداهم به إلى الإيمان ، وأخرجهم به من ظلمات الشرك والجهل إلى نور الهداية والعرفان . والصلاة والسلام على من بلغ آيات هذا الكتاب حرفا حرفا دون زيادة أو نقصان ، وعمل بكل ما جاء فيه وتخلق به فكان خلقه القرآن ، سيدنا محمد رسول الله ﷺ وعلى آله وأصحابه البررة الأطهار .

أما بعد : فإن الله تعالى قدّر لى أن أطوّف كثيرا أثناء إعداد رسالة « الدكتوراه » فى مجال من العلم فسيح ألا وهو « طبقات المفسرين » الأمر الذى جعلنى أتعرف على طرائق أولئك المفسرين ومناهجهم فى تفسير كتاب الله وقد لفت نظرى أن منهجا واحدا لم يستوف حقه بل لم يكد يظفر من أولئك الرجال بمجهود . ذلك المنهج هو – التفسير الموضوعى – فجردت قلمى لأكتب هذا الكتاب على هذا النهج من الدراسة لعله يسد شيئاً من هذا النقص الذى يبدو واضحا فى المكتبة الإسلامية .

والتفسير الموضوعى قد يخفى مفهومه على كثير من الناس وللإيضاح نقول : إن المقصد من التفسير الموضوعى هو أن نتعرّض لموضوع – ما – ثم نستعرض كل أو معظم ما ورد فيه من آى القرآن الكريم . ثم نقوم بدراسة الموضوع دراسة تحليلية من كل جوانبه فى ضوء هذه الآيات مجتمعة مع المقارنة بين النصوص حتى تخرج فى النهاية بتصور واضح لهذا الموضوع متبينين موقف الإسلام منه مستنيرين بنور القرآن فيه . مع إزالة ما قد يوهم تعارضنا فى هذه النصوص القرآنية . أو ما قد يكون فيها من غموض أو إشكال . وهذا النوع من الدراسة القرآنية مفيد ونافع جدًّاً . يحل كثيراً من مشكلات القرآن الكريم . وييسر الفهم ويقرب الفائدة . فكثير من الناس قد لا يتيسر له قراءة القرآن الكريم كله وكثير لا يتيسر له تفسيره كله فإذا قرأ فى الموضوع الواحد نصا . دون أن يقرأ بقية النصوص وينظر فيها فإن فهمه للموضوع يكون ناقصا وتصوره له يكون غير واضح حتى يقرأ ويفهم بقية النصوص فى هذا

الموضوع . والذى يساعد على الفهم السليم والتصور الواضح للموضوع إنما هو هذا الفن من الدراسة لأنه يقوم على أساس جمع النصوص المختلفة فى الموضوع الواحد حتى يكون الفهم سليما والتصور واضحا .

هذا وقد اخترت لكتابى هذا موضوعا من أشرف الموضوعات وقضية من أسمى القضايا وأحقها بالبحث والتنقيب تلك القضية هى قضية التوحيد . التى حسم كتاب الله القول فيها ، وذكر كل ما يتعلق بها إن بالمنطوق وإن بالمفهوم . إن بالتصريح وإن بالتلميح . إن بالإشارة وإن بالعبارة وقدمها للناس واضحة جلية ، طيبة شهية ، سهلة مرضية ، لا تعقيد فيها ولا التواء ولا غموض فى حقائقها ولا خفاء ، ولا لبس فى مضامينها ولا ارتياب . وقد شغل فكرى هذا الموضوع طويلا ، وزاد اهتمامى به تلك البحار الكلامية التى سالت بالحديث فيه و عنه وحوله على شكل جدل يسمونه تارة بعلم الكلام وأخرى بالعقائد وأحيانا بالفلسفات وأحيانا أخرى بالتوحيد إلى غير ذلك من التسميات الكثيرة التى أرى أننا بالقرآن الكريم فى غنى عنها وعن مسمياتها .

فجردت قلمى مستعينا بالذى علم بالقلم لأكتب فى هذا الموضوع بعيداً عن فلسفات المتفلسفين ، وجدل الجدليين ، وكلام المتكلمين . إنما أكتب ما أكتب مستهديا بكلام رب العالمين . وقد هدانى الله تعالى فجعلت كتابى هذا مجموعة من المباحث التى تتعلق كلها بموضوعه الأساسى وهو قضية التوحيد فى القرآن الكريم . فبدأته بتمهيد عرفت فيه التوحيد وبينت أقسامه ، وعرفت الشرك وبينت أقسامه . ثم بينت الفرق بين منهج القرآن الكريم فى عرض تلك القضية وكيفية الاستدلال عليها والدعوة إليها وبين مناهج المتكلمين والفلاسفة وأصحاب الجدل . ثم أعقبت ذلك ببيان أن التوحيد فطرة الله فى البشر وأنه محل الدعوة المركزة من القرآن الكريم الذى دعا الناس إلى تحصيل التوحيد فى النفوس تارة بصريح العبارة وأخرى ببيان مضارّ الشرك والنهى عنه ونفيه عن الله تعالى نفيا قاطعا . وأنه أى التوحيد لم يك دعوة محمد ﷺ وحده بل كان دعوة الرسل جميعا من لدن نوح عليه السلام أول رسل الله إلى أهل الأرض إلى الشافع المشفع محمد ﷺ خاتم رسل الله إلى أهل الأرض . مبينا أن هذه الدعوة كلها التى حملها أنبياء الله جميعا سلسلة واحدة تمتد عبر الزمان الطويل فى إطار واحد هو الإسلام . ﴿ **إن الدين عند الله الإسلام** ﴾ [من الآية

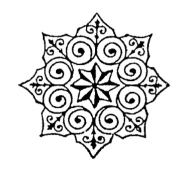
١٩ : آل عمران] ﴿ **ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى وإلى الله عاقبة الأمور** ﴾ [من الآية ٢٢ : لقمان] . ثم سقت نماذج قرآنية من دعوة الأنبياء إلى التوحيد بغية التأكيد على هذه الحقيقة التى لا يشك فيها إلا مأفون . ثم أنهيت هذا الكتاب بخاتمة موجزة جدا ضمنتها هدفى من تأليفه راجيا الله تعالى أن ينفع به ويهدى به . والله المستعان وعليه التكلان وهو حسبنا ونعم الوكيل . وصلى الله على نبيه ورسوله محمد النبى الأمى صلى الله عليه وعلى آله ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين .

كتبه المعتز بالله تعالى

الدكتور عبد العزيز بن الدردير بن موسى

مدرس التفسير وعلوم القرآن

بكلية أصول الدين بأسيوط



تمهيد

قبل أن نخوض فى تفسير آيات التوحيد التى هى موضوع كتابنا هذا لابد لنا من معرفة حقيقة التوحيد وبيان أقسامه ولابد من معرفة نقيضه وهو الشرك وبيان أقسامه أيضا . وكذلك لابد من إلقاء الضوء على منهج القرآن الكريم فى الدعوة إلى التوحيد والحث عليه وإبطال الشرك والتحذير منه وبيان الفرق بين هذا المنهج الإلهى وبين مناهج البشر من المتكلمين والفلاسفة والجدليين . فنقول وبالله التوفيق :

أما الأمر الأول : وهو التوحيد :

فهو فى عرف أهل اللغة : الإيمان بالله وحده ، قال صاحب القاموس « التوحيد الإيمان بالله وحده والله الأوحد والمتوحد ذو الوحدانية »[1]

وأما عند علماء الكلام : فهو اعتقاد أن الله تعالى واحد فى ذاته وفى صفاته وفى أفعاله . وقد قالوا : إن هذا التعريف ينفى كموما خمسة: أولها الكم المتصل فى الذات على معنى أنه ينتفى أن تكون ذاته تعالى مركبة من أجزاء .. ثانيها الكم المنفصل فيها . على معنى أنه ينتفى أن تكون هناك ذات أخرى تشبه ذاته تعالى فليس معه إله آخر . وهذان الكمان منفيان باعتقاد وحدة ذاته تعالى . ثالثها الكم المتصل فى صفاته تعالى . على معنى أنه ينتفى أن تتعدد صفاته . فليس له تعالى صفتان أو أكثر من جنس واحد كقدرتين أو قدرات تكون كل واحدة منها صالحة للإيجاد والإعدام . رابعها الكم المنفصل فى الصفات . على معنى أنه ينتفى أن يكون لغيره صفة تشبه صفته تعالى كأن يكون لغيره قدرة صالحة للإيجاد والإعدام أو علم محيط بكل ما يمكن أن يعلم . وهذان الكمان منفيان بوحدة الصفات . خامسها الكم المنفصل فى الأفعال على معنى أنه ينتفى أن يكون لغير الله فعل على سبيل الخلق والإيجاد تمكن منه من تلقاء نفسه دون أن يكون الله تعالى أقدره عليه . وهذا الكم منفى بوحدة الأفعال[2] .

وأما فى لسان الشرع : فهو الايمان أى الاعتقاد الجازم الذى لا يرقى إليه ريب ولا يخالجه شك بوجود الله تعالى ووحدانيته وأنه ليس كمثله شىء وهو السميع البصير

---

(١) القاموس المحيط فصل الواو باب الدال ص ٣٤٤ جـ ١ (ط دار الفكر بيروت) .

(٢) انظر فى ذلك حاشية البيجورى على الجوهرة ص ٣٥ (المطبعة الأزهرية المصرية . الطبعة الأولى سنة ١٣٠١ هـ) .

وبالجملة أنه يجب له كل كمال يليق بذاته ويتنزه عن كل نقص . وهو بهذا مرتبط بالمعنى اللغوى الذى أسلفناه فالعلاقة بين المعنى اللغوى والمعنى الشرعى واضحة .

والتوحيد بهذا المعنى الشرعى له شعار يعلن عنه ويدل عليه هو كلمة (لا إله إلا الله محمد رسول الله) والتى أطلقوا عليها كلمة التوحيد . وكلمة الإخلاص وكلمة التقوى إلى غير ذلك من الأسماء ، والجزء الأول منها معناه لا معبود بحق إلا الله . وهذا الاعتقاد هو أساس الإسلام وحجر الزاوية فيه فمتى استقر هذا المعنى فى النفس ووقر فى القلب دفع إلى الإيمان برسالة محمد ﷺ والشهادة له بالنبوة . ومتى استقر هذا المعنى الثانى فى النفس استتبع الإيمان بملائكة الله تعالى وبكتبه ورسله واليوم الآخر وما يقع فيه مما دلت عليه النصوص الصحيحة وكذلك استتبع الإيمان بالقدر كله خيره وشره من الله . وبذلك تكون قد اكتملت دعائم الإيمان وتمّت هذه العقيدة التى تنجى صاحبها من النيران وتجعل مستقره جنة عرضها السموات والأرض .

أقسام الإيمان :

مما تقدم عرضه ومن النظرة الفاحصة إلى حقيقة الإيمان فى لسان الشرع يتبين لنا أن الإيمان مركب من (قول وعمل) وكل منهما ينقسم إلى قسمين :

فالقول إما قول القلب وهو التصديق بما يجب التصديق به من وجود الله ووحدانيته وكونه يجب له كل كمال يليق بذاته المقدسة وكونه يتنزه عن كل نقص والتصديق بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والتصديق بالقدر فكل هذا هو قول القلب .

وإما قول اللسان : وهو النطق بالشهادتين فإن اللسان هو الذى يترجم عما فى القلب ويدل عليه لذلك جعلها الإسلام شعارا له وكانت هى الركن الأول من أركان الإسلام التى بنى عليها كما جاء فى الحديث الصحيح (**بنى الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ...**)[1] .

والعمل ينقسم إلى قسمين أيضاً :

الأول منهما : عمل القلب أى نيته وإخلاصه فكل عمل لا ينويه الإنسان لا يعتد به ولو جاء به على أكمل وجه ولذلك نرى الفقهاء فى كل عبادة أو عمل شرعى يشترطون النية فيه لكى يكون صحيحا أو يجعلونها ركنا من أركانه . وأما الإخلاص

(١) الحديث بتمامه أخرجه البخارى عن عمر بن الخطاب ص ٢ جـ ١ (ط) الشعب .

فى العمل فنية تجرده لله وحده وتمحيضه له تعالى فلا تشوبه شائبة الرياء ، وبمقدار ما يكون الإخلاص فى العمل ، بمقدار ما يكون الثواب عليه من الله جل وعلا .

وهذا هو المعنى بقول النبى ﷺ (**الأعمال بالنيات ولكل امرىء ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه**)[1] .

فهذا كله عمل القلب .

والثانى منهما : عمل الجوارح مثل الصلاة والصوم والحج والزكاة والإحسان إلى الجار وصلة الرحم والخشية من الله ومكارم الأخلاق والحكم بما أنزل الله وإماطة الأذى عن الطريق إلى غير ذلك من الأعمال التى سميت بالشعب فاعتبر الإيمان أى عمل القلب أصل وعمل اللسان والجوارح فروع أو شعب فإذا تصورنا أن الإيمان شجرة كان التصديق القلبى أصلها وكان عمل اللسان والجوارح فروعها وشعَبها وعلى هذا جاء قول النبى ﷺ (**الإيمان بضع وستون شعبة والحياء شعبة من الإيمان**)[2] .

وعلى هذا المنوال ألف الإمام البيهقى كتابه المسمى (شعَب الإيمان) فكلم فيه على أصل شجرة الإيمان وهى العقائد التى محلها القلب وتكلم فيه أيضا على فروع هذه الشجرة وهى العبادات والمعاملات والأخلاق والآداب . ومثل هذا فعل الإمام البخارى رضى الله عنه حيث عقد فى جامعه الصحيح كتابا بعنوان (كتاب الإيمان) ثم ساق تحته أبوابا [illegible] حوالى ثلاثة وأربعين بابا يروى تحت كل باب ما صح عنده من أحاديث رسول الله ﷺ وكان على شرطه . والمتأمل فى هذه الأبواب يجد أنها شعب من شعب الإيمان منها ما يتعلق بالتصديق القلبى ومنها ما يتعلق بالقول باللسان ومنها ما يتعلق بعمل الجوارح . مثل (باب الإيمان وقول النبى ﷺ « بنى الإسلام على خمس ») ومعلوم أن هذه الخمس هى الشهادتان والصلاة والزكاة والصوم والحج فهى قلبية وقولية وعملية ومثل (باب الحياء من الإيمان) ومثل (باب قيام ليلة القدر من الإيمان) ومثل (باب الجهاد من الإيمان) ومثل (باب تطوع قيام رمضان من الإيمان) ومثل (باب صوم رمضان احتسابا من الإيمان) ومثل (باب اتباع الجنائز من الإيمان) إلى غير ذلك من أعمال القلب وأعمال اللسان وأعمال الجوارح[3].

(١) أخرجه البخارى عن عمر بن الخطاب ص ٢١ جـ ١ طبعة دار مطابع الشعب .

(٢) أخرجه البخارى عن أبى هريرة ص ٩ جـ ١ طبعة دار مطابع الشعب .

(٣) انظر صحيح البخارى من ص ٨ إلى ص ٢٢ جـ ١ (ط) دار مطابع الشعب .

علام تطلق كلمة الإيمان ؟

هذا وبعد أن بيّنا حقيقة الإيمان عند أهل اللغة وعلماء الكلام والشرعيين . فإننا نود أن نشير إلى مسألة وهى أن المتأمل فى آيات القرآن الكريم وفى السنة النبوية المطهرة يجد أنهما يطلقان كلمة الإيمان أحيانا على ما يجمع التصديق والقول والعمل أى على عمل القلب واللسان والجوارح وهذا هو الإيمان الكامل الذى ينفع صاحبه وينقذه من الخلود فى النار وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ **إنما المؤْمنُونَ الذينَ إذَا ذُكِرَ اللهُ وجِلتْ قُلوبُهمْ وَإذَا تُليتْ عَليهِمْ آياتهُ زَادَتهمْ إيماناً وَعَلى رَبِّهِمْ يتوكلونَ . الذينَ يُقيمونَ الصَّلاةَ وَممَّا رَزْقناهُمْ يُنفقونَ . أولئكَ هُم المؤْمِنُونَ حَقًّا لهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ ربِّهِمْ ومَغفرةٌ وَرزقٌ كريمٌ** ﴾ [الآيات ٢ ، ٣ ، ٤ الأنفال]

ومثل قوله تعالى : ﴿ **الذينَ يُؤْمِنونَ بِالغيْب وَيُقيمونَ الصَّلاة وَممَّا رَزَقناهُمْ ينفقونَ * والذِينَ يُؤمِنوُنَ بمَا أنزلَ إليْكَ وَمَا أنزلَ مِنْ قَبْلكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أولئكَ عَلَى هُدَى مِنْ ربِّهِمْ وَأولئكَ هُم المفْلحونَ** ﴾ [الآيات : ٣ ، ٤ ، ٥ البقرة] .

وتارة يطلقان لفظ الإيمان على ما يشمل التصديق فقط أى على عمل القلب مثل قوله تعالى : ﴿ **وقالَ رَجُلٌ مُؤْمنٌ مِنْ آل فرْعوْنَ يكتمُ إيمانهُ** ﴾ [من الآية ٢٨ : غافر] .

ومثل قول النبى ﷺ لمن سأله عن الإيمان « **أن تؤمن بالله وملائكته وكتابه ولقائه ورسله وتؤمن بالبعث وتؤمن بالقدر كله** ... »[1] وتارة يطلقان لفظ الإيمان على ما يشمل العمل بالجوارح فقط مثل قوله تعالى : ﴿ **ومَا كانَ اللهُ ليضيع إيمانكم** ﴾ [١٤٣ البقرة] أى صلاتكم إلى بيت المقدس لأن الآية نزلت بعد تحويل القبلة إلى بيت الله الحرام وخوف بعض المسلمين من أن تكون صلاتهم التى صلوها إلى بيت المقدس غير مقبولة فطمأنهم الله بهذه الآية وأعلمهم أن صلاتهم هذه غير ضائعة ولا باطلة لأنهم لم يتحولوا من باطل إلى حق وإنما تحولوا من حق إلى حق حيث أن الكل بأمر الله تعالى . ومثل قول النبى ﷺ لمن سأله أى العمل أفضل ؟ « **قال إيمان بالله ورسوله** »[2] فقد أخبر بالإيمان عن العمل لأن السائل سأله عن عمل الجوارح فما دام الجواب قد جاء بهذه الصورة فهذا دليل على إطلاق لفظ الإيمان على العمل بالجوارح .

---

(١) الحديث بتمامه أخرجه مسلم عن أبى هريرة ص ١٦٤ وما بعدها جـ ١ (المطبعة المصرية ومكتبتها) .
(٢) الحديث بتمامه أخرجه البخارى عن أبى هريرة فى كتاب الإيمان ص ١٣ جـ ١ طبعة الشعب .

اختلاف العلماء فى مفهوم الإيمان :

ونظرا لهذه الإطلاقات الكثيرة فقد اختلف الناس فى مفهوم الإيمان اختلافا كثيرا . والذى يهمنا من ذلك أن السلف أجمعوا على أن الإيمان الكامل الذى ينجى من النار هو تصديق بالقلب ونطق باللسان وعمل بالجوارح . وأراد السلف بذلك أن عمل الجوارح شرط فى كمال الإيمان وليس فى صحته وتحققه . ومن هنا قال السلف إن الإيمان يزيد وينقص فيزداد كماله وترتفع مرتبته كلما التزم المؤمن بطاعة الله فى عمل الجوارح . وتنقص مرتبته ويقل كماله كلما تكاسل العبد عن طاعة الله وقصّر فى أداء واجبات الدين وفرائضه . والمعتزلة يوافقون أهل السنة فى أن الإيمان اعتقاد بالقلب ونطق باللسان وعمل بالجوارح إلا أنهم جعلوا هذه الأمور الثلاثة فى مرتبة واحدة فلا يتحقق أصل الإيمان عندهم إلا بوجودها مجتمعة . فالعمل عندهم ركن من أركان الإيمان أو شرط صحة لابد منه فى وجود حقيقته ومن هنا نشأ لهم القول بتكفير مرتكب الكبيرة . وأما المرجئة فقالوا : الإيمان اعتقاد بالقلب ونطق باللسان فقط فليس العمل عندهم ركنا من أركان الإيمان ولا شرط صحة كما قال المعتزلة . ولا شرط كمال كما قال أهل السنة . وعلى ذلك بنى المرجئة قاعدتهم المشهورة (لا تضر مع الإيمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة) وهى قاعدة باطلة . ولعلك أخى القارىء قد لمست من بيان هذه المذاهب فى مفهوم الإيمان أن مذهب أهل السنة هو أعدل المذاهب وأوسطها وهو الجدير بالاعتناق وهو الذى تدين الله تعالى عليه فى عقائدنا فهم الفرقة الوسط بين الفرق الإسلامية كما أن أمة محمد ﷺ هى الأمة الوسط بين الأمم قال تعالى : ﴿ **وَكذلكَ جَعلْناكُم أُمَّةً وَسَطاً** ﴾

[من الآية ١٤٣ : البقرة]

وإلى هنا ننهى الكلام على الأمر الأول من الأمور الثلاثة التى أردنا أن نبسط القول فيها قبل الدخول فى موضوع كتابنا هذا . كما نبهنا على ذلك فى صدر هذا التمهيد . ثم ننتقل إلى الموضوع الثانى فنقول .

وأما الأمر الثانى فهو الشرك :

وهو فى عرف أهل اللغة بمعنى الكفر قال صاحب القاموس . (وأشرك بالله كفر ، فهو مشرك ومشرِكّى ، والاسم الشرك فيهما)[1].

(١) القاموس المحيط باب الكاف فصل الشين ص ٣٠٨ جـ ٣ (دار الفكر – بيروت) .

وأما عند المتكلمين : فهو نقيض التوحيد فاعتقاد شيء من الكموم الخمسة التى تقدم أن قلنا إنها منفيّة بالتوحيد يوقع فى الشرك فاعتقاد أن ذات الله تعالى مركبة من أجزاء شرك . واعتقاد أن هناك ذاتاً أخرى تشبه ذاته تعالى شرك . واعتقاد التعدد فى صفاته تعالى بمعنى أن تكون له صفتان أو أكثر من جنس واحد كقدرتين أو إرادتين شرك . واعتقاد أن لأحد غيره صفة تشبه صفته تعالى شرك . واعتقاد أن لغير الله فعلا استقلالا دون أن يكون الله تعالى أقدره عليه شرك . والخلاصة أن الشرك هو اعتقاد التعدد فى ذات الله تعالى أو فى صفاته أو فى أفعاله . لأن ذلك هو المنافى للتوحيد الذى بينا سابقا حقيقته عند المتكلمين[1].

وأما فى لسان الشرع : فهو ما يقابل التوحيد . وإذا كان التوحيد فى الشرع بمعنى الإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر .

والإيمان بالقدر كله خيره وشره . فإن الشرك فى لسان الشرع يكون معناه الكفر بشىء من ذلك فبمجرد الشك فى وجود الله تعالى أو فى شىء من صفاته الواجبة له أو الشك فى نبوة محمد ﷺ أو نبوة أحد من رسل الله الذين ورد بهم الخبر الصادق أو الشك فى أن الله أنزل كتبه سواء أكان الكتاب الذى بين أيدينا وهو القرآن أو الكتب السابقة التى أنزلها على بعض رسله كالتوراة المنزلة على موسى والإنجيل المنزل على عيسى أو الشك فى الأمور الغيبية التى ورد ذكرها على سبيل القطع فى القرآن أو فى السنة الصحيحة فهذا كله شرك فى حكم الشرع .

وأما كلمة التوحيد وهى (لا إله إلا الله محمد رسول الله) والتى قلنا إن الإسلام اتخذها شعارا له . فهى شرط فى اعتبار الشخص مؤمنا وفى إجراء أحكام المسلمين عليه فى الدنيا وعدّه ضمن زمرة أهل الدين .

وهذا بالنسبة لكافر يريد الدخول فى الإسلام أو لشخص تربى بين أبوين كافرين ونشأ فى بيئة كافرة ثم أراد أن يتحول إلى الإسلام فيشترط لقبول ذلك منه أن ينطق بالشهادتين ولو لمرة واحدة فإذا عرضت عليه فامتنع عنها ولم يتلفظ بها وقال إنى مؤمن بدونها فلا يقبل منه ذلك ويعتبر باقيا على شركه والعياذ بالله . وأما بالنسبة لصبى تربى بين أبوين مسلمين وفى بيئة مسلمة فلا يشترط نطقه بها عند بلوغه أمام القاضى أو

---

(١) انظر حاشية البيجورى على الجوهرة ص ٥٥ الطبعة الأولى بالمطبعة الأزهرية المصرية سنة ١٣١٠ هـ .

شهود من المسلمين بل هو معدود فى المسلمين دون أن يطلب منه ذلك لأن الغالب عليه وهو بهذه الحال أن يكون قد نطق بها مرارا فى حال صباه واستمر عليها بعد بلوغه .

أقسام الشرك : سبق أن علمنا أن الإيمان عقيدة وعمل ومادام الكفر مقابل له ومضاد فيمكن لنا أن نقول إن الشرك قسمان شرك اعتقاد وشرك عمل :

الأول : وهو شرك الاعتقاد أى الإنكار والجحود أو الشك فى شيء من الأمور التى يجب التصديق بها شرعا كوجود الله والجزم بأن له الكمال المطلق والتصديق بأنه أنزل كتبا واصطفى رسلا وأن له ملائكة مكرمين والتصديق باليوم الآخر وما فيه من حساب وعقاب وجنة ونار ، فمن شك فى شيء من ذلك كله مما علم من الدين بالضرورة فهو مشرك إشراك عقيدة ، وكافر كفر جحود ، لأنه أنكر أصول الدين وكلياته التى يجب التصديق بها والإذعان لها . وهذا الكفر والعياذ بالله مخرج لصاحبه من الملة كلية ملق به خارج دائرة الإسلام فليس هو فى عداد أهل هذا الدين . وهو ما يسميه العلماء بالشرك الأكبر . ومن مات عليه فإنه يخلد فى النار ليس بخارج منها . فلا يغفر الله تعالى له هذا الجرم الذى ارتكبه وقد أقنطه من مغفرته فى الدنيا بقوله تعالى : ﴿ **إنَّ اللهَ لا يَغفرُ أنْ يُشركَ به** ﴾ [من الآية ١١٦ : النساء] .

وهذا الشرك هو المقصود بمثل قوله تعالى : ﴿ **وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللّهِ وَمَلائكتِهِ وَكُتبهِ وَرُسلهِ وَاليوْمِ الآخر فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً** ﴾ [الآية : ١٣٦ : النساء] .

وبمثل قوله جل وعلا : ﴿ **وَمَنْ يَرتددْ مِنْكم عَنْ دِينِهِ فَيمُتْ وَهُوَ كافِرٌ فَأولئِكَ حَبطتْ أعْمالهُمْ فى الدنيا والآخِرة وأولئكَ أصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالدُونَ** ﴾ [الآية ٢١٧ : البقرة] . هذا الشرك المتقدم والذى يؤدى بصاحبه إلى الخلود فى النار والذى يسميه العلماء الشرك الأكبر هو من عمل القلب . إلا أنه لا يفوتنا أن نذكر أن هناك عملا آخر من أعمال القلب هو شرك أيضا ولكن لا يصل إلى هذه الدرجة من الخلود فى النار وعدم المغفرة . ويسميه العلماء الشرك الأصغر ففيه الوعيد الشديد وهو إثم عظيم ولكن لا يخلد صاحبه فى النار ذلكم هو الرياء أى عدم إخلاص العبادة لله رب العالمين كأن يذهب المصلى للمسجد ليؤدى الصلاة وهو قطعا يرجو الثواب من الله ولكنه فى نفس الوقت يريد أن يراه الناس ليمدحوه بارتياد المساجد وكأن ينفق شيئا من ماله يرجو ثواب الله ولكنه يرغب فى أن يثنى عليه الناس بالكرم إلى غير ذلك من الأمور التى تشوبها شائبة الرياء ولا يتمحض الإخلاص فيها لله رب العالمين فهو

شرك متعلق بالقلب ولكنه ليس إنكارا ولا جحودا لأمر من أصول الدين . فلا يوجب الخلود فى النار وإن كان محرما تحريما شديدا . وإلى الشرك الأصغر أشار القرآن الكريم بقوله تعالى : ﴿ **فمنْ كانَ يَرْجُوا لقاءَ رَبِّهِ فَليعملْ عَملاً صَالحاً وَلا يُشرِكْ بِعبادةِ رَبِّهِ أَحَداً** ﴾ [الآية ١١٠ : الكهف] .

الثانى : من أنواع الشرك هو شرك العمل وهو ما يتعلق بعمل الجوارح من الذنوب والمعاصى ولكن بعض هذه المعاصى والأعمال المنافية للإيمان تخرج صاحبها عن دائرة الإسلام كلية وتنأى به عن عداد المسلمين وإذا مات وهو مصرّ عليها دون أن يرجع عنها ويتوب إلى الله منها فإنه والعياذ بالله يخلد فى النار ويكون قد وقع فى الشرك الأكبر وذلك مثل إهانة المصحف أو سب النبى أو قتله .

وبعضها لا يخرج عن الدين كلية ولا يستحق مرتكبه الخلود فى النار وإن كان فيه الوعيد الشديد ، ويعدّ هذا من الشرك الأصغر . وذلك مثل ترك الصلاة كسلا مع الاعتراف بوجوبها ؛ ومثل الحلف بغير الله تعالى ؛ ومثل شرب الخمر ، والوقوع فى الزنا ، والسرقة ، مع عدم استحلال ذلك ؛ ومثل إتيان الكاهن والعراف وتصديقه فيما يقوله ؛ ومثل الاستنجاء من الريح ؛ ومثل قتال المسلمين بعضهم بعضاً ؛ ومثل الغش فى التجارة ؛ ومثل الحكم بغير ما أنزل الله على أرجح الأقوال ؛ وإلى هذا الشرك الأصغر تشير النصوص من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية . مثل قول النبى ﷺ « **بين الرجل وبين الكفر ترك الصلاة** »[1]. وقوله ﷺ : « **العهد الذى بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر** »[2] ومثل قوله ﷺ : « **من حلف بغير الله فقد أشرك** »[3] ومثل قوله ﷺ : « **لا يزنى الزانى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق وهو مؤمن ، ولكن التوبة معروضة** »[4] ومثل قوله ﷺ : « **من أتى كاهنا فصدقه فيما يقول فقد برىء مما أنزل الله على محمد** »[5]. ومثل قوله ﷺ : « **ليس منا من استنجى من ريح** » ومثل قوله ﷺ فى خطبته المشهورة فى حجة الوداع « **فلا ترجعوا**

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه عن جابر بن عبد الله . وكذا أخرجه الترمذى بلفظ (بين العبد وبين الشرك أو الكفر ...) فى باب ما جاء فى ترك الصلاة ص ١٢٥ جـ ٤ . وقال : هذا حديث حسن صحيح .

(٢) رواه أحمد وأصحاب السنن وقال الترمذى صحيح على شرط مسلم وهو فى الترمذى ص ١٤٦ جـ ٤ .

(٣) رواه أبو داود فى كتاب الإيمان والنذور ص ٣٠٣ جـ ٣ مطبعة السعادة سنة ١٣٦٩ هـ – سنة ١٩٥٠م بتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد .

(٤) أخرجه الترمذى فى (باب لايزنى الزانى وهو مؤمن) ص ١٢٧ جـ ٤ .

(٥) أخرجه أبو داود فى (باب الكاهن) ص ٢١ جـ ٤ .

بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض »[1] ومثل قوله عليه الصلاة والسلام « ليس منا من غش »[2] ومثل قول الله تعالى : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحكم بما أنزَلَ اللّهُ فأولئكَ هُم الكافِرُونَ ﴾ [من الآية ٤٤ : المائدة] .

خــــلاصة :

والخلاصة أن الشرك شعب كما أن الإيمان شعب فلو تصورنا أن الشرك شجرة لكان شجرة خبيثة أصلها الإنكار والجحود أو الشك فيما يجب التصديق به من وجود الله تعالى ووحدانيته واتصافه بكل كمال يليق بذاته وتنزيهه عن كل نقص واعتقاد أنه أرسل الرسل وأنزل الكتب وأن له ملائكة مكرمين . واعتقاد أن الساعة آتية لا ريب فيها واعتقاد أن هناك عقابا وثوابا وجنة ونارا وبالجملة إيمان بكل السمعيات التى ورد بها الخبر الصادق من كتاب أو سنة . فمن شك أو أنكر شيئاً من هذه الأمور فقد وجد فى قلبه أصل الشرك المفضى به إلى النار والذى يحرم عليه الجنة . ومن لم يتعلق بقلبه شيء من ذلك فقد نجا من الشرك الأكبر الذى لا يغفره الله أبداً . ثم تبقى بعد ذلك بقية المعاصى المتعلقة باللسان أو الجوارح . فتكون هى فروع هذه الشجرة الخبيثة وشُعَبها ، وهذه المعاصى متفاوتة ومختلفة فبعضها شديد الجرم عظيم الإثم يدل على أن مرتكبه قد تخلخل الإيمان فى قلبه وصار إلى الشرك أقرب منه إلى الإيمان فهذا يلحق بأصل هذه الشجرة الخبيثة ويعدّ شركه شركا أكبر مثل شرك العقيدة تماما . وذلك مثل من أهان المصحف أو سبّ النبى ﷺ فهذا لايصدر أبدا من قلب نقى لم يخالطه كفر . فمن فعل ذلك فقد عدّه العلماء مشركا شركا أكبر وإن كان ما صنعه متعلق بعمل الجوارح . وأما بقية المعاصى التى لا تصل إلى هذا الحدّ فهى من شعب الشرك ولكنها شرك أصغر لا تخرج مرتكبها عن دائرة الإسلام . وإن كان يصح أن يوصف بوصف الكفر أو الشرك كما تقدم من النصوص التى ذكرناها حيث وصف النبى ﷺ هؤلاء العصاة بهذه الأوصاف وكما وصف القرآن الكريم من حكم بغير ما أنزل الله بالكفر . فلا مانع من إطلاق هذه الأوصاف على هؤلاء العصاة مع اعتقاد أنهم ليسوا خارجين عن الإسلام بالكلية . فالحقيقة أن هناك شركاً دون شرك وكفراً دون كفر . كما قال ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى ﴿ ومَن لَمْ يحكم بما أنزَل اللّهُ فأولئكَ هُم الكافرُون ﴾ .

(١) أخرجه ابن ماجه فى كتاب الفتن ص ١٣٠٠ جـ ٢ طبع عيسى البابى الحلبى .
(٢) أخرجه أبو داود من حديث أبى هريرة فى كتاب البيوع باب النهى عن الغش ص ٣٧٠ جـ ٣ .

ليس هو بالكفر الذى يذهبون إليه . وعنه أيضا أنه قال : هو بهم كفر ، وليس كمن كفر بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وفى رواية أخرى عنه أيضا : كفر لا ينقل عن الملة . ومثل ذلك قال طاووس وعطاء وغيرهم[1].

هذا وبعد أن تكلمنا عن الشرك وحقيقته وأقسامه نود أن نشير إلى نقطة هامة يقع الخلط واللبس فيها كثيرا وخاصة بين أبنائنا وإخواننا المثقفين ثقافة مدنية ولم يكن لهم حظ من دراسة الاسلام دراسة متأنية متعمقة ولكن فى قلوبهم حب للدين وفى طبيعتهم تدين بالفطرة فراحوا يقرءون كتب الدين ويحفظون بعض النصوص ويفسرونها بأنفسهم وبجهودهم الشخصى وهم بذلك مشكورون بحسن نيتهم ولكن حسن النية وحده لا يكفى . وتلكم المسألة التى قصدت إلى الكلام فيها هى :

أن آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية أطلقت أوصافا على بعض العصاة منها الشرك والكفر والفسق والظلم والجاهلية إلى غير ذلك . وهذا الإطلاق شرعى ولا شيء فيه مادام قد ورد فى كتاب الله أو فى سنة رسوله ﷺ فإذا سمينا مرتكبى هذه المعاصى بهذه الأسماء أو وصفناهم بهذه الصفات فلسنا بآثمين لأن الله أو رسوله قد سماهم بذلك . ولكن الذى يجب أن نتنبه إليه أن مجرد هذا الإطلاق عليهم لا يعنى ألبتة أنهم خارجون عن الدين كلية . بل إن هناك شركاً دون شرك وكفراً دون كفر وفسقاً دون فسق وظلماً دون ظلم وجاهلية دون جاهلية . فإذا أردنا أن نتبين وجه الحق فى هذه المسألة فعلينا أن نجمع النصوص المتعلقة بذلك ونقارن بينها حتى يتضح لنا ما ترمى إليه النصوص فلا نأخذ الشرك الأكبر الذى هو شرك العقيدة . ونتوعّد بنصوصه أصحاب الشرك الأصغر فأى عاقل لا يسوى بين جريمة من أنكر وجود الله وبين جريمة من حلف بغير الله مثلا أو أتى كاهنا أو عرافا . فالأول شرك عقيدة يخلد صاحبه فى النار وما بعده شرك أصغر قد يغفره الله وقد يؤدى إلى النار ولكن لا يخلد فيها . وكذلك أيضاً لا يمكن أن نسوى بين كفر من اعتقد أن مع الله إلها آخر وبين كفر من ترك الصلاة كسلا . مع أنهما قد أطلق عليهما هذا الوصف .

وكذا لا يمكن أن نسوى بين فسق من أتى بالنميمة حيث سماه القرآن فاسقا فى قوله تعالى : ﴿ **يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا** ﴾ [من الآية ٦ : الحجرات] .

(١) انظر فى ذلك ابن القيم فى (كتاب الصلاة وحكم تاركها) ص ٣٢ دار بدر للطباعة والنشر .

وبين فسق إبليس حيث وصفه القرآن بذلك فى قوله تعالى : ﴿ **إلا إبْليسَ كانَ منَ الجنِّ ففسقَ عَنْ أمْرِ رَبه** ﴾ [من الآية ٥٠ : الكهف] .

ولا يمكن أن نسوى بين ظلم الكافرين حيث وصفهم القرآن بذلك فى قوله تعالى : ﴿ **وَالكافِرُونَ هُم الظَّالِمُونَ** ﴾ [من الآية ٢٥٤ : البقرة] .

وبين خطيئة آدم وحواء حيث سمى الله هذه الخطيئة ظلما فى قوله تعالى حكاية عنهما : ﴿ **رَبَّنا ظَلَمْنا أنْفُسنا** ﴾ [من الآية ٢٣ : الأعراف] .

ولا يمكن أن نسوى بين جهل الكافرين فى قوله تعالى : ﴿ **خُذ العفْو وأْمُر بالعُرْفِ وأعْرِضْ عَن الجاهِلينَ** ﴾ [من الآية ١٩٩ : الأعراف] .

وبين جهل من عمل السوء وهو لا يعرفه كما فى قوله تعالى : ﴿ **إنما التوبة عَلى اللّهِ للَّذِينَ يَعْملُونَ السُّوءَ بجَهالةٍ ثمَّ يَتوبُونَ مَنْ قريبٍ** ﴾ [من الآية ١٧ : النساء] .

ومن هنا كان أمر الشرك والكفر أمراً دقيقاً فلا يصح أن نرمى به غيرنا ونعتقد كفره وخروجه عن الدين بالكلية حتى نعمل لذلك ألف حساب وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول « **الشرك فى هذه الأمة أخفى من دبيب النمل** »[1] ولنتذكر قوله ﷺ « **من قال لصاحبه ياكافر فقد باء بها أحدهما** »[2]. والله الموفق .

وإلى هنا ننهى الكلام على الأمر الثانى الذى قصدنا إلى الحديث عنه وهو الشرك ثم ننتقل إلى الأمر الثالث فنقول :

وأما الأمر الثالث فهو :

منهج القرآن فى إثبات التوحيد والفرق بينه وبين منهج الفلاسفة والمتكلمين :

قبل أن نتحدّث فى هذا الموضوع ونوضح الفروق بين منهج القرآن وبين هذه المناهج فى إثبات عقيدة التوحيد ونفى الشرك عن البارى جل وعلا يجدر بنا أن نضرب ولو مثالا واحدا لكل منها حتى يكون الحكم على الشىء واضحا ماثلا أمام القارىء . ولنبدأ بطريقة الفلاسفة فى هذا المجال . فنقول :

إن أمثل ما توصل إليه الفلاسفة قدامى ومحدثون من أدلة على وجود الفرد الكامل

---

(١) أخرجه الحكيم الترمذى فى النوادر وأبو نعيم والبزار وغيرهم (انظر جمع الجوامع) ط مجمع البحوث .

(٢) أخرجه الترمذى بلفظ (أيما رجل .. الخ) فى باب من قال لصاحبه ياكافر ص ١٣٢ جـ ٤ وقال : هذا حديث حسن صحيح .

(الله) هى براهين ثلاثة :

١ - **البرهانى الكونى** : وملخص هذا البرهان أن الموجودات لابد لها من موجد لأننا نرى أن كل موجود منها يتوقف على موجد ، وموجده أيضاً يتوقف على موجد ؛ وإذا كانت الموجودات غير واجبة الوجود لذاتها فلابد لها من سبب يوجبها ، ولا يتوقف على وجود سبب سواه .

وهذا البرهان الكونى قال به توماس الأكوينى قديما وقال به أيضا فلاسفة الإسلام والمتكلمون . وقال به ديكارت من الفلاسفة المحدثين .

٢ - **برهان الغاية** : وهو يقوم على إثبات وجود القوة العاقلة (الإله) بواسطة وجود هذه المخلوقات واتساقها فى نظام بديع لايعتريه الخلل ولايتطرق إليه الفساد وحسن الصنعة يدل على عظم الصانع . وقد أطلقوا على هذا البرهان (مذهب الألوهية الطبيعية) . وقد قال بهذا البرهان من الفلاسفة القدامى أناكسا جوراس والرواقيون ومن الفلاسفة المحدثين . جان جاك روسو . وسانبيير وغيرهما وكذلك استخدم هذا البرهان المتكلمون ولكن بطريقتهم هم لا بطريق الفلاسفة .

٣ - **برهان المثل الأعلى** : وخلاصة هذا البرهان (أن العقل الإنسانى كلما تصور شيئا عظيما تصور ما هو أعظم منه إلى نهاية النهايات وغاية الغايات حتى ينتهى إلى الكمال المطلق والكمال المطلق لابد أن يكون وجودا مطلقا وإلا لكان نقصا لا كمالا . فالإله هو الحائز لكل الكمالات . والوجود والوحدانية هما على رأس الكمالات ...) وقد قال بهذا البرهان من الفلاسفة القدامى القديس أنسلم ومن الحدثين ديكارت وليبنتز وغيرهما .

هذا ولا يغرنك أيها القارىء أن هذه البراهين الفلسفية مسوقة لإثبات وجود الله . وليس للوحدانية التى هى موضوع حديثنا فإننا نقول : إنهم بهذه البراهين قصدوا إثبات القوة العاقلة أو الإله الكامل كمالا مطلقا ولا يتصور الكمال المطلق بدون الوحدانية فدليل الوجود الذى ساقوه يستلزم دليل الوحدانية لا محالة . ثم نضرب بعد ذلك مثالا لطريقة المتكلمين فى إثبات الوحدانية فنقول :

طريقة المتكلمين : من أبرز الأدلة التى يبرهن بها علماء الكلام على إثبات وحدانية الله تعالى . وجود هذا العالم .

فيقولون : (لو تعدّد الإله كأن يكون هناك إلهان لما وجد شيء من العالم . لكن عدم وجود شيء من العالم باطل لأنه موجود بالمشاهدة فما أدى إليه وهو التعدّد باطل وإذا بطل التعدّد ثبتت الوحدانية) وزيادة فى إيضاح هذا البرهان نسوق بقّية كلامهم : فقد قالوا : وإنما لزم من التعدد عدم وجود شيء من العالم لأنهما أى الإلهين إما أن يتفقا وإما أن يختلفا فإن اتفقا فلا جائز أن يوجداه معا لئلا يجتمع مؤثران على أثر واحد . ولا جائز أن يوجداه مرتبا بأن يوجده أحدهما ثم يوجده الآخر لئلا يلزم تحصيل الحاصل . ولا جائز أن يوجد أحدهما بعضه ويوجد الآخر البعض الآخر لئلا يلزم عجزهما حينئذ لأنه لما تعلقت قدرة أحدهما بالبعض سدّ على الآخر طريق تعلق قدرته به فلا يقدر على مخالفته وهذا عجز . ويسمى علماء الكلام هذا البرهان برهان التوارد لما فيه من تواردهما على شيء واحد .

وإن اختلفا : بأن أراد أحدهما إيجاد العالم وأراد الآخر إعدامه فلا جائز أن ينفذ مرادهما لئلا يلزم عليه اجتماع الضّدّين ولا جائز أن ينفذ مراد أحدهما دون الآخر لئلا يلزم عجز من لم ينفذ مراده والآخر يكون عاجزا مثله أيضا لانعقاد المماثلة بينهما بادىء ذى بدء . ويحكى عن ابن رشد أنه قال فى مثل هذا: إن من نفذ مراده منها هو الإله . وهذا البرهان يسميه علماء الكلام برهان التمانع لتمانعهما وتخالفهما[1]. ويعد ضرب المثل لطريقة المتكلمين فى التدليل على الوحدانية آن لنا أن نضرب المثل من القرآن الكريم . ثم بعد ذلك نتبين الفروق .

أدلة القرآن الكريم على إثبات الوحدانية : ساق القرآن الكريم أدلة كثيرة على توحيد الله تعالى منها برهان الفلاسفة الكونى . فى مثل قوله تعالى ﴿ **أَمْ خُلقُوا مِنْ غير شَىْءٍ أَمْ هُمُ الخالِقُونَ . أَمْ خلقوا السمَوَات وَالأَرْضَ بَلْ لا يُوقنُونَ** ﴾ [الآيتان ٣٥ ، ٣٦ : الطور]

وبرهان الغاية بمثل قوله تعالى : ﴿ **قُل انظُرُوا مَاذا فى السَّموَاتِ وَالأَرْض** ﴾ [من الآية ١٠١ : يونس]

وقوله ﴿ **ما تَرَى فَى خَلْقِ الرّحمن مِنْ تفاوُتٍ** ﴾ [من الآية ٣ : الملك] .

وبرهان المثل الأعلى بمثل قوله تعالى : ﴿ **وَله الْمثَلُ الأَعْلى فِي السَّموات والأَرْضِ**

(١) ينظر فى كل ما تقدم من أدلة المتكلمين حاشية البيجورى على الجوهرة ص ٣٥ الطبعة الأولى المطبعة الأزهرية المصرية سنة ١٣١٠ هـ .

وَهُوَ العزيزُ الحكيمُ ﴾ [من الآية ٢٧ : الروم] .

وبرهان علماء الكلام بمثل قوله تعالى : ﴿ مَا اتّخذَ اللّهُ مِنْ وَلَد وَمَا كانَ مَعهُ مِنْ إله إذاً لذَهبَ كلُّ إلهٍ بما خلقَ وَلعَلا بَعضُهمْ عَلَى بَعضٍ سُبحانَ الله عمَّا يَصفُون ﴾ [الآية ٩١ : المؤمنون] .

وبمثل قوله تعالى : **﴿ لو كانَ فيهما آلِهة إلا اللّهُ لفسدَتا ﴾** [من الآية ٢٢ : الأنبياء] .

وبعد أن سقنا هذه الآيات الكريمة التى تبرهن على وحدانية الله تعالى بمختلف الطرق التى سلكها الفلاسفة والمتكلمون . نسوق إليك مثالا واحدا جمع كل هذه الطرق فى موضع واحد ، وقد ساق هذا المثال علم من أعلام الإسلام كان قد اشتغل بالفلسفة وعلم الكلام طويلا وكان له اليد الطولى فى إرساء قواعد علم الكلام والفلسفة معا . ولكنه رجع عن كل هذه الطرق فى إثبات عقيدة التوحيد إلى طريق القرآن الكريم فهى أجدى وأنفع الطرق كما صرح هو بذلك مرارا . ذلكم العالم الجليل هو الإمام فخر الدين الرازى وذلكم المثال هو قوله تعالى : **﴿ يَأيُّهـا النَّاسُ اعْبدُوا ربَّكمُ الذى خلقكُمْ والَّذِينَ مِنْ قبْلكم لعلكم تتَّقُون * الذى جعل لكم الأرض فراشا والسَّماءَ بناءً وأنزلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فأخرجَ بِهِ مِنَ الثمرَاتِ رزْقاً لكُمْ فلا تجعلوا لِلّهِ أنْداداً وأنتم تعلمُونَ ﴾**
[الآيتان ٢١ ، ٢٢ : البقرة]

قال الرازى بعد أن ذكر هاتين الآيتين : (فبدأ أولا بإثبات الصانع وتوحيده وبين ذلك بخمسة أنواع من الدلائل . أولها : أنه استدل على التوحيد بأنفسهم وإليه الإشارة بقوله **﴿ اعبدوا ربكم الذى خلقكم ﴾** وثانيها : بأحوال آبائهم وأجدادهم ، وإليه الإشارة بقوله : **﴿ والذين من قبلكم ﴾** وثالثها : بأحوال أهل الأرض . وإليه الإشارة بقوله : **﴿ الذى جعل لكم الأرض فراشا ﴾** ورابعها : بأحوال أهل السماء . وإليه الإشارة بقوله : **﴿ والسماء بناء ﴾** وخامسها : بالأحوال الحادثة المتعلقة بالسماء والأرض . وإليه الإشارة بقوله : **﴿ وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ﴾** . فإن السماء كالأب والأرض كالأم ينزل المطر من صلب السماء إلى رحم الأرض فيتولد منهما أنواع النبات . ولما ذكر هذه الدلائل الخمسة رتب المطلوب عليها فقال : **﴿ فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون ﴾**[1].

---

(١) عجائب القرآن ص ٢٥ ، ٢٦ بتحقيق عبد القادر أحمد عطا . الطبعة الأولى سنة ١٩٨٢ م مطبعة حسان بالقاهرة .

الفرق بين منهج القرآن فى هذه العقيدة وبين غيره من المناهج :

قبل أن نتحدث عن الفرق بين منهج القرآن الكريم وبين مناهج البشر فى إثبات عقيدة التوحيد يجب أن نعلم أن هناك فرقا بين منهج المتكلمين ومنهج الفلاسفة أما المتكلمون فإنهم يعتقدون بوجود الإله ووحدانيته أولا ضرورة أنهم مسلمون ثم يحاولون التدليل على هذه العقيدة التى استقرت فى قلوبهم . بواسطة هذه الأدلة والبراهين لتكون العقيدة التى فى قلوبهم مدعمة بالدليل القاطع والبرهان الساطع ولكى يحتجوا بهذه الأدلة والبراهين على غيرهم من الناس حينما يدعونهم إلى توحيد الله تعالى ومعرفته فهم يعتقدون أولا ثم يستدلون ثانيا . وهذه العقيدة التى يستدلون عليها هم لها مذعنون وبها راضون ولنتائجها وفرائضها مؤدون . بخلاف الفلاسفة غير المسلمين فى ذلك كله . فتجد الفلاسفة غير المسلمين من قدامى ومحدثين . يبدأ بحثهم من الشك فهم يشكون ثم يستدلون ثم بعد الاستدلال يعتقدون . فلم تكن عقيدة التوحيد فى قلوبهم بادىء ذى بدء وإنما حصلت لهم بعد البحث والتنقيب فهم يبحثون أولا ثم يعتقدون ثانيا فعقيدتهم بوجود الإله جاءتهم نتيجة البحث والاستقلال . ثم إن عقيدتهم هذه حتى بعد تحصيلها لم يتجاوزوها إلى ثمرتها المرجوة من الإذعان والرضى والعمل بشرائعها وفرائضها . فلم يستفيدوا منها فائدة المتكلمين . وإلا لكان ديكارت وجان جاك روسو وليبنتيز وغيرهم من الفلاسفة معدودين من خيرة المسلمين والحقيقة أن هذه المعرفة المجردة التى توصل إليها الفلاسفة ولم تؤد ثمارها ما هى إلا كمعرفة المشركين من العرب الذين قال الله عنهم ﴿ **وَلئِنْ سَألتهم مَنْ خلقَ السَّمواتِ والأَرْضَ ليقُولنَّ اللّهُ** ﴾ [من الآية ٣٨ : الزمر] .

فلم يفدهم ذلك فى شيء .

الفروق بين منهج القرآن ومناهج الجدليين :

ثم ننتقل بعد ذلك إلى الفروق بين منهج القرآن ومناهج الجدليين من فلاسفة ومتكلمين . فنقول :

أ - منهج الجدليين :

إن منهج الجدليين من فلاسفة ومتكلمين يقوم على أساس الاستدلال بطريق المقدمات

المفترضة أحيانا والواقعة أحيانا أخرى وهذه المقدمات الواقعة أو المفترضة مفضية إلى نتائج ، ولكن هذه النتائج قد تخطىء لخطأ بعض مقدماتها . وقد تصيب .

ومع هذه الإصابة فهى محل نظر من كثير من الناس فإذا سلمت عند البعض فقد لا تسلم عند الآخرين بدليل أن هذه النتائج التى بدت فى نظر بعض المفكرين وكأنها قضايا مسلمة لفترة من الزمن ناقضها بعضهم الآخر فأبطلها بعد أن كانت مسلمة فى نظر أصحابها .

وبعد هذا كله وقبل هذا كله فإن هذه النتائج لا تخاطب من الإنسان إلا عقله فقط ولا تستخدم إلا فكره فحسب .

ثم إن هذه النتائج وتلك القضايا مقصورة على فئة قليلة من الناس هم الذين شاء لهم الحظ أن يصلوا بفكرهم وثقافتهم إلى هذا المستوى الذى وصل إليه أولئك المفكرون . أما السواد الأعظم من الناس الذين لا يرقى بهم الفهم إلى استخدام هذه المقدمات للتوصل إلى تلك النتائج فهم بمعزل عن هذا الموضوع تماما .

وحتى العدد الضئيل من الناس الذين يمكنهم استخدام هذه المقدمات والوصول منها إلى تلك النتائج فإن معرفتهم غير يقينيَّة لأن تلك النتائج كما قلنا محل نظر من الآخرين فإذا سلمها البعض فقد لا يسلمها البعض الآخر .

بيد أن هذه الطريقة فى الاستدلال تدفع بأصحابها إلى التسلسل فتخرجهم من قضية إلى قضية ومن دليل إلى دليل حتى توصلهم إلى التيه فى شعاب الكلام ومسالكه . هذا هو منهج الجدليين من البشر .

ب – منهج القرآن :

أما منهج القرآن الكريم فإنه يستخدم فى التدليل على هذه القضية – قضية التوحيد – جميع الأساليب المؤدية إلى تثبيتها فى القلب والإذعان لها والرضا بها واستخدام كل الجوارح فى طاعة الله التى هى ثمرة هذه العقيدة .

الأسلوب العقلى :

فيستخدم الأسلوب العقلى فى مثل قوله تعالى : ﴿ **لو كانَ فيهما آلهةٌ إلا اللّهُ لفسدَتا** ﴾ [من الآية ٢٢ : الأنبياء]

وبمثل قوله : ﴿ مَا اتخذَ اللّهُ مِنْ وَلد ومَا كانَ مَعهُ مِنْ إلهٍ إذاً لذَهبَ كلُّ إلهٍ بما خلقَ وَلعلا بَعضُهمْ عَلَى بَعض ﴾ [من الآية ٩١ : المؤمنون] .

الأسلوب الوجدانى والعاطفى :

ويستخدم الأسلوب الوجدانى والعاطفى فيثير من الإنسان وجدانه ويحرك عاطفته نحو هذه العقيدة . بمثل قوله تعالى : ﴿ اللّهُ الذِى رَفعَ السَّمَوَاتِ بِغْيرِ عَمدٍ ترَوْنها ثُمَّ استَوى عَلَى العرْشِ وسَخَّرَ الشَّمسَ والقمرَ كلٌ يجْرِى لأجَلٍ مُسمّى يُدبِّر الأمْرَ يُفصِّلُ الآياتِ لعلكم بِلقاءِ رَبِّكم توقنونَ ﴾ [الآية ٢ : الرعد] .

وبمثل قوله تعالى : ﴿ أمَّنْ خلقَ السَّمواتِ والأرْضَ وأنزَل لكم مِنَ السَّماءِ ماءً فأنبتنا به حَدائقَ ذاتَ بَهجةٍ مَا كانَ لكم أن تنبتُوا شجرَها أإلهٌ مَعَ اللّهِ بلْ هم قوْمٌ يعدلونَ . أمَّن جعلَ الأرْضَ قراراً وجَعلَ خِلالها أنْهاراً وجَعلَ لها رواسِىَ وجَعلَ بينَ البحريْنِ حاجزاً أإلهٌ مَعَ اللّهِ بلْ أكثرهُمْ لا يَعلموُنَ أمَّنْ يجيبُ المضطرَّ إذا دَعاهُ ويكشفُ السّوءَ ويجْعلكم خلفاءَ الأرْضِ أإلهٌ مَعَ اللّه قَليلاً مَا تذكرُّوُنَ . أمَّنْ يَهْديكم فى ظُلماتِ البرِّ والبحْر ومَنْ يُرْسلُ الرّياحَ بُشراً بَينَ يدَىْ رحمتهِ أإلهٌ معَ اللّهِ تعالَى اللّهُ عمَّا يُشركون . أمَّنْ يَبدَؤا الخلقَ ثمَّ يُعيدُهُ وَمنْ يرْزُقكم مِنَ السَّماءِ والأرْضِ أإله مَعَ اللّهِ قُلْ هاتُوا بُرْهانكم إنْ كُنتمْ صَادِقِينَ ﴾ [الآيات من ٦٠ - ٦٤ : النمل] .

أسلوب النظر فى ملكوت الله :

كما يستخدم القرآن أسلوب النظر فى ملكوت الله حتى تكون حواس الإنسان كلها مستغرقة فى آيات الله وآلائه ليتخذ الإنسان من ذلك الدليل اليقينى على كمال قدرة الله ووحدانيته وذلك بمثل قوله تعالى : ﴿ قلْ انظُروا ماذَا فى السَّمواتِ والأرْض ﴾ [من الآية ١٠١ : يونس] .

وبمثل قوله ﴿ وفى الأرْض آياتٌ لِلموقِنين وفى أنفُسكم أفلا تبصرُون ﴾ [الآيتان ٢٠ ، ٢١ : الذاريات] .

وبمثل قوله تعالى : ﴿ أفلا ينظُرُونَ إلَى الإبلِ كيفَ خُلقتْ . وإلَى السَّماء كيفَ رُفعتْ . وإلى الجبالِ كيفَ نصبتْ . وإلَى الأرْض كيفَ سُطحتْ ﴾ .
[الآيات من ١٧ - ٢٠ : الغاشية] .

إلى غير ذلك من الآيات .

وبذلك يكون القرآن الكريم قد قدّم الدليل على وحدانية الله تعالى لجميع طوائف الناس للعامة والخاصة والأذكياء والأغبياء والمثقفين ومن هم على البداوة كل بقدر ما يتناسب معه والذى يساعد على ذلك أن عقيدة التوحيد فى حد ذاتها واضحة جلية ولا لبس فيها ولا خفاء . ويكون قد شغل جميع حواس الإنسان سمعه وبصره وعقله وفكره وقلبه وشعوره ووجدانه للاستغراق فى الدلالة على هذه القضية . وهذا المنهج القرآنى هو الأجدى والأنفع لسائر البشر وهو الذى يحقق لهم العقيدة السليمة من أقرب طريق .ويضمن لهم السعادة فى الدنيا والآخرة . وخير دليل على سلامة هذا المنهج وتفضيله على غيره من المناهج هو واقع هذه الدعوة فى تاريخها الممتد من عصر النبى ﷺ إلى عصرنا الحاضر فقد بدأ الإسلام بعد البعثة النبوية مستخدماً المنهج القرآنى فى تثبيت هذه العقيدة فى النفوس ، ولم تكن قد ظهرت فى حياة المسلمين مناهج أولئك الجدليين من فلاسفة ومتكلمين . فكانت الدعوة الإسلامية أوسع ما تكون انتشارا وأقوى ما تكون بناء وأشد ما تكون تماسكا فى هذه الفترة التى كان يختفى فيها تماما من حياة المسلمين منهج الجدليين وهذه الفترة هى من عصر النبى ﷺ إلى العصر العباسى تقريبا .

السبب فى ظهور هذه الجدليات :

ونلفت النظر إلى أن السبب فى ظهور هذه الجدليات فى العصر العباسى كان مرجعه إلى تلك الترجمة الواسعة التى قام بها بعض المسلمين لفلسفة اليونان وغيرها مما فتح على المسلمين باب الجدل والتشكيك من قبل أعدائهم غير المسلمين فقام بعض المخلصين بالردود عليهم واضطروا إلى استخدام نفس السلاح الذى هاجمهم به أعداؤهم حتى تكون بذلك علم الكلام والحقيقة أن علم الكلام كان ضرورة فى عصره صدّ به المسلمون عن دينهم هجوما عنيفا شنّه عليهم أعداؤهم بواسطة هذا الجدل للتشكيك فى الركائز الأساسية لهذا الدين فجزاهم الله عن الإسلام خيراً .

أما الآن فأصبح هذا العلم بقواعده وأساليبه العقلية المعقدة غير صالح لحراسة هذه العقيدة أو للدعوة إليها .

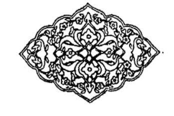
بل إن خير الوسائل لحماية هذه العقيدة والعمل على انتشارها هو منهج القرآن الكريم .

وفق الله الجميع للرجوع إلى هذا النبع الصافى كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تزيل من حكيم حميد .

وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى صلى الله عليه وعلى آله وصحبه .

ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين .

ولنبدأ الآن فيما قصدنا إليه من تفسير آيات التوحيد تفسيراً موضوعياً فنقول وبالله التوفيق .



فطرية التوحيد فى نفوس البشر

روى مسلم فى صحيحه بسنده عن عياض بن حمار المجاشعى أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم فى خطبته : « **ألا إن ربى أمرنى أن أعلمكم ما جهلتم مما علمنى يومى هذا ، كل مال نحلته عبدا حلال ، وإنى خلقت عبادى حنفاء كلهم ، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بى لم أنزل به سلطانا . الخ** »[1].

وقال ﷺ أيضا « **ما من مولود إلا يولد على الفطرة : فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء ثم يقول﴿ فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ﴾** »[2] .

من هذين الحديثين وغيرهما يتضح لنا أن الله تعالى خلق عباده حنفاء مستقيمين على الهدى غير مائلين إلى الضلال ، فأصل خلقتهم على هيئة لو تركوا وشأنهم لاهتدوا إلى الله تعالى ، وأقروا بوجوده ووحدانيته . فالأصل فى الإنسان الخير والشر طارىء عليه . قال تعالى : ﴿ **فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ [الآية ٣٠ من سورة الروم] .

مع ابن كثير فى تفسير الآية :

يقول ابن كثير عند تفسير هذه الآية : « يقول تعالى : فسدد وجهك واستمر على الدين الذى شرعه الله لك من الحنيفية ملة إبراهيم الذى هداه الله لها وكملها لك غاية الكمال ، وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة التى فطر الله الخلق عليها ، فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده وأنه لا إله غيره » ا هـ . ومعنى قوله « لا تبديل لخلق الله » أى لا تبدلوا ولا تغيروا خلق الله يعنى دينه . الذى اختاره لعباده وخلقهم مجبولين

(١) صحيح مسلم ص ١٩٧ جـ ١٧ (المطبعة المصرية ومكتبتها - باب الصفات التى يعرف بها أهل الجنة وأهل النار) .

(٢) صحيح البخارى ص ١٤٣ جـ ٦ دار مطابع الشعب (كتاب التفسير باب ما جاء فى تفسير سورة الروم) .

عليه فيكون الخبر هنا بمعنى الطلب ، أو بعبارة أخرى أن الجملة خبرية لفظا إنشائية معنى .

وقيل : إن الخبر على بابه والمعنى أن الله تعالى ساوى بين خلقه كلهم فى الفطرة على الجبلة المستقيمة ، فلا يولد أحد إلا على ذلك ، ولا تفاوت بين الناس فى ذلك . وقوله تعالى : ﴿ **ذلك الدين القيم** ﴾ أى التمسك بالشريعة والفطرة المستقيمة هو الدين الحق والطريق القويم .

ويؤيد ذلك من القرآن الكريم أيضا قوله تعالى : ﴿ **وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين** ﴾ [الآية ١٧٢ من سورة الأعراف] .

ماذا قال الشيخ رشيد رضا فى تفسيرها ؟

قال رشيد رضا فى تفسيره – المنار – عند هذه الآية : (هذه الآيات بدء سياق جديد فى شئون البشر العامة المتعلقة بهداية الله لهم بما أودع فى فطرتهم وركب فى عقولهم من الاستعداد للإيمان به ، وتمجيده وشكره ، فى إثر بيان هدايته لهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب) أ هـ .

ومعنى الآية إجمالا أن الله تعالى يخاطب رسوله الكريم قائلا : واذكر يامحمد ، وذكر كل عاقل وقت أن استخرج الله تعالى من أصلاب بنى آدم ذريتهم : أى سلالتهم ذكورا كانوا أو إناثاً ، بأن كانوا نطفا فى أصلاب آبائهم فأخرجهم الله تعالى إلى أرحام أمهاتهم ، فجعل هذه النطف علقة ثم مضغة ثم نفخ فيها الروح فصارت بشرا سويا وخلقا كاملا مكلفا . ثم أشهدهم على أنفسهم بما ركب فيهم من دلائل وحدانيته وعجائب خلقه وغرائب صنعه ، وبما أودع فى قلوبهم من غريزة الإيمان ، وفى عقولهم من المدارك والأفهام التى تهديهم إلى خالقهم ، وتدلهم على بارئهم ، ثم أشهدهم بعد ذلك على أنفسهم قائلاً : ﴿**ألست بربكم قالوا بلى**﴾ أى ألست أنا ربكم ومالك أمركم ومربيكم ومتولى أموركم على الإطلاق من غير أن يكون لأحد مدخل فى شأن من شئونكم. قالوا : بلى فاعترفوا بذلك وأقروا له بالربوبية عن عقيدة واقتناع فآثار رحمته وعجائب خلقه وعظيم قدرته تجعلهم يقرون بذلك بلا تردد ولا شك .

دلالة الآية :

فهذه الآية الكريمة تدل دلالة قوية على أن الناس مهيئون للتوحيد ، والهداية إلى الله تعالى منذ أن خلقوا . بشهادتهم هم على أنفسهم ، واعترافهم بوحدانية خالقهم وموجدهم من العدم . فمعرفة الله تعالى على ذلك فطرية ضرورية فى الإنسان ، فقد قطع الله تعالى الأعذار ، وأبطل الحجج فلا يعذر كافر بكفره ولا مشرك بشركه . قال القاسمى عند تفسير هذه الآية أيضا : (... فالله تعالى فطر الخلق كلهم على معرفة فطرة التوحيد ، حتى من خلق مجنونا لا يفهم شيئا ما يحلف إلا به ، ولا يلهج لسانه بأكثر من اسمه المقدس) أ هـ .

وهذه الفطرة الإلهية التى أودعها الله تعالى قلب الإنسان وعقله هى التى جعلت الأعرابى ساكن البادية يتوصل إلى الحقيقة بمجرد استعمال عقله ، واستخدام فكره ، حينما رأى ثعلبا يبول على صنم من أصنامهم التى اتخذوها آلهة مع الله ، فقال :

أربٌ يبول الثعلبان برأسه لقد ذل من بالت عليه الثعالب

وقال الآخر أيضا بحكم جبلته التى خلقه الله عليها ، مستنكرا ما جرتهم إليه الشياطين من تعدد الآلهة وعبادة الأصنام :

أربًّا واحدا أم ألف رب أدين إذا تشعبت الأمور

تركت اللات والعزى جميعا كذلك يفعل الرجل الأريب



دعوة القرآن إلى التوحيد ونفى الشرك

توحيد الله تعالى توحيداً خالصاً هو أهم ما فى هذا الدين ، وهو أساسه الذى عليه ينبى ، وعماده الذى عليه يقام . والدعوة إليه تكون : إما بالحث على تحصيله فى النفوس أو بالنهى عن ضده . وهو الإشراك . والإتيان بأحد الشقين كاف . فإذا جاءت آية فى القرآن تدعو إلى تحصيل التوحيد فإن ذلك يقتضى حتما نفى ضده وهو الشرك . وإذا جاءت آية تنفى الشرك فإن ذلك يثبت ضده وهو التوحيد حتما . فالإتيان بأحد الشقين يكفى . ولكن نظرا لخطورة هذا الأمر فى الإسلام فإننا نجد كثيرا من آيات القرآن تدعو إلى التوحيد . وكثيرا منها تنفى الشريك . والبعض منها فيه الدعوة إلى التوحيد ونفى الشرك فى آية واحدة .

وذلك حتى يكون التوحيد ذلك الأمر الخطير مأمورا به بكل طريق . طريق الإيجاب والسلب مدعوا إليه بكل وجه ، التحصيل والتنزيه ، أو التحلية والتخلية .

وحتى يكون هذا الأمر أى التوحيد مأمورا به على طريق التصريح والتلميح أو المنطوق والمفهوم .

الآيات الداعية إلى التوحيد وتأويلها :

١ - قوله تعالى : ﴿ **وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم** ﴾ .

[الآية ١٦٣ : من سورة البقرة]

٢ - قوله تعالى : ﴿ **الله لا إله إلا هو الحى القيوم** ﴾ .

[من الآية ٢٥٥ : من سورة البقرة]

٣ - قوله تعالى : ﴿ **الله لا إله إلا هو الحى القيوم** ﴾ .

[من الآية ٢ : من سورة آل عمران]

٤ - قوله تعالى : ﴿ **إلهكم إله واحد** ﴾ [من الآية ٢٢ من سورة النحل] .

٥ - قوله تعالى : ﴿ **وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد** ﴾ .

[من الآية ٥١ : من سورة النحل] .

٦ – قوله تعالى : ﴿ **قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد** ... ﴾ [من الآية ١١٠ من سورة الكهف] .

٧ – قوله تعالى : ﴿ **فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم** ﴾ [الآية ١١٦ : من سورة المؤمنون] .

٨ – وقوله تعالى : ﴿ **قل إنما أنا منذر وما من إله إلا الله الواحد القهار** ﴾ [الآية ٦٥ : من سورة صّ] .

٩ – قوله تعالى : ﴿ **قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفواً أحد** ﴾ [سورة الإخلاص] .

قاعدة التوحيد الأصيلة تقررها الآيات :

من هذه النصوص الكثيرة المتضافرة ، والواضحة الجلية التى لا لبس فيها ولا خفاء ، تتقرر قاعدة التوحيد الأصيلة ، التى هى الأساس المتين الذى يقوم عليه بناء الدين كله ، وتشاد عليه جميع فروعه وشرائعه . فإذا سلمت سلم البناء كله ، وإذا انهارت أو انثلمت انهار البناء كله ، وتنهدم قاعدة الشرك وتبطل العبادة للآلهة المزعومة التى عبدوها من دون الله دون استحقاق للعبادة .

يقول أستاذنا الدكتور محمد السيد طنطاوى فى تفسيره عند الآية ١٦٣ من سورة البقرة .

وهو النص الأول المذكور هنا : (والإله فى كلام العرب هو المعبود مطلقا ولذلك تعددت الآلهة عندهم . والمراد به فى الآية الكريمة المعبود بحق بدليل الإخبار عنه بأنه واحد . والمعنى : وإلهكم الذى يستحق العبادة والخضوع إله واحد فرد صمد ، فمن عبد شيئا دونه ، أو عبد شيئا معه فعبادته باطلة فاسدة ؛ لأن العبادة الصحيحة هى ما يتجه بها العابد إلى المعبود بحق الذى قامت البراهين الساطعة على وحدانيته ، وهو الله رب العالمين) .

ثم يمضى الشيخ فيقول : (وجملة « لا إله إلا هو » مقررة لما تضمنته الجملة السابقة من أن الله واحد لا شريك له ، ونافية عن الله تعالى – الشريك صراحة ، ومثبتة له مع ذلك الإلهية الحقة ، ومزيحة لما عسى أن يتوهم من أن فى الوجود إلهاً سوى الله تعالى لكنه لا يستحق العبادة) اهـ .

وأما النص الثانى والثالث : المذكوران هنا فمعناهما أن الله تعالى هو الموجود بحق ، الجامع لصفات الألوهية المنعوت بنعوت الربوبية . وأنه لا إله غيره ولا رب سواه ، وهو الحى الذى لا يلحقه فناء ؛ لأن بقاءه لذاته وليس مستمدا من قوة أخرى وهبته الحياة ، فيجوز عليها أن تستردها منه تعالى عن ذلك علوا كبيرا . بل إن بقاءه نابع من ذاته المقدسة فلا أول لوجوده ولا آخر لبقائه . ﴿ **هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم** ﴾ [الحديد آية ٣] .

وأنه تعالى قيوم أى دائم القيام بتدبير أمر الخلق ، والمعطى لهم ما به قوامهم .

وأما النص الرابع والخامس والسادس : فتقرير وتأكيد لإفراده تعالى بالألوهية الحقة ، والوحدانية المطلقة التى لا يشاركه فيها مشارك ولا ينازعه فيها منازع .

وأما النص السابع : فكلمة (تعالى) فيها استعظام لله جل وعلا ولشئونه وكلمة ﴿ **الملك الحق** ﴾ أى الذى يحق له الملك مطلقاً بالخلق والإيجاد والإعدام بدءاً وإعادة ، وإحياء وإماتة ، وعقابا وإثابة وكل ما عداه مقهور لملكوته ، ومملوك له وإن تسمى بالملك ؛ لأن ملكه بالعَرض أى بتمليك الله له ، وأما الله تعالى فملكه لذاته .

وأما النص الثامن : فهو أمر من الله تعالى لنبيه ﷺ أن يقول للكفار بالله المشركين به المكذبين لرسوله : ﴿ **إنما أنا منذر** ﴾ أى أبلغكم ما أمرنى الله به ، وأحذركم عقابه وانتقامه ، وأدعوكم إلى الإيمان به ، واعتقاد وحدانيته ؛ لأنه وحده المنفرد بصفات الألوهية الحقة من القهر والعظمة والجبروت ، وليس لأحد من آلهتكم المزعومة أدنى شىء من هذه الصفات .

وأما النص التاسع : وهو سورة الإخلاص فقد نقل ابن كثير فى سبب نزولها أن اليهود قالوا : نحن نعبد عزير ابن الله وأن النصارى قالوا : نحن نعبد المسيح ابن الله وأن المجوس قالوا : نحن نعبد الشمس والقمر وأن المشركين قالوا : نحن نعبد الأوثان فأنزل الله على رسوله ﷺ ﴿ **قل هو الله أحد** ﴾ .

والمعنى أنه تعالى هو الواحد الأحد الفرد الذى ليس له شبيه ولا نظير ولا ندّ ولا عديل ولا يشبهه أحد ولا يدانيه فى ذاته ولا صفاته ولا أفعاله . ولفظ ﴿ **أحد** ﴾ لا يطلق فى الإثبات إلا على الله تعالى لأنه الكامل فى ذاته وصفاته وأفعاله .

اختلاف العلماء فى معنى : « الصّمد »

وقوله ﴿ **الله الصمد** ﴾ اختلف العلماء فى معناها إلى عدة أقوال :

فقيل : معناه الذى يصمد إليه الخلائق فى حوائجهم ومسائلهم ، فلا يتوجهون بالطلب والدعاء إلا إليه .

وقيل : هو السيد الذى قد كمل فى سؤدده والشريف الذى قد كمل فى شرفه .

وقيل : هو الباقى بعد خلقه .

وقيل : هو الحى القيوم الذى لا زوال له .

وقيل : هو الذى لم يخرج منه شىء ولا يطعم .

وقيل : هو الذى لم يلد ولم يولد . وعلى ذلك فالجملة التى بعده وهى ﴿ **لم يلد ولم يولد** ﴾ تفسير له . وهو معنى حسن . وكل هذه الأقوال والتفسيرات المتقدمة صحيحة ؛ لأنها جميعا من صفات ربنا جل وعلا . ومعنى ﴿ **لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد** ﴾ أى إنه تعالى ليس له ولد ولا والد ولا صاحبة كما قال تعالى : ﴿ **بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شىء وهو بكل شىء عليم** ﴾ [الآية ١٠١ : من سورة الأنعام] .

أى هو مالك كل شىء وخالقه فكيف يكون له من خلقه نظير يساميه أو يدانيه تقدست ذاته وتنزهت صفاته وتعالى عن ذلك كله علوا كبيراً !

الآيات النافية للشرك وتأويلها :

هذا ومن استعراض النصوص المتقدمة ومعرفة معانيها إجمالا يظهر لنا أن الدعوة إلى التوحيد ، وإرساء قواعده ، وإثبات حقيقته فى النفوس أمر لم تدع إليه أمة دون أمة ، ولم يخاطب به جيل دون جيل منذ أن خلق الله الدنيا وإلى أن تقوم الساعة . فهو دعوة الأنبياء جميعا : نادوا به وأعلنوه جميعا على مسامع أممهم منذ آدم عليه السلام إلى خاتمهم وسيدهم محمد ﷺ . وإذا كانت هذه النصوص تدعو إلى إثبات وحدانيته تعالى ، وتقرر أنه المنفرد بصفات الألوهية الحقة المستحق للعبادة وحده . فهناك نصوص أخرى من القرآن الكريم تثبت نفى الشريك عنه عز وجل ، وتنعى على من أشركوا معه غيره ، وتحضهم على طرح هذا الإشراك ، وتقيم الأدلة والبراهين على فساد هذا الاعتقاد . من هذه الآيات :

١ – قوله تعالى : ﴿ **واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا** ﴾ .

[من الآية ٣٦ من سورة النساء]

٢ - قوله تعالى : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيداً ﴾ . [الآية ١١٦ : من سورة النساء] .

٣ - قوله تعالى : ﴿ هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها حملت حملا خفيفا فمرت به فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين . فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عما يشركون . أيشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون . ولا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون . وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون . إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين . ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون . إن وليى الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين . والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون . وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون ﴾ [من الآية ١٨٩ إلى الآية ١٩٨ من سورة الأعراف] .

٤ - قوله تعالى : ﴿ فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون ﴾ [الآية ٣٢ من سورة يونس] .

٥ - قوله تعالى : ﴿ .. وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون ﴾ [من الآية ٦٦ من سورة يونس] .

٦ - قوله تعالى : ﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت وجعلوا لله شركاء قل سموهم أم تنبئونه بما لا يعلم فى الأرض أم بظاهر من القول بل زيّن للذين كفروا مكرهم وصدوا عن السبيل ومن يضلل الله فما له من هاد ﴾ .

[الآية ٣٣ : من سورة الرعد] .

٧ - قوله تعالى : ﴿ والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون . أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون ﴾ [الآيتان ٢٠ ، ٢١ من سورة النحل] .

٨ - قوله تعالى : ﴿ ويعبدون من دون الله مالا يملك لهم رزقا من السموات والأرض شيئاً ولا يستطيعون ﴾ [الآية ٧٣ من سورة النحل] .

٩ - قوله تعالى : ﴿ لا تجعل مع الله إلها آخر فتقعد مذموما مخذولا وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ... ﴾ [الآية ٢٢ ، صدر الآية ٢٣ من سورة الإسراء] .

١٠ – قوله تعالى : ﴿ **يدعوا من دون الله ما لا يضره ومالا ينفعه ذلك هو الضلال البعيد يدعوا لمن ضره أقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير** ﴾ .
[الآيتان ١٢ ، ١٣ من سورة الحج] .

١١ – قوله تعالى : ﴿ **يـأيُّهـا الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقـذوه منه ضعف الطالب والمطلوب** ﴾ [الآية ٧٣ من سورة الحج] .

١٢ – قوله تعالى : ﴿ **ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون** ﴾
[الآية ٩١ من سورة المؤمنون] .

١٣ – قوله تعالى : ﴿ **تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا . الذى له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك وخلق كل شيء فقدره تقديراً واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشورا** ﴾
[الآيات ١ ، ٢ ، ٣ من سورة الفرقان] .

١٤ – قوله تعالى : ﴿ **ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير . إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير** ﴾ [فاصلة الآية ١٣ ، الآية ١٤ من سورة فاطر]

١٥ – قوله تعالى : ﴿ **لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار** ﴾ [الآية ٤ من سورة الزمر] .

دعوة صريحة للناس كافة :

والمستعرض لهذه النصوص المتقدمة يرى أنها دعوة صريحة للناس كافة على اختلاف طبقاتهم وألوانهم وعصورهم وأزمانهم تدعوهم جميعا إلى إفراد الخالق بالعبادة ، والاعتراف بوحدانيته ، وتنفى الشريك عنه ، وتنكر على من اتخذ معه آلهة فعبدها مع الله سواء خصها بالعبادة من دون الله ، أو أشركها مع الله فى العبادة ، وطلب الحوائج منها ، أو جعلها واسطة بينه وبين الله كما قال بعضهم ﴿ **ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى** ﴾ [من الآية ٣ : الزمر] .

وقفـة :

ونقرر بكل قوة ووضوح أن من فعل ذلك أو تورط فى شىء منه فإنه يكون قد حاد عن الطريق المستقيم ، وجانبه الحق والصواب ، ثم تبين هذه الآيات الكريمة أن تلك الآلهة المزعومة لا تملك شيئا لنفسها ولا لغيرها فهى لا تضر ولا تنفع ؛ فإنها من صنع البشر أنفسهم فكيف تملك لهم شيئا وكيف يعبد الإنسان العاقل ما صنعه بيده ؟ ثم تحداهم القرآن أن يطلبوا من هذه الأصنام شيئا تلبيه لهم أو ينادونهم فيسمعون لهم أو يستجيبون لندائهم ، ثم يقرر القرآن الكريم أن الإله الحق الذى إذا دعى أجاب ، وإذا طلب أعطى ، والذى بيده وحده الضر والنفع إنما هو الله وحده . فهو وحده الحق وليس بعده إلا الضلال ، ثم تحذر الآيات من عبادة غير الله واتخاذ آلهة أخرى معه لا تملك لنفسها ولا لغيرها ضرا ولا نفعا ، وتنذر من فعل ذلك بالخيبة والخسران فى الدنيا والآخرة . ثم يضرب القرآن الكريم الأمثلة الدالة على أن هذه الأصنام لا تستحق العبادة لعجزها التام عن الدفاع عن نفسها فكيف تدفع عن عابديها !! ويقيم الأدلة المنطقية والبراهين العقلية على أن الإله الحق واحد فى ذاته وصفاته وأفعاله ولو كان معه غيره يشاركه فى شىء من صفات الألوهية الحقة لما استقام أمر الدنيا : ولما بقيت الأرض والسماء ولو أراد أن يتخذ ولداً لاصطفى ما يشاء من عباده ؛ لأن الولد عادة يتخذه الإنسان ليعينه فى أمر معاشه ويتقوى به ويكون عزوة له ينتصر به على عدوه . والله تعالى غنى عن ذلك كله ، فقدرته قاهرة وأمره غالب ، فليس بحاجة إلى من ينصره ويؤيده ويعتز به بل إن جميع الخلائق فى حاجة إليه يتناصرون به ، ويعتزون به ، ويطلبون منه التأييد ، وكذلك فهو ليس بحاجة إلى من يعاونه فى أمر الرزق ؛ فإنه تعالى هو الرزاق لجميع الخلائق ؛ فالكل محتاج إليه قال تعالى : ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون * ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون * إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين** ﴾ [الآيات من ٥٦ – ٥٨ الذاريات] .

هذا هو معنى هذه النصوص القرآنية على سبيل الإجمال .

معنى هذه النصوص القرآنية على سبيل التفصيل :

وأما على سبيل التفصيل فإننا نجد ، أنها تعالج قضايا التوحيد على أساس المنطق والإقناع .

النص الأول من سورة النساء :

يقول فيه الإمام القرطبى ما ملخصه : (أجمع العلماء على أن هذه الآية وهى – قوله تعالى ﴿ **واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً** ﴾) .

من المحكم المتفق عليه ، ليس منها شىء منسوخ ، وكذلك هى فى جميع الكتب ، ولو لم يكن كذلك لعرف ذلك من جهة العقل ، وإن لم ينزل به الكتاب .

والعبودية : هى التذلل والافتقار لمن له الحكم والاختيار ؛ فالآية أصل فى خلوص الأعمال لله وتصفيتها من شوائب الرياء وغيره ، وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : قال الله تعالى : « **أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه معى غيرى تركته وشركه** » .

والعبادة لله تعالى معناها التذلل والخضوع له ، والتوجه إليه وحده فى كل الأمور مع عدم إشراك أحد معه فى الاعتقاد ، أو فى الأعمال أو فى الأقوال ، وهذه العبادة الخالصة له تعالى هى حق الله عز وجل على عباده ؛ لأنه خالقهم ورازقهم ومربيهم والمتفضل عليهم فى جميع الأحوال والأزمان .

روى البخارى عن معاذ بن جبل قال : كنت ردف النبى ﷺ على حمار يقال له عفيرة . فقال : « **يامعاذ تدرى ما حق الله على عباده وما حق العباد على الله ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً . وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئا . فقلت : يارسول الله أفلا أبشر به الناس ؟ قال : لا تبشرهم فيتكلوا** » اهـ .

هذا ومن كلام القرطبى السابق يتبين أن هذه القاعدة التى هى الأمر بإخلاص العبادة لله وعدم الإشراك قضية مسلمة ، جاءت بها الكتب السابقة المنزلة على أنبياء الله تعالى : كالتوراة الحقيقية ، والإنجيل الحقيقى ، قبل أن يعتريهما التحريف والتغيير والتبديل .

النص الثانى من سورة النساء :

وهو قوله تعالى : ﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيداً** ﴾ .

فهو يبين جزاء الكافر الذى أشرك مع الله إلها آخر بطرده من رحمة الله تعالى ، وحرمانه من مغفرته ، وإقناطه من عفوه ، وكرمه . كل ذلك إذا مات على هذا الكفر ،

ولم يرجع عنه قبل موته ، ويطهر نفسه من دنسه . مع إعطاء الأمل ، وإفساح الرجاء لمن ارتكب ذنباً أو ذنوبا غير الشرك . وإن كان قد علق ذلك بمشيئته إلا أن فضله واسع وكرمه جزيل فيفتح أبواب الأمل والطمع فى رحمة الله أمام هذا المذنب . هذا كله إذا مات المذنب بدون توبة ، أما إذا تاب وأقلع عن الذنب وندم على ما فات فلا شك أن الله يغفر ذنبه كما وعد تعالى بذلك فى قوله : ﴿ **إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً** ﴾ [الآية ٧٠ : من سورة الفرقان] .

وقوله أيضاً ﴿ **يأيُّها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار** ﴾ [الآية ٨ : من سورة التحريم] .

وأما إذا لم يتب فهو تحت مشيئة الله : إن شاء عفا عنه وأدخله الجنة وإن شاء عذبه ثم أدخله الجنة بعد قضاء عقوبة هذه الذنوب فمصيره إلى الجنة مادام قد برىء من الشرك ومات وفى قلبه شيء من الإيمان .

وهذا النص الذى معنا يعتبر مقيداً لقوله تعالى : ﴿ **قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم** ﴾ [الآية ٥٣ : من سورة الزمر] .

فالمراد بالذنوب التى يغفرها الله جميعا فى هذه الآية هى ماعدا الشرك ، وأيضا هذا الإطلاق المفهوم من الآية مقيد بمشيئة الله تعالى : كما يدل عليه النص الذى معنا من سورة النساء . ثم ختم الله تعالى هذا النص بقوله ﴿ **ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيدا** ﴾ فبين بذلك سوء حال المشركين ، وقبح مصيرهم حيث ساروا فى طريق معوج لا يوصلهم إلى النجاة ، والمعنى أن من أشرك بالله بأن عبد سواه ، أو جعل معه شريكا فى العبادة ، فقد سلك طريق الشرور والآثام ، وسار فيه سيرا بعيدا ينتهى به إلى الهلاك ، ويفضى به إلى العذاب المهين .

النص الثالث من سورة الأعراف :

وهو قوله تعالى : ﴿ **هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها حملت حملا خفيفا فمرت به فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين . فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى**

الله عما يشركون ﴾ .

وهذا النص مسوق لبيان أنه تعالى المستحق للعبادة وحده ؛ لأنه خلقكم أيها الناس من نفس واحدة : هى نفس أبيكم آدم (عليه السلام وجعل من نوع هذه النفس وجنسها زوجها حواء ، ثم انتشرتم بعد ذلك فى الأرض وتكاثرتم . وقد جعل الله تعالى لآدم زوجا من جنسه ، وخلقها من ضلعه ؛ لأن الجنس إلى جنسه أميل ، وبه آنس ، فإذا كانت بضعة منه كان السكون والمحبة أبلغ . فالأصل فى الحياة الزوجية هو السكن والاستقرار والاطمئنان والإيناس ، قال تعالى : ﴿ **ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة** ﴾ [الآية ٢١ : من سورة الروم] .

وقوله ﴿**فلما تغشاها حملت حملا خفيفا**﴾...إلخ ضمير الفاعل فيها عائد إلى الزوج مطلقا ، وضمير المفعول عائد إلى الزوجة ، والتغشي كناية عن الجماع ، فإذا باشر الزوج زوجته وأراد الله من هذا الوقاع أن تحمل الزوجة فإن حملها فى أوله يكون خفيفا عليها لا تكاد تشعر به ثم يثقل يوما فيوما حتى تضعه .

والمعنى أن الزوجة حين صارت فى أواخر الحمل وثقل بطنها به وتعلق قلبها وقلب زوجها به نذرا لله إن أعطاهما ولداً صالحاً كانا من الشاكرين لله على هذه النعمة التى أسبغها عليهما . فلما أعطاهما الله تعالى ما تمنياه جعلا بدل الشكر لله كفراً به ، وجحودا بنعمته ، فأشركا معه بعض خلقه من الأصنام والأوثان ، فنسبا هذا العطاء إليها أو نسباه إلى فعل الطبيعة ، أو إلى غير ذلك مما يتنافى مع توحيد الخالق – جل وعلا – وإفراده بالمعبودية دون سواه وقوله تعالى ﴿ **فتعالى الله عما يشركون** ﴾ تذييل فيه تنزيه الله تعالى وتقديسه عما نسبه إليه هؤلاء الجاحدون .

هذا ويرى بعض العلماء أن المراد بالزوج والزوجة فى هذه الآية آدم وحواء ، وأنهما قد وسوس إليهما الشيطان ، وأغراهما فسميا ولدهما عبد الحارث لعله يعيش ، وكان مقتضى الشكر لله أن يسمياه عبد الله ، لكنهما جحدا هذه النعمة فسمياه عبد الحارث .

وقد استدل هؤلاء العلماء بأثر روى عن الإمام أحمد ، لكن المحدثين ومنهم ابن كثير أثبتوا ضعف هذا الحديث .

والتحقيق أن المراد بالزوج والزوجة فى هذه الآية هم جنس الرجال من ذرية آدم ، وجنس النساء من ذريته أيضاً ؛ فإن الكفر والجحود وقع من ذريته عليه السلام لا منه ؛ فإنه نبى تمنعه العصمة من الوقوع فى مثل هذه المزالق . وقد نقل ابن كثير فى

تفسيره عن الحسن أنه قال : « عنى الله تعالى بهذه الآية ذرية آدم ومن أشرك منهم بعده » اهـ .

وينقل ابن كثير أيضا عن قتادة قوله : (كان الحسن يقول : هم اليهود والنصارى رزقهم الله أولادا فهوّدوا ونصروا) . ثم يعلق ابن كثير على هذين القولين بقوله : (وهو من أحسن التفاسير وأولى ما حملت عليه الآية ونحن على مذهب الحسن البصرى فى هذا وأنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء وإنما المراد من ذلك المشركون من ذريته ولهذا قال : **فتعالى الله عما يشركون** ﴾ اهـ كلام ابن كثير .

سؤال وجوابه :

وإذا قيل إن القرآن نسب هذا القول إلى الجنس كله مع أن فيهم موحدين فما الحل ؟ نقول إن ذلك من قبيل إطلاق الكل وإرادة البعض على حد قوله أهل هذه البلدة صالحون علما بأن فيها بعض الطالحين .

ثم أخذت الآية الثالثة من هذا النص فى توبيخ المشركين ، وإبطال شركهم بأسلوب منطقى حكيم ، فقالت : ﴿ **أيشركون مالا يخلق شيئا وهم يخلقون** ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ .. **وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون**﴾ . فالإستفهام فى صدر الكلام للإنكار والتوبيخ و(ما) الموصولية مراد بها هنا الأصنام وقد عبر عنها بـ (ما) دون (من) لأنها لا تعقل . والمعنى ما أجهل هؤلاء القوم الذين تركوا عبادة الخالق القادر الذى يخلق ويحيى ويميت ويملك الضر والنفع ، إلى عبادة جمادات حقيرة مهينة ، لا تملك شيئا ، ولا تنفع ولا تضر ، ولا تستطيع أن تخلق شيئا ولو مهينا ، بل إنها هى مخلوقة ومصنوعة . فكيف يليق بعاقل سليم الحس والتفكير أن يفعل ذلك ؟. ثم بين الله تعالى موقف هذه الآلهة المزعومة ، وأوضح مدى عجزها فأكد أنها عاجزة تماما عما هو أدنى وأقل من النّصر الذى نفى عنها . وهو مجرد الدلالة على المطلوب من غير تحصيله للطالب ، فقال عز وجل : ﴿ **وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم** ﴾ أى وإن تدعوا أيها المشركون هذه الأصنام إلى الهدى والرشاد لا يتبعوكم أى إنهم لا ينفعونكم بشىء ولا ينتفعون منكم بشىء . وقوله تعالى : ﴿ **سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون** ﴾ استئناف مقرر لمضمون ماقبله .

ثم مضت الآيات تدعو عبّاد الأصنام إلى التدبّر والتعقّل فقال عزّ من قائل ﴿ **إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم** ﴾ أى إن هذه الأصنام التى تعبدونها من دون

الله أو تشركونها مع الله فى العبادة فتنادونها لدفع الضر عنكم أو لجلب النفع لكم ما هى إلا عباد أمثالكم أى مماثلة ومشابهة لكم فى كونها مملوكة لله تعالى ، مسخرة له ، مذللة لقدرته ، كما أنكم أنتم كذلك فكيف تعبدونها أو تتخذونها آلهة مع الله ؟. وقوله تعالى : ﴿ **فادعوهم فليستجيبوا لكم** ﴾ تحقيق وتأكيد لمضمون ما قبله بتعجيزهم وتبكيتهم . أى فادعوهم فى رفع ما يصيبكم من ضر ، أو فى جلب ما أنتم فى حاجة إليه من نفع ﴿ **إن كنتم صادقين** ﴾ فى زعمكم أن هذه الأصنام قادرة على ذلك . ثم تتابع الآيات الكريمة تقريعها وتوبيخها لهذه الأصنام وعابديها . فتقول : ﴿ **ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها** ﴾ فالاستفهام فى هذه الآية للإنكار والتوبيخ .

والمعنى : أن هذه الأصنام التى تزعمون أنها تقربكم إلى الله زلفى أقل مستوى منكم لفقدها الحواس التى هى مناط الكسب والارتزاق وأدوات الفعل والحركة ، والتى تميزتم بها دون هذه الأصنام . فانظروا هل ترون لها أرجلا تسعى بها إلى دفع الضر أو جلب النفع ؟

وهل لها أيد تبطش بها أى تأخذ ما تريد أخذه ؟

وهل ترون لها أعينا تبصر بها بشئونكم وأحوالكم ؟

وهل ترون لها آذانا تسمع بها دعاءكم ونداءكم ؟

اللهم لا . فى كل ما تقدم .

أما أنتم أيها البشر فقد فضلتم على هذه الأصنام بكل هذه الحواس فياعجبا كيف يعبد الفاضل المفضول ؟ وكيف ينقاد الأقوى للأضعف ؟.

ثم أمر الله تعالى نبيه أن يجادلهم ويحاججهم فى ذلك ، وأن يكرر عليهم التوبيخ فقال : ﴿ **قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون** ﴾ أى قل يارسول الله لهؤلاء الذين انحدرت مداركهم ، وانحطت أفهامهم نادوا شركاءكم الذين زعمتموهم أولياء ، ثم تعاونوا أنتم وهم على كيدى وإلحاق الأذى بى من غير إمهال ولا إنظار ، فانظروا هل تستطيعون ضرى ؟ إنكم بالتأكيد لا تستطيعون لأنى معتز بالله خالقى ، وملتجىء إلى حماه : ومن كان كذلك فلا يخش إلا الله .

بيان الأسباب التى دعته إلى تحديهم وتبكيتهم :

وهذا نهاية التحدى والسخرية بهم وبآلهتهم ، ثم بين الأسباب التى دعته إلى تحديهم

وتبكيتهم فقال : ﴿ **إن ولي الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين** ﴾ . أى قل يامحمد لهؤلاء الضالين إننى تحديتكم ، وسخرت منكم ، وطلبت كيدكم وكيد أصنامكم لى . إن كنتم أنتم وهم تقدرون على ذلك على سبيل الفرض ؛ لأنى معتز بالله وحده فهو ناصرى ، ومتولى أمورى ، وهو الذى أنزل هذا القرآن لأخرجكم به من الظلمات إلى النور ، وقد جرت سنته تعالى أن يتولى الصالحين ويجعل لهم العاقبة والنصر .

وقد قال الحسن البصرى : إن المشركين كانوا يخوفون الرسول ﷺ بآلهتهم . فقال تعالى : ﴿ **قل ادعوا شركاءكم .. الآية** ﴾ .

ليظهر لهم أنها لا قدرة لها على إيصال المضار إليه بوجه من الوجوه .

وهذا كما قال هود (عليه السلام) لقومه ردا على قولهم : ﴿ **إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء . قال إنى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون . من دونه فكيدونى جميعاً ثم لا تنظرون** ﴾ [الآيتان ٥٤ ، ٥٥ : هود] .

ثم قال تعالى : ﴿ **والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون** ﴾ أى والذين تعبدونهم من دون الله أو تنادونهم لدفع الضر ، أو جلب النفع لا يستطيعون نصركم فى أى أمر من الأمور ، وفضلا عن ذلك فهم لا يستطيعون رفع الأذى عن أنفسهم إذا ما اعتدى عليهم معتد .

ثم قال ﴿ **وإن تدعوهم إلى الهدى** ﴾ أى إلى أن يرشدوكم إلى ما تحصلون به مقاصدكم من النصر على الأعداء أو غير ذلك . لا يسمعوا شيئا مما تطلبونه منهم . ولو سمعوا – على سبيل الفرض والتقدير – ما استجابوا لكم لعجزهم عن فعل أى شيء .

وقوله تعالى : ﴿ **وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون** ﴾ بيان لعجزهم عن الإبصار بعد بيان عجزهم عن السمع أى : وترى هذه الأصنام كأنها تنظر إليك ، وذلك لما ركبوه فيها من العيون الصناعية ، ولكنها فى الحقيقة لا تبصر لخلوها من الحياة .

وبذلك تكون تلك الآيات الكريمة قد وبخت المشركين وآلهتهم أشد التوبيخ ، وأثبتت بالدليل القاطع ، والبرهان الساطع ، وبوسائل الحسّ ، والمشاهدة أن هذه الأصنام لا تملك لنفسها ولا لغيرها ضرا ولا نفعا ، وأن عابديها قوم غافلون جاهلون ، قد هبط تفكيرهم إلى أحط الدركات ؛ لأنهم يتقربون إلى الله عن طريق ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنهم شيئاً .

وفى نفس الوقت فالآيات دعوة قوية لكل عاقل فى كل زمان ومكان أن يجعل عبادته وخضوعه لله الواحد ، القهار ، الذى لا شريك له ، ولا ندّ ولا نظير .

النص الرابع : من سورة يونس : وهو قوله تعالى :

﴿ **فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون** ﴾ .

وفيه احتجاج على المشركين ، وذلك أنهم معترفون فيما قبل هذه الآية وفى غيرها من القرآن بربوبية الله تعالى لهم ولسائر المخلوقات .

بدليل قوله قبل هذه الآية مباشرة ﴿ **قل من يرزقكم من السماء والأرض أمَّن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون** ﴾ [الآية ٣١ : من سورة يونس] .

ففى هذه الآية إعتراف من هؤلاء القوم بأن الله تعالى رازقهم ، ومالك سمعهم وأبصارهم ، وهو الذى يخرج الحى من الميت ، ويخرج الميت من الحى ، بعظيم قدرته ، ويدبر جميع أمورهم ، وأمور غيرهم بحكمته . وفى غير هذه الآية اعتراف منهم بأن الله خالق السموات والأرض .

﴿ **ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله** ﴾ [من الآية ٣٨ : الزمر] .

وفى آيات أخرى كثيرة من القرآن الكريم نرى أنهم يعترفون . بأن الأرض ومن فيها والسماء ومن فيها كلها ملك الله تعالى خلقا وإيجادا وتصرفا ، فهى مقهورة تحت سلطانه ، يتصرف فيها كيف شاء ، وأنه تعالى بيده مقاليد الأمور كلها وهو غالب على أمره فى كل شىء فهو رب هذه المخلوقات جميعها . قال تعالى : ﴿ **قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون * سيقولون لله قل أفلا تذكرون * قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم * سيقولون لله قل أفلا تتقون * قل من بيده ملكوت كل شىء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون * سيقولون لله قل فأنى تسحرون** ﴾ [الآيات من ٨٤ إلى ٨٩ من سورة المؤمنون] .

وبناء على ما يفهم من هذه الآيات وغيرها فإن القوم كانوا مقرين بربوبيّته تعالى ؛ ولذا فإن الحق تعالى خاطبهم بقوله ﴿ **فذلكم الله ربكم الحق** ﴾ أى فهذا الذى اعترفتم بأنه فاعل ذلك كله هو ربكم وإلهكم الحق الذى يستحق أن يفرد بالعبادة .

وقوله : ﴿ **فماذا بعد الحق إلا الضلال** ﴾ معناه أن كل معبود سواه باطل لا يستحق العبادة ؛ فإنكم إذا اعترفتم بربوبية الله تعالى فهو الحق الذى يجب أن لا تحيدوا عنه

وما سواه من الآلهة المزعومة باطل لايستحق العبادة فعبادته ضلال وزور وبهتان .

وقوله : ﴿ **فأنّى تصرفون** ﴾ أى فكيف تصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره وأنتم تعلمون أنه الرب الذى خلق كل شىء وتصرف فى كل شىء .

النص الخامس : من سورة يونس أيضا .

وهو قوله تعالى : ﴿ **ومايتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون** ﴾ قبله مباشرة ﴿ **ألا أن لله من فى السموت ومن فى الأرض** ﴾ ومادام كذلك فقد قام البرهان على قدرته ، وثبت الدليل على ألوهيته ، فتجاوُز عبادته إلى عبادة الأصنام هو قول بلا برهان ، وطريق بلا دليل ، فصنع عبدة الأصنام هذا غير قائم على أساس بل هو ضرب من الكذب ، ونوع من التخرص ، واتباع للظن الذى لا يغنى من الحق شيئا .

النص السادس : من سورة الرعد :

وهو قوله تعالى : ﴿ **أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت وجعلوا لله شركاء قل سموهم أم تنبئونه بما لايعلم فى الأرض أم بظاهر من القول بل زين للذين كفروا مكرهم وصدّوا عن السبيل ومن يضلل الله فماله من هاد** ﴾ (القائم) هنا بمعنى الرقيب و(كسبت) أى عملت . و(ظاهر القول) أى ظن بغير تأكد بالدليل و﴿ **مكرهم** ﴾ أى كفرهم .

والمعنى الإجمالى : هو الاحتجاج على عابدى الأصنام بأن ماعبدوه لا وجود له أى هو غير موجود بصفته التى زعموها له وهى استحقاقه للعبادة .

والمعنى أخبرونى أفالله القائم على كل نفس الرقيب عليها فى كل أعمالها يعلم ما تكسبه من خير أو شر ويحصيه عليها ثم يجازيها عليه كهذه الأصنام التى عبدتموها وهى لا تعلم شيئا ولا تراقب فعلاً بل إنها غير عالمة حتى بوجودها ؛ والذى دل على هذا الجواب قوله تعالى ﴿ **وجعلوا لله شركاء** ﴾ قل لهم يامحمد : سموا لله هؤلاء الشركاء إن كانت لهم حقيقة موجودة موصوفة بشىء من صفات الألوهية الحقة فهيا دلونا عليهم ، والجواب لاشك أنهم عاجزون عن ذلك ضرورة أنهم لا حقيقة لهم ، ولا وجود لهم ، ملتبسين بأى صفة من صفات الألوهية .

وقوله ﴿ **أم تنبئونه بما لا يعلم فى الأرض أم بظاهر من القول** ﴾ تقدر أم بمعنى بل .

والمعنى بل أتخبرون الله بآلهة موجودة فى الأرض وهو لا يعلمها حاشا لله . فلو كانت هناك آلهة أخرى فى الأرض تستحق العبادة لعلمها الله تعالى بل أنتم تزعمون ذلك بباطل من القول مكذوب ومزوّر وزين لكم الشيطان ووسوس لكم بهذا القول الباطل المبنى على الظن الخادع ،

وصدكم الشيطان بوسوسته عن السبيل . والطريق المستقيم ، فوقعتم فى الضلال بتقدير الله ذلك لكم فى الأزل ، ومن قدّر الله عليه ذلك فى الأزل فلا يستطيع أحد هدايته .

كما قال الله تعالى لرسوله ﷺ ﴿ **إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء** ﴾ [من الآية ٥٦ : القصص] .

النص السابع : من سورة النحل :

وهو قوله تعالى : ﴿ **والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون * أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون** ﴾ .

قال الإمام النسفى عند تفسير هاتين الآيتين : (نفى عنهم – أى عن الأصنام – خصائص الألوهية بنفى كونهم خالقين ، وكونهم أحياء لا يموتون ، وكونهم عالمين بوقت البعث . وأثبت لهم صفات الخلق بأنهم مخلوقون ، أموات ، جاهلون بالبعث .

ومعنى أموات غير أحياء أنهم لو كانوا آلهة على الحقيقة لكانوا أحياء غير أموات أى غير جائز عليهم الموت ، والأمر بالعكس . والضمير فى يبعثون للداعين : أى لا يشعرون متى تبعث عبدتهم وفيه تهكم بالمشركين ، وأن آلهتهم لا يعلمون وقت بعثهم ، فكيف يكون لهم وقت جزاء أعمالهم منهم على عبادتهم ؟ وفيه دلالة على أنه لابد من البعث) ا هـ كلام النسفى .

ولتوضيح الجزء الأخير منه نقول . إن ضمير الفاعل فى يشعرون عائد إلى الأصنام وضمير المفعول الذى حل محل الفاعل فى يبعثون عائد على المشركين .

والمعنى أن هذه الأصنام لا تحس ، ولا تشعر بشىء حولها فى الدنيا ، فمن باب أولى لا علم لها بوقت قيام الساعة ، الذى يبعث فيه المشركون وغيرهم وإذا كانت الأصنام لا تعلم بوقت قيام الساعة ، فكيف يرجو منها المشركون أن تنفعهم فى هذا اليوم ؟ أو كيف ينتظر منها المشركون أن تعطيهم جزاء عبادتهم لها فى هذا اليوم ؟ إن هذا لمحال .

النص الثامن : من سورة النحل :

وهو قوله تعالى : ﴿ **ويعبدون من دون الله مالا يملك لهم رزقاً من السموات والأرض شيئاً ولا يستطيعون** ﴾ وفيه إنكار شديد على المشركين ، وتجهيل لهم حيث أنهم عبدوا آلهة عاجزة ، لا تملك أن ترزقهم ، فلا تنزل عليهم مطراً ، ولا تنبت لهم زرعاً ، وتركوا عبادة الله القادر على كل شىء ، الذى يرزقهم ، فينزل عليهم المطر ، وينبت لهم الشجر ، فهو مصدر الحياة لهم ، ومصدر الخير كله . فترك عبادة الله القادر ، وعبادة غيره ضلال مبين .

النص التاسع : من سورة الإسراء :

وهو قوله تعالى : ﴿ **لا تجعل مع الله إلهاً آخر فتقعد مذموماً مخذولاً** ﴾ .

وفيه إنذار وتخويف لمن ينحرف فى عقيدته ، فيعبد غير الله تعالى ؛ فإن الله تعالى يتخلى عنه ، ويكله إلى ما عبد ، فيكون مذموما بشركه غير منصور من الله تعالى .

يقول ابن كثير فى تفسير هذه الآية (... والمراد المكلفون من الأمة لا تجعل أيها المكلف فى عبادتك ربك له شريكاً . ﴿ **فتقعد مذموماً** ﴾أى على إشراكك به ﴿ **مخذولاً** ﴾ لأن الرب تعالى لا ينصرك بل يكلك إلى الذى عبدت معه . وهو لا يملك لك ضرا ولا نفعا لأن مالك الضر والنفع هو الله وحده لا شريك له .

ثم يسوق ابن كثير حديثا رواه الإمام أحمد بسنده عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « **من أصابته فاقة فأنزلها بالناس لم تسدّ فاقته ومن أنزلها بالله أرسل الله له بالغنى إما آجلا وإما غنى عاجلا** » ا . هـ .

النص العاشر : من سورة الحج :

وهو قوله تعالى : ﴿ **يدعوا من دون الله ما لايضره ومالا ينفعه ذلك هو الضلال البعيد يدعوا لمن ضره أقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير** ﴾ .

ضمير الفاعل فى (**يدعو**) يعود إلى الكافر عابد الصنم .

والمعنى أن هذا الكافر يعبد الصنم من دون الله ، مع أن هذا الصنم لا يضره إن ترك عبادته ، ولا ينفعه إن هو عبده ، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة . وهذا العمل ضلال أى حيدان عن طريق الرشد والصواب ، بعيد فى باب التيهان والضياع .

ثم عاد القرآن الكريم ينعى على هذا المشرك شركه فيقول : ﴿ **يدعوا لمن ضرّه أقرب من نفعه** ﴾ أى يعبد من ضرره فى الدنيا أقرب من نفعه فيها ، وأما فى الآخرة فضرره محقق .

إشكال يسوقه الإمام النسفى :

ولقد ساق الإمام النسفى هنا إشكالا وهو كيف ينفى الله تعالى النفع والضر عن الأصنام قبل هذه الآية ثم يثبته لها هنا وقد ساق هو الإشكال وجوابه عند تفسيره لهذه الآية فقال : (والإشكال أنه تعالى نفى الضرَّ والنفع عن الأصنام قبل هذه الآية وأثبتهما لها هنا ؟ والجواب أن المعنى إذا فهم ذهب هذا الوهم ، وذلك أن الله تعالى سفّه الكافر

بأنه يعبد جماداً لايملك ضراً ولا نفعاً وهو يعتقد فيه أنه ينفعه ، ثم قال : يوم القيامة يقول هذا الكافر بدعاء وصراخ حين يرى استضراره بالأصنام ، ولا يرى لها أثر الشفاعة لمن ضره أقربه من نفعه) أ هـ .

وقوله تعالى ﴿ **لبئس المولى ولبئس العشير** ﴾ فيه مزيد ذم للأصنام وعابديها والمراد بالمولى المعين والناصر ، والعشير الصاحب والمخالط .

النص الحادى عشر : من سورة الحج :

وهو قوله تعالى : ﴿ **يأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إنّ الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب** ﴾ .

هذا مثل ضربه الله تعالى ليبين جهل عابدى الأصنام وقله تفكيرهم ﴿ **وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون** ﴾ .

وهذا المثل مضروب لعجز تلك الآلهة التى عبدت من دون الله وبيان لمنتهى ضعفها وحقارتها . وأنها لو اجتمعت كلها فى مكان واحد ، وزمان واحد ، وتعاونت على خلق ذباب واحد مااستطاعت ، وعبّر القرآن فى هذا بـ ﴿ **لن** ﴾التى هى لنفى المستقبل نفياً قطعيا مؤيداً يدل على استحالة وقوع هذا الخلق منهم ، وإذا كان هذا الذباب هو أضعف الحيوانات ، وأشدها حقارة ومهانة ، وهم عاجزون عن خلقه ، فهم عن خلق غيره أشد عجزا .

قال النسفى : (وهذا من أبلغ ما أنزل فى تجهيل قريش حيث وَصَفُوا بالإلهية التى تقتضى الاقتدار على المقدورات كلها ، والإحاطة بالمعلومات عن آخرها صوراً وتماثيل يستحيل منها أن تقدر على أقل ما خلقه الله تعالى وأذله ولو اجتمعوا له) ا هـ .

ثم زاد القرآن الكريم فى ذم وتجهيل المشركين ، وإظهار ضعف وحقارة آلهتهم . فقال : ﴿ **وإن يسلبهم الذباب شيئاً لايستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب** ﴾ أى إن هذا المخلوق الصغير الذى عجزوا عن خلقه ، لو سلبهم شيئا مما كانت تطلى به رءوسهم فلا يستطيعون استنقاذ هذا الشىء منه ، وقد ورد عن ابن عباس أنهم كانوا يطلون رءوسها بالزعفران والعسل فإذا سلبه الذباب منها عجزت عن استنقاذه .

وقوله تعالى : ﴿ **ضعف الطالب والمطلوب** ﴾ أى ضعف الصنم الطالب لهذا الشىء

والمطلوب الذباب الذى سلبه . وقيل المعنى ضعف الطالب أى عابد الصنم والمطلوب أى الصنم لأنهم كانوا يطلبون منه حوائجهم .

النص الثانى عشر : من سورة المؤمنون :

وهو قوله تعالى : ﴿ **ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون** ﴾ .

فيه تنزيه لله تعالى أن يكون له ولد لأن ولد الرجل من جنسه ، فهو يشبهه ، والله تعالى محال عليه ذلك؛ فليس له شبيه ولانظير ﴿ **ليس كمثله شيء وهو السميع البصير** ﴾ وبعد أن نفى الولد عنه تعالى نفى أن يكون له شريك أو معه إله ثم أقام على نفى ذلك دليلا عقلياً منطقيًّا فذهاب كل إله بما خلق باطل بالمشاهدة فبطل ما أدى إليه وهو تعدد الآلهة وثبت نقيضه وهو وحدة الإله ثم يختم الآية بتقديسه تعالى وتنزيهه عما تقوّله عليه المشركون .

يقول الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية - : (ينزه تعالى نفسه عن أن يكون له ولد أو شريك فى الملك والتصرف والعبادة فقال تعالى) - : ﴿ **ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض** ﴾ أى لو قدّر تعدّد الآلهة لانفرد كل منهم بما خلق فما كان ينتظم الوجود ، والمشاهد أن الوجود منتظم متسق كل من العالم العلوى والسفلى مرتبط بعضه ببعض فى غاية الكمال ﴿ **ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت** ﴾ [من الآية ٣ : من سورة الملك] .

ثم لكان كل منهم يطلب قهر الآخر وخلافه فيعلو بعضهم على بعض ، والمتكلمون ذكروا هذا المعنى وعبروا عنه بدليل التمانع وهو أنه لو فرض صانعان فصاعداً فأراد واحد تحريك جسم والآخر أراد سكونه فإن لم يحصل مراد كل واحد منهما كانا عاجزين ، والواجب لا يكون عاجزاً ، ويمتنع اجتماع مراديهما للتضاد ، وما جاء هذا المحال إلا من فرض التعدّد فيكون محالا ، فأما إن حصل مراد أحدهما دون الآخر كان الغالب هو الواجب والآخر المغلوب ممكنا لأنه لا يليق بصفة الواجب أن يكون مقهوراً .

ولهذا قال تعالى : ﴿ **ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون** ﴾ أى عما يقول الظالمون المعتدون فى دعواهم الولد أو الشريك علوّاً كبيرا) ا . هـ .

النص الثالث عشر : من سورة الفرقان :

وهو قوله تعالى : ﴿ **تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا** *

الذى له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك وخلق كل شىء فقدره تقديرا * واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا ﴾ .

كلمة « تبارك » معناها تكاثر خيره وتزايد . وكلمة « الفرقان » هى مصدر فرّق بين شيئين بمعنى فصل بينهما وقد سمى بها القرآن لأنه فرق بين الحق والباطل والحلال والحرام .

وكلمة « العالمين » معناها الجن والإنس ، وفيه دليل عموم رسالته ﷺ .

والمعنى العام . أن الله تعالى يحمد نفسه على ما نزله على رسوله من القرآن الكريم كما قال تعالى : ﴿ **الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا** ﴾ [الآية ١ : من سورة الكهف]

ويذكر تعالى رسوله هنا بأحب أوصافه إليه ، وهو وصف العبودية لله ، كما وصفه بذلك فى أشرف أحواله ليلة الإسراء ، فقال عز وجل ﴿ **سبحان الذى أسرى بعبده ليلا ..** ﴾ [الآية ١ : من سورة الإسراء] .

وكما وصفه بذلك فى مقام الدعوة إليه بقوله تعالى : ﴿ **وأنه لمّا قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا** ﴾ [الآية ١٩ : من سورة الجن] .

ويشير فى هذه الآيات إلى عموم رسالته ﷺ كما جاء فى آية أخرى قوله : ﴿ **قل يأيُّها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا** ﴾ [الآية ١٥٨ : من سورة الأعراف] .

وكما قال تعالى على لسان نبيه أيضا : ﴿ **وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ** ﴾ [الآية ١٩ : من سورة الأنعام] .

ثم نزه الله تعالى نفسه عن الولد والشريك فلم يتخذ ولداً كما زعمت اليهود والنصارى وأخبر الله عنهم بذلك فى قوله : ﴿ **وقالت اليهود عزير ابن الله * وقالت النصارى المسيح ابن الله** ﴾ [الآية ٣٠ : من سورة التوبة] .

وليس له شريك فى الملك كما زعم المشركون من العرب باتخاذ الأصنام أو كما زعمت المجوس بقولها إن العالم يحكمه إلهان إله الخير وسموه – يزدان – وإله الشر وسموه – أهرمن – ثم نعى القرآن على أولئك الذين اتخذوا مع الله آلهة عاجزة لا تدفع عن نفسها ضرا ، ولا تجلب لنفسها نفعا ، ولا تملك لغيرها إماتة ولا إحياء ، ولا بعثا . وتركوا عبادة الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد .

النص الرابع عشر : من سورة فاطر :

وهو قوله تعالى : ﴿ **ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير . إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا يُنبئك مثل خبير** ﴾ .

ذكرت الآيات قبل هذا جانبا من قدرة الله تعالى فى إيلاجه الليل فى النهار والنهار فى الليل ، ومن تسخير الشمس والقمر ، وسائر الكواكب ، ثم أشارت الآية التى معنا إلى فاعل ذلك وهو الله تعالى رب العالمين ، مالك الملك ومدبره وما يدعوه الكفار من آلهة أخرى يعبدونها مع الله ما هى إلا عاجزة لا تملك من هذا العالم شيئا ، ولو تافها حقيرا مثل اللفافة التى تغلف النواة ، وهى المسماة بالقطمير .

والمعنى أن هذه الأصنام لا تملك أقل الأشياء تفاهة فضلا عن كونها آلهة تملك العالم ثم قال تعالى مخاطبا عُبَّاد الأصنام بقوله : ﴿ **إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم** ﴾ أى إنها جمادات لا روح لها فلو ناديتم عليهم ما سمعوا نداءكم ، ولو سمعوه على سبيل الفرض والتقدير ما استجابوا لكم .

ويوم القيامة يكفرون بشرككم أى تتبرؤ الأصنام من عابديها كما قال الله تعالى فى آية أخرى : ﴿ **ومن أضل ممن يدعوا من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون . وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين** ﴾ [الآية ٥ ، ٦ : من سورة الأحقاف] .

وكما قال أيضا فى آية أخرى : ﴿ **واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزاً . كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا** ﴾ [الآيتان ٨١ ، ٨٢ : من سورة مريم] .

ومعنى قوله تعالى : ﴿ **ولا ينبئك مثل خبير** ﴾ أى ولا يخبرك بعواقب الأمور ومآلها ومصيره مثل خبير بها . قال قتادة : يعنى نفسه تبارك وتعالى فأخبر بالواقع لا محالة .

النص الخامس عشر : من سورة الزمر :

وهو قوله تعالى : ﴿ **لو أراد الله أن يتخذ ولداً لأصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار** ﴾ .

فى هذه الآية الكريمة رد لزعم من ادعى أن عيسى ابن الله ، ومن ادعوا أن الملائكة بنات الله ، إذ الولد فى حقه تعالى مستحيل استحالة تامة لأن الولد من جنس والده ،

ومادام من جنسه فلابد أن يكون مشابها له . والله تعالى غير مشابه للحوادث قال تعالى ﴿ **ليس كمثله شيء وهو السميع البصير** ﴾ [الآية ١١ : من سورة الشورى] .

فبطل كونه له ولد . واتخاذ الولد أيضاً يستلزم أن تكون له زوجة والله نفى عن نفسه ذلك قال تعالى : ﴿ **أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة** ﴾

[الآية ١٠١ : من سورة الأنعام] .

والولد إنما يحتاج إليه فى العادة للتقوى والاعتزاز أو المعاونة والمساعدة فى الارتزاق . والله تعالى منزه عن ذلك كله ، فهو القوى القاهر ، فليس فى حاجة إلى من يعتزّ به .

وكذلك هو الرزاق ذو القوة المتين ، فليس فى حاجة إلى من يعاونه فى الرزق .

وختم الآية بقوله ﴿ **سبحانه هو الله الواحد القهار** ﴾ تنزيه له تعالى وتقديس عن اتخاذ الولد فهو الواحد القهار الذى قهر العباد بقدرته فدان له الجميع ، وذلت له أعناقهم ، وخضعت له جباههم . تعالى عما يقوله الظالمون علوا كبيرا .



التوحيد دعوة جميع الأنبياء

دعا الله تبارك وتعالى عباده جميعا إلى معرفته وتوحيده واستحقاقه للعبادة وحده دون سواه ، فركب فى عباده عقلا يميزون به بين الحق والباطل ، ويتفكرون به فى ملكوته جل وعلا ونصب لهم فى هذا العالم آيات بينات دالة على وجوده ووحدانيته وكمال قدرته :

وفى كل شىء له آية تدل على أنه الواحد

وأرسل إليهم رسلا من بنى جنسهم ، أنذروا قومهم ، وحذروهم عاقبة الإشراك بالله ، ودلوهم على الآيات الكونية الدالة على كمال قدرته ، وأرشدوهم إلى طريق الحق والصواب ، وفى ذلك قطع لمعاذير العباد ، وإقامة للحجة عليهم حتى لا يتعللوا بعدم إرسال الرسل .

قال تعالى : ﴿ **وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا** ﴾ [الآية ١٥ : من سورة الإسراء]

وقال أيضاً ﴿ **رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل** ﴾ [الآية ١٦٥ : من سورة النساء] .

وكذلك أنزل إلى عباده الكتب السماوية التى تدعوهم إلى توحيده وقدرته ، وكان خاتم هذه الكتب القرآن الكريم ، الذى صدّق هذه الكتب ، وهيمن عليها .

القرآن يدعو الناس جميعا إلى التوحيد :

وفى هذا الكتاب الكريم نجد دعوة الناس جميعا إلى التوحيد مقرونة بالدليل أحيانا ومطلقة أحيانا وذلك فى النصوص الآتية :-

١ - قال تعالى : ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون** ﴾ [الآية ٢٥ : من سورة الأنبياء] .

قال أبو السعود فى تفسيرها : (استئناف مقرر لما أجمل قبله من كون التوحيد مما نطقت به الكتب الإلهية واجتمعت عليه الرسل) اهـ .

وقد ساق ابن كثير هذه الآية الكريمة مع الآية التى قبلها وهى قوله تعالى : ﴿ **أم**

اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم هذا ذكر من معى وذكر من قبلى بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون ﴾ [الآية ٢٤ : من سورة الأنبياء] .

فقال بعد أن ذكر الآيتين -: (يقول تعالى : ﴿ **أم اتخذوا من دونه آلهة** ﴾ قل يامحمد ﴿ **هاتوا برهانكم** ﴾ أى دليلكم على ما تقولون ﴿ **هذا ذكر من معى** ﴾ يعنى القرآن ﴿ **وذكر من قبلى** ﴾ يعنى الكتب المتقدمة على خلاف ما تقولونه وتزعمون ، فكل كتاب أنزل على كل نبى أرسل ناطق بأنه لا إله إلا الله ، ولكن أنتم أيها المشركون لا تعلمون الحق فأنتم معرضون عنه ، ولهذا قال ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون** ﴾ [الآية ٢٥ : من سورة الأنبياء] .

كما قال : ﴿ **وَسْئَلْ من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون** ﴾ [الآية ٤٥ : من سورة الزخرف] .

وقال : ﴿ **ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت** ﴾ [الآية ٣٦ : من سورة النحل] .

فكل نبى بعثه الله يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له والفطرة شاهدة بذلك أيضا والمشركون لا برهان لهم وحجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد) ا هـ . كلام ابن كثير .

٢ - قوله تعالى : ﴿ **وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا** ﴾ [الآية ٧ : من سورة الأحزاب] .

قال الجلال فى تفسيرها : « **واذكر** ﴿ **وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم** ﴾ حين أخرجوا من صلب آدم كالذر جمع ذرة وهى أصغر النمل . ﴿ **ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم** ﴾ بأن يعبدوا الله ويدعوا إلى عبادته . وذكر الخمسة من عطف الخاص على العام ﴿ **وأخذنا منهم ميثاقا غليظا** ﴾ شديداً بالوفاء بما حملوه وهو اليمين بالله تعالى » ا هـ . كلام الجلال .

وهو كما ترى يفسر الميثاق الأول بأنه الميثاق العام الذى أخذه الله على ذرية آدم جميعا فى عالم الذرّ . ويفسر الميثاق الثانى الموصوف بالغليظ بأنه يمين بالله تعالى . ففى رأيه أن الميثاق الأول مغاير للميثاق الثانى فهو يرى أن الأول مراد به الوصية والأمر ، والثانى مراد به الحلف بالله على تنفيذ ما أمروا به ، وهو الأمر بالتوحيد والدعاء إليه .

وقال غيره : إن المراد بالميثاق الأول والثانى شىء واحد وهو العهد والميثاق على جميع الأنبياء أن يقيموا دين الله تعالى ويدعوا إليه متناصرين متعاونين متفقين فى ذلك غير مختلفين فكل منهم يدعو قومه إلى عبادة الله وحده دون ما سواه فاختلاف الميثاق هنا إنما هو باختلاف الوصف فقط .

وكما يفهم من صريح الآية ومن كلام الجلال وغيره من المفسرين أن هذا الأمر عام للجميع ، لا يختص به نبى دون نبى ، ولا أمة دون أمة . فكلمة « النبيين » فى الآية عامة تشملهم جميعا (عليهم السلام) من لدن آدم إلى محمد . وإنما خصّ هؤلاء الخمسة بالذكر من قبيل عطف الخاص على العام للاهتمام به ، وذلك لأن هؤلاء الخمسة هم أولوا العزم الذين صبروا كثيرا على أذى قومهم ، أو لأنهم من أشهر الأنبياء ، وهم أصحاب الشرائع فيهم . وقدم ذكر محمد ﷺ على أولى العزم لأنه أشرفهم وسيدهم بلا منازع ، وإن كان ﷺ آخرهم بعثا .

٣ – قوله تعالى : ﴿ **شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب** ﴾

[الآية ١٣ : من سورة الشورى] .

قال الخازن فى تفسيرها : (شرع لكم من الدين أى بيّن وسنّ لكم طريقا واضحاً من الدين أى دينا تطابقت على صحته الأنبياء ، وهو قوله تعالى : ﴿ **ما وصى به نوحا** ﴾ وإنما خص نوحا لأنه أول الأنبياء أصحاب الشرائع ، والمعنى قد وصيناه وإياك يامحمد دينا واحداً ، والذى أوحينا إليك أى من القرآن وشرائع الإسلام وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى . إنما خص هؤلاء الأنبياء الخمسة بالذكر لأنهم أكابر الأنبياء ، وأصحاب الشرائع المعظمة ، والأتباع الكثيرة ، وأولوا العزم . ثم فسر المشروع الذى اشترك فيه هؤلاء الأعلام من رسله بقوله : أن أقيموا الدّين ولا تتفرقوا فيه والمراد من إقامة الدين هو توحيد الله ، والإيمان به ، وبكتبه ورسله واليوم الآخر وطاعة الله فى أوامره ، وتواهيه ، وسائر ما يكون الرجل به مسلما) اهـ . كلام الخازن .

اشتراك الأنبياء الخمسة فى أصول الدين :

ومن هذا التفسير نعلم أن هؤلاء الأنبياء الخمسة اشتركوا فى أصول الدين فدعوتهم إلى هذه الأصول واحدة . دعوة إلى أن يقيموها بتعديل أركانها ، والحفاظ عليها ،

وحفظها من أن يقع فيها زيغ أو تحريف ، وأن يواظبوا عليها ، ويتمسكوا بها ، وهذه الأصول التى أمروا أن يدعوا إليها متفقين غير مختلفين ، هى توحيد الله تعالى والإيمان بكل ما يجب الإيمان به وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والصوم ، والحج ، والتقرب إلى الله بصالح العمل ، والصدق والوفاء بالعهد ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وتحريم الكفر ، والقتل ، والزنا ، وأذية الخلق كيفما كانت ، والاعتداء على الآخرين واقتحام الدناءات ، وإتيان ما يخل بالمروءات .

فهذا كله شرعه الله لنوح ومحمد وإبراهيم وموسى وعيسى وسائر الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) وإنما خص هؤلاء بالذكر لما تقدم .

ونلاحظ فى هذه الآية أنه قدم نوحا (عليه السلام) على محمد ﷺ بخلاف آية الأحزاب السابقة فقد قدم نبينا محمداً ﷺ وقد تقدم فى آية الأحزاب أنه قدمه لشرفه ومكانته .

وأما فى هذه الآية فقد قدم نوحا (عليه السلام) وهو مقدم زمنا للمسارعة إلى بيان كون المشروع لهم جميعا دينا قديما حتى يعرف ذلك من أول وهلة .

هذا ولا تعارض بين هذه الآية الكريمة وبين قوله تعالى : ﴿ **لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا** ﴾ [الآية ٤٨ : من سورة المائدة] .

فإن اتحادهم إنما هو فى العقائد وأصول الدين واختلافهم إنما هو فى الشرائع والفروع . التى كان الاختلاف فيها بين الرسل للمصلحة والحكمة التى يعلمها الله فهو الأعلم بما يصلح لكل زمان ومكان من الشرائع .



هذه الدعوة هى الإسلام

اتحاد دعوة الرسل :

وإذا كانت النصوص الثلاثة السابقة تتحدّث عن اتحاد دعوة الرسل ، وأنهم جميعا دعوا أقوامهم إلى توحيد الله جل وعلا ، وإفراده بالعبودية ، ونفى الشريك عنه ، والشبيه والنظير ودعوا أيضا إلى مكارم الأخلاق ، وإلى أصول الدين وكلياته ، وذلك مصداق قول نبينا محمد ﷺ « **نحن معاشر الأنبياء أبناء علات ديننا واحد** »[1].

فإن هذا الدين الذى جاء به جميع الرسل واتحدوا فى أصوله وكلياته هو دين الإسلام .

وإذا كان الأمر كذلك فلابد أن نستعرض بعض النصوص القرآنية التى تؤيد ذلك وتنطق به فنقول :

من الآيات الكريمة التى تؤيد هذا المعنى وتصرح به :

١ - قوله تعالى : ﴿ **إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون** ﴾

[الآية ٩٢ : من سورة الأنبياء]

٢ - قوله تعالى : ﴿ **يأيُّها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إنى بما تعملون عليم * وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون** ﴾

[الايتان ٥١ ، ٥٢ : من سورة المؤمنون]

٣ - قوله تعالى : ﴿ **ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين * إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين * ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يابنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون * أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ماتعبدون من بعدى قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحداً ونحن له مسلمون** ﴾ [الآيات من ١٣٠ - ١٣٣ : من سورة البقرة] .

٤ - قوله تعالى : ﴿ **وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفاً**

(١) أورده ابن الأثير فى النهاية بلفظ (أولاد العلاّت) وقال : الذين أمهاتهم مختلفة وأبوهم واحد أراد أن إيمانهم واحد وشرائعهم مختلفة (٣/، ٢٩) .

وما كان من المشركين * قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾ [الآيتان ١٣٥ ، ١٣٦ : من سورة البقرة] .

٥ - قوله تعالى : **﴿ أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون * قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسىَ وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون * ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾** [الآيات من ٨٣ - ٨٥ من آل عمران] .

علام تدل النصوص السابقة ؟

وإذا نظرنا إلى هذه النصوص القرآنية المتقدمة نجد أنها فى جملتها تدل على أن التوحيد الذى دعا إليه جميع الأنبياء ، وأعلنوه فى أقوامهم ، فاجتمعوا عليه متعاونين متناصرين يؤيد فيه المتأخر منهم المتقدم ويعضده . إنما هو دين الإسلام ، الذى هو إسلام الوجه لله تعالى ، وتفويض الأمر إليه فى كل وقت وحين ، وإفراده بالعبودية ، واعتقاد أنه تعالى المتفرّد بالوجود الحقيقى ، فإن وجوده نابع من ذاته ، فهو غير مفتقر إلى موجد يوجده ، فلا أول لوجوده ، ولا آخر لبقائه ، **﴿ هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم ﴾** [الآية ٣ : من سورة الحديد] .

والجزم أيضاً بأنه تعالى المتصف بكل صفات الألوهية الحقة من القدرة والعظمة والقهر والجبروت ، وأيضا فهو المتصف بكل صفات الربوبية من الخلق والإيجاد والتربية بالحفظ والعطاء والرأفة والرحمة وغير ذلك .

خلاصـــة :

وبالجملة أنه تعالى يجب له كل كمال يليق بذاته المقدسة ، ويستحيل عليه كل نقص . ومادام الأمر كذلك فهو الجدير بأن يسلم العبد إليه قياده ، ويولى وجهه شطره فلا يعتمد إلا عليه ، ولا يلجأ فى الملمّات إلا إليه ، وذلك ما دعا إليه جميع الرسل ، وتمسكوا به ، وأوصوا به أبناءهم ، ومن يخلفهم من بعدهم . **﴿ ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى وإلى الله عاقبة الأمور ﴾**

[الآية ٢٢ : من سورة لقمان] .

فإذا عرفنا هذا المعنى الإجمالى فينبغى أن نتعرف على معنى كل نص على حدة فنقول :

النص الأول : من سورة الأنبياء :

وهو قوله تعالى : ﴿ **إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون** ﴾ .

قال النسفى فى تفسيرها : « الأمة : الملّة وهذه إشارة إلى ملة الإسلام وهى ملة جميع الأنبياء ، وأمة واحدة حال أى متوحدة غير متفرقة ، والعامل مادل عليه اسم الإشارة : أى إن ملة الإسلام هى ملتكم التى يجب أن تكونوا عليها لا تنحرفون عنها يشار إليها ملة واحدة غير مختلفة ﴿ **وأنا ربكم فاعبدون** ﴾ أى ربيتكم اختياراً فاعبدونى شكراً وافتخاراً والخطاب للناس كافة » ا هـ كلام النسفى .

وقال ابن كثير عند تفسيرها أيضا : (قال ابن عباس ومجاهد وسعيد ابن جبير وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله : ﴿ **إن هذه أمتكم أمة واحدة** ﴾ يقول دينكم دين واحد .

وقال الحسن البصرى فى هذه الآية : « يبين لهم ما يتقون وما يأتون ثم قال : ﴿ **إن هذه أمتكم أمة واحدة** ﴾ أى سنتكم سنة واحدة ... » ا هـ . كلام ابن كثير .

وقال الجلال عند تفسيرها أيضاً : (﴿ **إن هذه** ﴾ أى ملة الإسلام ﴿ **أمتكم** ﴾ دينكم أيها المخاطبون أى يجب أن تكونوا عليها ﴿ **أمة واحدة** ﴾ حال لازمة ﴿ **وأنا ربكم فاعبدون** ﴾ وحدون) ا هـ . كلام الجلال .

وفى حاشية الجمل تعليقا على هذه الآية جاء قوله : « الأمة الملّة . وأصلها القوم الذين يجتمعون على دين واحد ، ثم اتسع فيها ، فأطلقت على ما اجتمعوا عليه من الدين ، قال تعالى : ﴿ **إنا وجدنا آباءنا على أمة** ﴾ [الآية ٢٣ : من سورة الزخرف] . أى دين وملة » ا هـ . كلام الجمل .

من هذه الأقوال لأئمة التفسير ولعلماء الصحابة والتابعين الذين نقل كلامهم ابن كثير ومن المعنى اللغوى لكلمة الأمة يتبين لنا بما لا يدع مجالا للشك أن هذه الكلمة أعنى كلمة (الأمة) مراد بها إما : **الملة أى ملة الإسلام ، أو القوم الكثيرون الذى اعتنقوا دينا واحداً** .

ومن عجيب ما سمعت أننى سمعت أحد[1] العلماء فى مصر فى حديث تلفزيونى

(١) هو فضيلة الدكتور عبد الرحمن بيصار شيخ الأزهر السابق . (رحمه الله) .

يتحدث فيه عن الوحدة الوطنية بين طوائف الأمة المصرية أى بين المسلمين والمخالفين لهم فى العقيدة فيستشهد بهذه الآية الكريمة ، ويسوق صدرها تاركا ختامها ، ويتخذ ذلك دليلا على وحدة المسلمين مع المخالفين لهم فى العقيدة فى مصر . والحقيقة أنه استدلال فى غير موضعه ، وخروج بالآية عن مضمونها الحقيقى ، فالآية الكريمة بمعزل عن هذا تماما . وذلك لما يأتى :

١ – أن كلمة الأمة معناها الملة كما تقدم فى تفاسير العلماء السابقين . وفضيلة الشيخ فسرها بالجماعة من الناس أى بالشعب المصرى كما يدل على ذلك سياق حديثه فى هذا الموضوع الذى كان يتحدث فيه وكما تدل عليه المناسبة التى كان يتحدث من أجلها .

٢ – أن كلمة (الأمة) حتى لو فسرت بالجماعة من الناس فهم الجماعة الذين اجتمعوا على دين واحد واعتنقوا ملة واحدة هى ملة الإسلام كما دل عليه كلام علماء التفسير . وفضيلة الشيخ أدخل فى هذه الجماعة غير المسلمين من المصريين فجعل الكلمة تتضمنهم وتشملهم وبذلك يكون قد حملها ما لا تحتمل .

٣ – أن فضيلة الشيخ جعل الكلمة منصبة على سكان مصر من مسلمين وغير مسلمين ، فجعل الآية خطابا للمصريين . ولم ينزل الله تعالى كتابه من أجل مصر ولا المصريين لا مسلمين ولا مسيحيين والحقيقة أن الخطاب لمحمد ﷺ ولسائر الأنبياء قبله ، ولأقوامهم جميعا .

والمعنى إن ملتكم أيها الأنبياء جميعا ملة واحدة ، هى الإسلام ، فاستقيموا أنتم وأقوامكم عليه ، ولا تحيدوا عنه ، ولا تتفرقوا فيه . والذى يؤيد هذا ويعضده سياق الكلام قبل هذه الآية ، فإذا رجعنا إلى ما قبلها من آيات فى هذه السورة لوجدنا فيها ذكر حوالى ثمانية عشر نبيا ورسولاً .

١ – سيدهم وخاتمهم محمد ﷺ فى قوله ﴿ **قل إنما أنذركم بالوحى ولا يسمع الصم الدعاء إذا ما ينذرون** ﴾ [الآية ٤٥ : الأنبياء] .

٢ ، ٣ – موسى وهارون عليهما السلام فى قوله تعالى : ﴿ **ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياءً وذكرا للمتقين** ﴾ [الآية ٤٨ : الأنبياء] .

٤ – إبراهيم عليه السلام فى قوله تعالى : ﴿ **ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين** ﴾ [الآية ٥١ : الأنبياء] .

٥ – لوط عليه السلام فى قوله تعالى : ﴿ **ونجيناه ولوطا إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين** ﴾ [الآية ٧١ : الأنبياء] .

٦ ، ٧ – إسحاق ويعقوب عليهما السلام فى قوله تعالى : ﴿ **ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة وكلا جعلنا صالحين** ﴾ [الآية ٧٢ : الأنبياء] .

٨ – نوح عليه السلام فى قوله تعالى : ﴿ **ونوحا إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم** ﴾ [الآية ٧٦ : الأنبياء] .

٩ ، ١٠ – داود وسليمان عليهما السلام فى قوله تعالى : ﴿ **وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين** ﴾ .
[الآية ٧٨ : الأنبياء]

١١ – أيوب عليه السلام فى قوله تعالى : ﴿ **وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين** ﴾ [الآية ٨٣ : الأنبياء] .

١٢ ، ١٣ ، ١٤ – إسماعيل وإدريس وذا الكفل عليهم السلام فى قوله تعالى : ﴿ **وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين** ﴾ [الآية ٨٥ : الأنبياء] .

١٥ – ذا النون عليه السلام فى قوله تعالى : ﴿ **وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات أن لا إله إلاَّ أنت سبحانك إنّى كنت من الظالمين** ﴾ [الآية ٨٧ : الأنبياء] .

١٦ – زكريا عليه السلام فى قوله تعالى : ﴿ **وزكريا إذ نادى ربه رب لا تذرنى فرداً وأنت خير الوارثين** ﴾ [الآية ٨٩ : الأنبياء] .

١٧ – يحيى عليه السلام فى قوله تعالى : ﴿ **فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين** ﴾
[الآية ٩٠ : الأنبياء] .

١٨ – عيسى عليه السلام فى قوله تعالى : ﴿ **والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين** ﴾ [الآية ٩١ : الأنبياء] .

وهذه الآية الأخيرة هى التى قبل الآية التى نتكلم على تفسيرها مباشرة فسياق الكلام يدل على أن الخطاب للرسل وأممهم جميعا ، لا لشعب مصر كما يرى الشيخ ، وإذا ما ذهبنا إلى لحاق الآية أى ما بعدها مباشرة وهو قوله تعالى : ﴿ **وتقطعوا أمرهم بينهم**

كل إلينا راجعون ﴾ لرأينا أنه واضح فى أن المراد بالأمة الملة أى ملة الإسلام التى جاء بها جميع الرسل ودعوا قومهم إليها .

قال ابن كثير فى تفسير هذه الآية الأخيرة : « ﴿ **وتقطعوا أمرهم بينهم** ﴾ أى اختلفت الأمم على رسلها فمن بين مصدق لهم ومكذب ولهذا قال : ﴿ **كل إلينا راجعون** ﴾ أى يوم القيامة فيجازى كل بحسب عمله ، إن خيراً فخير ، وإن شرا فشر » ا هـ .

من هذا نعلم أن سياق الكلام ولحاقه يؤيد رأى المفسرين ، لا رأى الشيخ ، ويظهر هذا التأييد بصورة أوضح فى سياق الكلام ولحاقه بالنسبة للنص الثانى ، وهو آية « المؤمنون » المشابهة لهذه الآية تماما كما سوف نتحدث عنه إن شاء الله .

النص الثانى : من سورة المؤمنون :

وهو قوله تعالى : ﴿ **يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إنى بما تعملون عليم * وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون** ﴾ .

وفى هذه الأمة أيضا . الأمة بمعنى الملة وهى ملة الإسلام التى جاء بها جميع الرسل : أى عقيدة التوحيد ، وكليات هذا الدين وأصوله ، فقد اشترك فى الدعوة إليها جميع رسل الله (عليهم الصلاة والسلام) .

قال النسفى فى تفسير هذه الآية أيضاً : (واعلموا أن هذه ﴿ **أمتكم** ﴾ أى ملتكم وشريعتكم التى أنتم عليها ﴿ **أمة واحدة** ﴾ ملة واحدة وهى شريعة الإسلام وانتصاب أمة على الحال . والمعنى وإن الدين دين واحد وهو الإسلام ومثله ﴿ **إن الدين عند الله الإسلام** ﴾ [من الآية ١٩ : آل عمران] . ﴿ **وأنا ربكم** ﴾ وحدى ﴿ **فاتقون** ﴾) ا هـ . كلام النسفى .

وقال ابن كثير فى تفسيرها أيضاً : « وقوله : ﴿ **وإن هذه أمتكم أمة واحدة** ﴾ أى دينكم يا معشر الأنبياء دين واحد وملة واحدة وهو الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له ولهذا قال ﴿ **وأنا ربكم فاتقون** ﴾ ا هـ . كلام ابن كثير .

المراد بالأمة فى الآية :

ومن كلام النسفى وابن كثير وغيرهما من المفسرين : نعلم أن الأمة فى الآية بمعنى الملة والدين وأن الخطاب للرسل وأممهم ، وليس خاصا بشعب مصر ولا غيره من

الشعوب . والذى يؤيد هذا سياق الكلام ولحاقه فإذا ما رجعنا إلى ما قبل هذه الآية من سورة المؤمنون تبين لنا أن كثيرا من الرسل الكرام قد ذكر حالهم مع أقوامهم ، وذكرت دعوتهم لأقوامهم إلى التوحد وملة الإسلام وذلك فى قوله تعالى :

١ – ﴿ **ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون** ﴾ [الآية ٢٣ : المؤمنون] .

٢ – ﴿ **ثم أنشأنا من بعدهم قرنا آخرين * فأرسلنا فيهم رسولا منهم أن اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون** ﴾ [من الآيتان ٣١ ، ٣٢ : المؤمنون] .

المراد بالقرن :

والمراد بالقرن فى هذه الآية القوم والمعنى أنشأنا بعد قوم نوح قوما آخرين فأرسلنا فى هذا القرن الأخير رسولا منهم . وقد قيل هذا القوم هم عاد فيكون رسولهم هوداً (عليه السلام) وقيل هم ثمود فيكون رسولهم صالحاً (عليه السلام) . وسواء أكان هو هود أو صالح . فقد دعا قومه إلى عبادة الله وحده ، وأرشدهم إلى أنه لا إله غيره .

٣ – ﴿ **ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون ثم أرسلنا رسلنا تترا كل ما جاء أمة رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضا وجعلناهم أحاديث فبعداً لقوم لا يؤمنون** ﴾ [الآيات ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ : المؤمنون] .

وفى هذه الآيات ذكر لعدد من الأمم الذين جاءوا بعد قوم نوح وعاد وثمود . وأرسل الله فى كل أمة منهم رسولاً ، يدعوهم إلى الله تعالى ، ويأمرهم بتوحيده ، والاعتراف بربوبيته ، فمن هذه الأمم من آمن برسوله ، ومنهم من كفر ، وقوله تعالى : ﴿ **ثم أرسلنا رسلنا تترا** ﴾ دليل على كثرة هؤلاء الرسل وتتابعهم واحدا تلو الآخر . قال ابن عباس فى تأويلها : (أى يتبع بعضهم بعضا) وقوله تعالى : ﴿ **فأتبعنا بعضهم بعضا** ﴾ أى أهلكناهم . وهو كقوله تعالى : ﴿ **وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح** ﴾ [الآية ١٧ : الإسراء] .

٤ – ﴿ **ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين** ﴾

[الآية ٤٥ : المؤمنون] .

٥ – ﴿ **وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين** ﴾ .

[الآية ٥٠ : المؤمنون] .

٦ - ﴿ **يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إنى بما تعملون عليم** ﴾ .
[٥١ : المؤمنون] .

ففى هذا النداء للرسل قبل الآية التى نفسرها مباشرة بصيغة الجمع ، وفى ذكر عدد من الرسل قبل ذلك دليل على أن الخطاب فى الآية المفسرة أى قوله تعالى ﴿ **وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون** ﴾ للرسل وأقوامهم جميعا ، وليس لشعب مصر ولا لغيره من الشعوب خاصة .

النص الثالث : من سورة البقرة :

وهو قوله تعالى : ﴿ **ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين * إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يابنىّ إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتنّ إلا وأنتم مسلمون * أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحدا ونحن له مسلمون** ﴾ .

فى هذه الآيات الكريمة ينكر الله تعالى على من ترك ملة إبراهيم ملة الإسلام ، وحاد عنها إلى طريق الشرك والضلال ، ويصفه الله تعالى بأنه لا أحد أشد منه ظلما لنفسه ، ولا أحد أكثر منه امتهانا لنفسه ، ولا أحد أضعف منه عقلا ، وأسوأ منه رأيا ؛ حيث أنه أورد نفسه مورد الهلاك والدمار ، وعرَّضها للعذاب الأليم بفعلته الشنعاء ، وميله عن طريق الاستقامة ، والوضوح إلى طريق الشرك والضلال .

ثم بينت الآيات أن إبراهيم (عليه السلام) كامل فى نفسه بطهارة عقيدته ، وطاعته لربه ، وتفويض أمره إليه ، وإسلام وجهه إليه ﴿ **إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين** ﴾ .

كما قال الله تعالى عنه فى آية أخرى : ﴿ **إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين** ﴾ . [٧٩ : الأنعام] .

إبراهيم - عليه السلام - يأخذ العهد والميثاق على أولاده :

ثم تنتقل الآيات إلى ما كان من إبراهيم (عليه السلام) من أخذه العهد والميثاق على أولاده من بعده بوصيته لهم أن يتمسكوا بالإسلام : الذى هو إسلام الوجه إلى الله ، والتزام طاعته تعالىٰ ، وعدم الإشراك به ، فتمسك بذلك أبناؤه ووفوا بعهد أبيهم

إليهم ، وكذلك فعل يعقوب (عليه السلام) من بعده فتمسك هو بتوحيد الله تعالى وعهد به إلى من بعده من أبنائه عند موته فى شكل وصية لهم أخيرة من والدهم الذى يحتضر ، يحثهم فيها على التزام التوحيد ، وعدم الميل عن الإسلام الذى هو دين الخليل (عليه السلام ودين جميع رسل الله تعالى ، ثم لما اتهم اليهود الذين كانوا فى عصر النبى محمد ﷺ يعقوب (عليه السلام) أنه كان على يهوديتهم المحرفة ردّ الله عليهم ذلك مبرءا نبيه يعقوب مما كان عليه يهود يثرب الذين عاصروا النبى ﷺ من فساد فى العقيدة ، وتشبيه لله تعالى بمخلوقاته ، وافترائهم فى حقه تعالى ما لا يليق بمسلم ذكره . قائلا لهم فى أسلوب تهكمى بليغ ﴿ **أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحدا ونحن له مسلمون** ﴾ .

والمعنى : ما كنتم يا معشر اليهود حاضرين وقت أن أشرف يعقوب على الموت ووقت أن قال لبنيه حينئذ . ﴿ **ما تعبدون من بعدى ؟** ﴾ فأجابه أبناؤه بما يدل على رسوخ قدمهم فى الإيمان ، وتمسكهم بملة أبيهم إبراهيم وهى الملة التى لا تثليث فيها ولا تشبيه ، وإنما هى إفراد الله تعالى بالعبودية ، واستسلام له بالخضوع والانقياد .

خلاصـــة :

ومن مجموع هذه الآيات يتضح لنا بجلاء أن إبراهيم عليه السلام وإسماعيل وإسحاق ويعقوب جميعا دينهم واحد ودعوتهم واحدة إلى التوحيد وأصول العقيدة فهم جميعا مشتركون فيها داعون إليها .

النص الرابع : من سورة البقرة أيضا :

وهو قوله تعالى : ﴿ **وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين * قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون** ﴾ .

روى عن ابن عباس رضى الله عنهما (أن عبد الله بن صوريا الأعور قال لرسول الله ﷺ : ما الهدى إلا ما نحن عليه فاتبعنا – يا محمد – تهتد . وقالت النصارى مثل ذلك فأنزل الله عز وجل ﴿ **وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين** ﴾) ا هـ .

ومعنى هذه الآية : وقالت اليهود للنبى ﷺ وللمسلمين . اتركوا دينكم ، واتبعوا ديننا تهتدوا ، وتصيبوا طريق الحق . وقالت النصارى مثل ذلك فقل لهم يامحمد : ليس الهدى فى اتباع ملتكم بل الهدى فى اتباع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين . فاتبعوا أنتم يا أهل الكتاب ما نحن عليه من اتباع ملة إبراهيم التى لا شرك فيها ولا تشبيه ولال تثليث وأنتم لا تنازعون فى أن إبراهيم على الهدى والحق .

وفى هذه الآية أيضا تعريض بحال اليهود والنصارى من أن ماهم عليه بعد التحريف والتبديل فى التوراة والإنجيل ليس من ملة إبراهيم فى شىء بل هو طريق معوج غير مستقيم حيث نسبوا إلى الله تعالى ما لا يليق به ، وأشركوا معه غيره ، فأين هذا من دين إبراهيم الذى يقوم على التوحيد الخالص والاعتراف الكامل بربوبية الخالق جل وعلا وإفراده بالعبودية ؟

وهذا ما يسير عليه محمد وأتباعه ، لا ما يسير عليه أهل الكتاب فى عصره ﷺ .

ثم أرشد الله تعالى عباده المؤمنين إلى جواب جامع شاف للرد على أهل الكتاب فى زعمهم هذا ، يفيد أن المسلمين يطرحون التعصب جانبا ، ويدعون إلى اتباع الوحى الإلهى ، الذى أرسل الله به الرسل مبشرين ومنذرين دون تفرقة بين أحد منهم ، وهو يتضمن دعوة أهل الكتاب إلى طريق الحق والصواب ، فقال تعالى : ﴿ **قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون** ﴾ .

والمعنى : قولوا أيها المؤمنون لهؤلاء اليهود الذين يزعمون أن الهداية فى اتباع ملتهم ، قولوا لهم ليست الهداية فى اتباع ملتكم ، فقد دخلها الشرك والتحريف ، وإنما الهداية فى أن نصدق بالله تعالى ، وبالقرآن الذى أنزله إلينا ، وبالتوراة الحقيقية التى أنزلها على موسى ، وبالإنجيل الحقيقى الذى أنزله على عيسى ، وبكل كتاب سماوى أنزل على رسول من رسله ، ونصدق بجميع رسله ، وأنبيائه ونحن فى ذلك لا نفرّق بين أحد من رسله ، فنؤمن ببعض ونكفر ببعض ، كما فعلتم أيها اليهود والنصارى . وإنما نؤمن بهم جميعا لأن الكفر بواحد منهم كفر بالجميع ، والكفر بالأنبياء هو كفر بالله تعالى . ونحن لربنا مسلمون خاضعون بالطاعة مذعنون بالعبودية .

هذا هو موقفنا ، وذلك جوابنا على ما دعوتمونا إليه .

معنى الأسباط فى الآية :

ومعنى الأسباط فى الآية أى أبناء يعقوب عليه السلام قال القرطبى : (والأسباط ولد يعقوب وهم اثنا عشر ولداً . ولكل واحد منهم أمة من الناس واحدهم سبط وهم فى بنى إسرائيل بمنزلة القبيلة فى ولد إسماعيل وسموا الأسباط وهو التتابع ، فهم جماعة متتابعون . وقيل أصله من السبَط (بالتحريك) وهو الشجر أى هم فى الكثرة بمنزلة الشجر .) اهـ . كلام القرطبى .

وبعطف كلمة الأسباط على إبراهيم أو على يعقوب نعلم أن من هؤلاء الأسباط أنبياء أوحى الله إليهم فيجب الإيمان بما أنزل إليهم .

وقد تقدم أننا نحنُ المسلمين نؤمن بجميع الأنبياء سواء كانوا من الأسباط أو من غيرهم ، بدون تفرقة ؛ لأن من كفر بواحد من الأنبياء كان كمن كفر بهم جميعا .

النص الخامس : من سورة آل عمران :

وهو قوله تعالى : ﴿ **أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون . قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون . ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين** ﴾ .

قبل هذا مباشرة آيتان تدلان على أن الله تعالى أخذ العهد والميثاق على سائر الأمم السابقين وجميع أنبيائهم أن يؤمنوا بمحمد ﷺ لأن الإيمان به حق لا ريب فيه خاصة وأنه ﷺ جاء مصدقا لما جاء به سائر الأنبياء ، من التوحيد ، وسائر كليات الدين ، وأصوله ، فمن أعرض عن شىء من هذا فهو من الفاسقين . وهاتان الآيتان هما قوله تعالى : ﴿ **وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدقٌ لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قالَ أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين * فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون** ﴾ [الآيتان ٨١ ، ٨٢ : آل عمران] .

وبعد أن بيّن الله تعالى ذلك عقبه ببيان أن كل من كره الإيمان بمحمد ﷺ : وبما جاء به ، ولم يتلق ذلك بالقبول ، والإذعان ، والرضى التام ، فإنه يكون بمنأى عن

الحق ، بعيدا عن الرشد ، وعن الطريق المستقيم ، فيستحق من الله تعالى العقاب الأليم . فقال عز من قائل : ﴿ **أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون** ﴾ .

والمعنى كيف يطلبون دينا غير الدين الذى اختاره الله تعالى لهم ، والحال أن الله تعالى أسلم له وانقاد إليه كل من فى السموات والأرض من حيوان وجماد وإنس وجن وملك وغير ذلك كل هؤلاء منقادون لله ، طائعين كالملائكة والمؤمنين من الإنس والجن وسائر الجمادات . أو كارهين مثل الكافرين من الإنس والجن . ومصير الجميع حتما إلى الله تعالى يحكم بينهم يوم القيامة ويقضى بينهم بعدله .

وهذا الاستفهام استفهام إنكار على هؤلاء الذين يطلبون دينا غير ما شرعه الله تعالى لهم ، فيعرضون عما جاء به محمد ﷺ وما جاء به النبيون قبله .

والدليل على أن الجمادات تنقاد لله تعالى طواعية : أن الله تعالى بعد أن خلق السموات والأرض خاطبهما قائلا : ﴿ **ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين** ﴾ [الآية ١١ : من سورة فصلت]

والدليل على أن المؤمنين من الإنس والجن وكذا الملائكة ينقادون لله تعالى طائعين · أنهم راضون بقضاء الله تعالى وقدره ، مستجيبون لأوامره فى السراء والضراء . والمنشط والمكره .

والدليل على أن الكافرين من الإنس والجن منقادون كرها . أنهم واقعون تحت سلطان الله تعالى وقهره فهم مع كفرهم ، وعدم رضاهم بقضاء الله وقدره لا يستطيعون دفع شىء عنهم ، مما قضاه الله عليهم وذلك مشاهد ومعلوم فى الدنيا ، فكثيرا ما تصيبهم الهزيمة والأمراض ، وفقد الأولاد وغير ذلك فيسخطون ولا يستطيعون دفعه . وهم فى الآخرة أيضا أكثر عجزا وأشد ضعفا قال تعالى حاكيا حال هؤلاء الكفار ﴿ **ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين * لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفّون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون بل تأتيهم بغتة فتبهتهم فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون** ﴾[الآيات ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ : الأنبياء] .

وقوله تعالى : ﴿ **وإليه يرجون** ﴾ أى إليه جل وعلا وحده يرجع الخلق فيجازى كل مخلوق بما عمل إن خيرا فخير وإن شرا فشر . وفى هذه الجملة تحذير من الإعراض

عن دينه تعالى لأنه مادام مرجع الخلق جميعا إليه فعلى العاقل أن يسلم وجهه إليه اختيارا ، قبل أن يسلمه إليه اضطراراً ، وأن يستجيب لأوامره ونواهيه حتى ينال رضاه ، وبذلك تكون الآية أقامت للناس الأدلة على صدق النبى ﷺ وأمرتهم بالدخول فى دينه ، وحذرتهم من الإعراض عنه ، بأجلى بيان ، وأقوى برهان .

الدين الحق المقبول عند الله :

وبعد هذا البيان الواضح والبرهان الجلى ، أمر الله تعالى نبيه محمدا ﷺ أن يعلن على الدنيا كلمة الحق التى جاء بها ، وأن يخبر كل من يتأتى منه الخطاب بأن الدين الحق المقبول عند الله تعالى هو دين الإسلام ، وأن كل دين سواه فهو باطل ؛ لأن رسالته ﷺ خاتمة الرسالات ، ودين الإسلام الذى جاء به ناسخ لكل دين سواه .

فقال تعالى : ﴿ **قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ونحن مسلمون . ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين** ﴾ .

والمعنى : قل يامحمد لمن جادلك بالباطل من أهل الكتاب وغيرهم قل لهم جميعاً : آمنت أنا وأتباعى بوجود الله تعالى ووحدانيته واستجبنا له فى كل ما أمرنا به ونهانا عنه . وآمنا كذلك بما أنزل علينا من قرآن يهدى إلى الرشد وإلى صراط مستقيم ، ويخرج الناس من الظلمات إلى النور . وآمنا كذلك بما أنزله الله تعالى من وحى على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط .

وآمنا أيضا بما آتاه الله لموسى من توراة ومعجزات ، وما آتاه لعيسى من إنجيل ومعجزات ، وما آتاه لكل نبى من وحى أو آية تدل على صدقه .

ونحن مع ذلك كله لا نفرق بين جماعة الرسل ، فنؤمن ببعض ، ونكفر ببعض ، كما فعل أهل الكتاب ، وحكى الله عنهم ذلك فى القرآن . وهم فى الحقيقة بهذا الموقف كافرون بهم جميعا ؛ لأن الكفر بواحد من الأنبياء يؤدى إلى الكفر بهم جميعا ، وذلك يؤدى بدوره إلى الكفر بالله تعالى ، ولهذا فنحن معاشر المسلمين نؤمن بهم جميعا بلا تفرقة ولا استثناء .

فالآية فى جملتها : تأمر النبى ﷺ أن يخبر عن نفسه وعن أتباعه بأنهم آمنوا بالله وبكتبه وبرسله . جميعاً بلا تفرقة بينهم ؛ لأنهم جميعاً جاءوا بشرع الله وتوحيده فدينهم جميعاً الإسلام الذى هو توحيد الله وإفراده بالعبودية وإسلام القياد إليه (جل وعلا) .

سؤال وجوابه :

وإذا قال قائل : لم خصّ هؤلاء الأنبياء المذكورين فى الآية بالذكر؟ نقول : خصّهم بالذكر ؛ لأن أهل الكتاب يزعمون أنهم يؤمنون بهم ، ويتبعونهم ، فأراد القرآن أن يبين لهم أن زعمهم هذا باطل ؛ لأنهم لا يكونون مؤمنين بهم حقا إلا إذا آمنوا بمحمد ﷺ ؛ وذلك لأن جميع الرسل أرسلهم الله تعالى بالدعوة إلى توحيده وإخلاص العبادة له ، وليس بينهم (عليهم السلام) من تفاضل أو اختلاف إلا فى فروع الدين والتشريعات التى تختلف نظراً لاختلاف الأمم والأزمان ، فشرع الله تعالى لك أمة وكل عصر ما يناسبه ، وينصلح به حاله فى عصره ، وأما أصول الدين من توحيد الله والدعوة إلى الحق وإلى مكارم الأخلاق وكل ما لا يختلف باختلاف العصور والأمم فقد اشترك الرسل جميعاً فى تبليغه للناس ، ودعوة أممهم إليه .

وقد جاءت رسالة محمد ﷺ خاتمة لكل الرسالات ، وجامعة لكل ما فيها من محاسن ، فوجب الإيمان بها ، وإلا كان الكفر بها كفرا بجميع الرسالات السابقة عليها .

وقد جاء فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « **والذى نفس محمد بيده لا يسمع بى أحد من الناس يهوديا كان أو نصرانيا ثم يموت ولم يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أصحاب النار** »[1].

ثم أوضح القرآن الكريم بعد ذلك أن كل من طلب دينا غير دين الإسلام الذى جاء به محمد ﷺ فلن يقبل منه ؛ لأن دين الإسلام الذى أتى به محمد ﷺ هو الدين الحق ، الذى ارتضاه الله تعالى لعباده ، قال الله عز وجل : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا** ﴾ [من الآية ٣ : من سورة المائدة] .

ولأنه هو الدين الذى ختم الله به الديانات ، وجمع فيه محاسنها .

(١) أخرجه مسلم فى باب وجوب الإيمان برسالة نبينا إلى جميع الناس من كتاب (الإيمان) .

ثم توعد الله تعالى من رغب عن دين الإسلام ، ومال إلى غيره بالخيبة والخسران فى الآخرة بحرمانه من ثواب الله واستحقاقه لعقابه جزاء ما قدمت يداه من كفر وضلال .

وفى الحديث الشريف : « **من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو ردّ** »[1] أى مردود عليه وغير مقبول منه .



(١) رواه الشيخان وأبو داود وابن ماجه عن عائشة رضى الله عنها . انظر كشف الخفا ص ٣١٠ جـ ٢ نشر وتوزيع دار التراث بالقاهرة .

نماذج من دعوة الرسل إلى التوحيد

سبق أن قلنا إن رسل الله جميعا (عليهم السلام) جاءوا بتوحيد الله ، ودعوا أقوامهم إليه فكل نبى بعثه الله تعالى كان همه الأول إرشاد قومه إلى إفراد الله تعالى بالألوهية والربوبية الحقة ، والوجود الذاتى واستحقاقه تعالى للعبودية وحده وإبطال ألوهية كل ما عبد من دون الله من الآلهة الكاذبة المزعومة التى عبدها بعض الناس زوراً وبهتانا ، وقد أخبرنا القرآن الكريم عن مواقف هؤلاء الرسل مع أقوامهم وإعلان دعوتهم الصريحة إلى عبادة الله وجده ، وتحذير الناس من الانحراف عنها ، والميل عن الحق إلى الضلال ، وذلك فى إصرار وإقامة للحجة والبرهان .

ولنتكلم على مواقف بعض الأنبياء الذين ذكرهم القرآن مسترشدين به مهتدين بهديه .

دعوة نوح عليه السلام

تحدث القرآن الكريم عن دعوة نوح (عليه السلام) قومه إلى عبادة الله وحده فى آيات كثيرة منها :

١ - قوله تعالى : ﴿ **لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم** ﴾ [الآية ٥٩ : سورة الأعراف] .

٢ - قوله تعالى : ﴿ **ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه إنى لكم نذير مبين * أن لا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم** ﴾ [الآيتان ٢٥ ، ٢٦ : سورة هود] .

٣ - قوله تعالى : ﴿ **ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون** ﴾ [الآية ٢٣ : سورة المؤمنون] .

٤ - قوله تعالى : ﴿ **إنا أرسلنا نوحا إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم * قال ياقوم إنى لكم نذير مبين * أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون** ﴾ [الآيات ١ ، ٢ ، ٣ : سورة نوح] .

من هذه النصوص مجملة نعلم أن أول نداء وجهه نوح عليه السلام إلى قومه بعد أن أرسله الله تعالى إليهم هو دعوتهم إلى توحيد الله تعالى ، وإفراده بالعبودية ، وتحذيرهم

من الكفر ، وعبادة غير الله ، وتوعدهم بالعذاب الأليم إن لم يستجيبوا لدعوته ، ولم يبادروا إلى ندائه . وإليك هذه النصوص مفصلة .

النص الأول : من سورة الأعراف :

وهو قوله تعالى : ﴿ **لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم** ﴾ .

بدأ الله تعالى قصة نوح عليه السلام مع قومه بلام القسم الدالة على تأكيد الخبر . والتقدير والله لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال كذا وكذا . وكلمة القوم دالة على أقرباء الرجل الذين يجتمعون معه فى نسب واحد . وقد يقيم الرجل فى جماعة من الناس فيطلق عليهم قومه من قبيل المجاز ، وسرّ البدء بقصة نوح مع قومه فى سورة الأعراف وفى غيرها من السور التى تعرضت لحال الأنبياء مع أقوامهم أن نوحا عليه السلام هو الأب الثانى للبشر ، بعد الطوفان فكل من بقى وتكاثر بعد الطوفان فهم من ذريته هذا ومن ناحية أخرى فإنه أول رسول لأهل الأرض ، جاء قومه بشريعة ، ودعاهم إلى توحيد الله ، وترك الشرك الذى وقعوا فيه لأن قومه أول من أشرك بالله ، وعبد الأصنام فى الأرض .

قال ابن كثير فى تفسيره عند هذه الآية : (قال عبد الله بن عباس وغير واحد من علماء التفسير : وكان أول ما عبدت الأصنام أن قوما صالحين ماتوا . فبنى قومهم عليهم مساجد ، وصوروا صور أولئك الصالحين فيها ؛ ليتذكروا حالهم ، وعبادتهم ، فيتشبهوا بهم . فلما طال الزمان جعلوا أجساداً على تلك الصور ، فلما تمادى الزمان عبدوا تلك الأصنام ، وسموها بأسماء أولئك الصالحين : ودّا وسواعا ويغوث ويعوق ونسراً . فلما تفاقم الأمر بعث الله تعالى رسوله نوحاً فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له) اهـ . كلام ابن كثير .

وقد ذكر ابن كثير أيضا عند تفسير هذه الآية أن بين آدم ونوح عليهما السلام عشرة قرون كلهم على الإسلام .

وبذلك يكون نوح عليه السلام أول رسل الله إلى أهل الأرض ، ويؤيد ذلك حديث الشفاعة المتفق عليه عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ « **يجمع الله الناس يوم القيامة فيهتمون لذلك فيقولون : لو استشفعنا على ربنا فأراحنا من مكاننا هذا ! فيأتون آدم فيقولون : ياآدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته**

وعلمك أسماء كل شيء فاشفع لنا إلى ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا .. فيقول لهم آدم لست هناكم – ويذكر ذنبه الذى أصابه فيستحى من ربه عز وجل – ولكن ائتوا نوحا أول رسول بعثه الله إلى الأرض ... الخ »[1].

وقال الخازن : (قال المفسرون : وإنما بدأ الله بذكر نوح عليه السلام لأنه أول نبى بعث بشريعة ، وأول نذير على الشرك ، وأنزل الله عز وجل عليه عشر صحائف ، وكان أول نبى عذبت أمته لردهم دعوته ، وكان أبا البشر كآدم عليهما السلام) ا .هـ . كلام الخازن .

والملاحظ فى نداء نوح عليه السلام لهؤلاء القوم أنه مبدوء بلفظ القوم مضافا إلى نفسه ، ونداؤه لهم بهذا الوصف فيه تلطف بهم ، واستمالة لهم ، لأن كونهم أهله وأقرباءه يقضى بأنه ناصح لهم صادق معهم مشفق عليهم ؛ لأن الرائد لا يكذب أهله .

كما حدث من النبى محمد ﷺ حينما جمع أهله وعشيرته فى أول الدعوة . وقال لهم : « **إن الرائد لا يكذب أهله فوالله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم ..** » .

وسر العطف بالفاء فى قوله ﴿ **فقال ياقوم اعبدوا الله .. الخ** ﴾ أن نوحاً (عليه السلام) أول ما بعث كان همه منصرفا إلى إرشاد قومه إلى توحيد الله ، وطرح عبادة الأصنام ، ولم يتوان فى ذلك لحظة واحدة ، بل سارع إلى هذا الأمر نظراً لأهميته وخطورته . وذلك ما ترشد إليه الفاء الدالة على الترتيب والتعقيب : أى على الفور دون تراخ .

وفى قوله تعالى : ﴿ **مالكم من إله غيره** ﴾ دليل وبرهان على استحقاقه تعالى للعبادة وحده ، وحجة قوية تدل على وجوب ترك عبادة الأصنام .

وفى قوله : ﴿ **إنى أخاف عليكم عذاب عظيم** ﴾ تحذير لهم من سوء عاقبة المكذبين لرسالته ، الصَّادِّين عن دعوته ، المتمادين فى غيهم وضلالهم بعبادة الأصنام .

وفى هذه الجملة أيضا إظهار لشفقته (عليه السلام) عليهم ، وخوفه عليهم أن يقع بهم عذاب الله ونكاله ، فى يوم عظيم هو يوم القيامة ، وقد وصفه بهذا الوصف نظراً لما يقع فيه من الأهوال ، وليكون ذلك من كمال الإنذار لهم .

قال الإمام رشيد رضا فى تفسيره المنار عند هذه الآية ما يلى :

---

(١) أخرجه البخارى عن أبى هريرة فى كتاب التفسير عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ ذرية من حملنا مع نوح ﴾ ، الآية .

(﴿ **فقال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره** ﴾ أى فناداهم بصفة القوميّة مضافة إليه استمالة لهم ، ودعاهم إلى عبادة الله تعالى وحده . مع بيان أنه ليس لهم إله غيره يتوجهون إليه فى عبادتهم ، بدعاء يطلبون به مالا يقدرون عليه بكسبهم ، وما جعله الله فى استطاعتهم من الأسباب التى تنال بها المطالب ، فإن مثل هذا هو الذى يتوجه فى طلبه إلى الرب ، الخالق لكل شيء ، الذى بيده ملكوت كل شيء .

وهذا التوجه والدعاء هو مخ العبادة ولبابها فلا يحل لمؤمن بالله تعالى أن يتوجه فيه إلى غيره ألبتة – لا استقلالا ولا بالتبع للتوجه إلى الله تعالى وإرادة التوسط به عنده ؛ فإن هذا عين الشرك ، الذى ضلّ به أكثر من ضل من الخلق .

وقوله تعالى : ﴿ **من إله** ﴾ يفيد تأكيد النفى وعمومه ، فلو قال قائل – ما عندنا من طعام أو أكل – (بضمتين) . أفاد أنه ما ثمّ شيء مما يطعم ويؤكل . ولو قال : – ما عندنا طعام أو أكل – لصدق بانتفاء ما يسمى بذلك مما يقدم عادة لمن يريد الغذاء أو العشاء من خبز وإدام ، فإن كان لدى القائل بقية من فضلات المائدة أو قليل من الفاكهة لا يكون كاذبا – والمراد من النفى العام المستغرق هنا – أنه ليس لهم إله ما – يستحق أن يوجه إليه نوع ما من أنواع العبادة لا لرجاء النفع ، أو دفع الضرر منه لذاته ، ولا لأجل توسطه وشفاعته عند الله تعالى – بل الإله الحق الذى يستحق أن تتوجه القا[illegible]ب إليه بالدعاء وغيره هو الله وحده ... ﴿ **إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم** ﴾ هد[illegible] مستأنف ، علل به الأمر بعبادة الله تعالى وحده المستلزم لترك أدنى شوائب الشرك بها ، وبيان لعقيدة البعث والجزاء ، وهى الركن الثانى من أركان الإيمان ، بعد التسليم بالرسالة . أى إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم إذا لم تمتثلوا ما أمرتكم به ، وهو يوم القيامة ، الذى يبعث الله فيه العباد ، ويجازيهم بإيمانهم وكفرهم ، وما يترتب عليها من أعمالهم . وقيل : هو يوم الطوفان . ويضعف بأن الإنذار به لم يكن عند تبليغ الدعوة ، بل بعد طول الإباء والردّ والوصول معهم إلى درجة اليأس المبين بقوله تعالى من سورته حكاية عنه : ﴿ **قال رب إنى دعوت قومى ليلا ونهارا فلم يزدهم دعائى إلا فرارا** ﴾ [الآيتان ٥ ، ٦ من سورة نوح] .

وبقوله من سورة هود ﴿ **وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن** ﴾ [الآية : ٣٦ هود] – إلا أن يراد باليوم العظيم عذاب الدنيا مطلقاً) ا هـ . كلام رشيد رضا .

النص الثانى : من سورة هود :

وهو قوله تعالى : ﴿ **ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه إنى لكم نذير مبين * أن لا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم** ﴾ .

تقدم فى النص الأول من سورة الأعراف ذكر قصة نوح عليه السلام مبدوءة بلام القسم . وهنا مبدوءة بالواو ، ثم بلام القسم . وإعراب الواو هنا استئنافية كما يقول المفسرون .

ومعنى ذلك أن ما بعدها لا يشارك ما قبلها فى الحكم ، بل هو كلام مستأنف ، لا يتصل مع ما قبله فى المعنى ، والحقيقة أن القصة مشتركة مع ما قبلها فى جملته لأن ما قبلها تحدّث عن أصول الدين من التوحيد والبعث والنبوّة .

وهذه القصة تدور حول أصل من أصول الدين أيضا ، وهو رسالة نوح (عليه السلام) ودعوته إلى التوحيد ، ونفى الشرك ، فاشتركت القصة مع ما قبلها فى هذا المعنى .

وأما القسم فقد جىء به لردّ إنكار المخاطبين لبعثة الرسل ، ولا يخفى ما فى القسم من تأكيد لهذا الردّ .

وقوله : ﴿ **إنى لكم نذير مبين** ﴾ جملة – إنى لكم الخ – إما فى محل الجر ، والمعنى أرسلناه بالنذارة البينة الواضحة . أو فى محل النصب مقول لقول محذوف ، والتقدير أرسلناه قائلا لهم – إنى لكم نذير مبين أى واضح الإنذار ظاهره . والإنذار هو الإعلام بالشىء مع بيان عاقبة من خالفه ، ولم يذعن لما فيه من الأمر والنهى .

ثم فسر الله تعالى هذا الإنذار وبينه بقوله ﴿ **أن لا تعبدوا إلا الله** ﴾ والمعنى خصوه وحده بالعبادة ، ولا تشركوا معه فى العبادة أحدا ؛ لأنه جل وعلا هو المستحق للعبادة وحده ؛ لأنه المنفرد بصفات الألوهية والربوبية وليس لغيره شىء من هذه الصفات . وكان قومه (عليه السلام) هم أول من اتخذ الأنداد ، وعبد الأصنام ، وأشرك مع الله غيره فى العبادة ، وكان هو أول رسول أرسل من الله تعالى لأهل الأرض لتطهيرها من دنس الشرك وعبادة الأوثان .

وقوله : ﴿ **إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم** ﴾ أى إن لم تستجيبوا لى وتقلعوا عن عبادة الأصنام فإنكم ستلقون هذا العذاب الأليم وأنا أخاف عليكم أن يقع بكم مثل هذا الألم البالغ .

وفى هذا إظهار لخوفه عليهم ورأفته بهم وحدبه عليهم حتى يستعطفهم بهذا فيبادروا إلى سماع ندائه ، والاستجابة له ، فيقلعوا عن عبادة الأصنام ، والمراد بهذا اليوم يوم القيامة . ووصف العذاب بالأليم دليل المبالغة فيه ؛ لأن صيغة فعيل من صيغ المبالغة ، فتدل على مضاعفة هذا العذاب ، وشدة ألمه . وقد جاء فى قصة سورة الأعراف وصف العذاب بأنه عظيم ، وفى هذه الآية بأنه أليم ، وفى موضع آخر من هذه السورة بأنه كبير .

والمعنى فى المواضع الثلاثة واحد أى أن العذاب يصح وصفه بالألم الشديد وبالعظم أيضا وبالكبر فلا تناقض .

النص الثالث : من سورة المؤمنون :

وهو قوله تعالى : ﴿ **ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون** ﴾ .

تقدم الكلام عن الواو ولام القسم فى النص السابق من سورة هود . وتقدم أن الواو أعربت استئنافية على معنى أن القصة المذكورة بعدها ، وهى قصة نوح غير متصلة بما قبل الواو من كلام .

ولكن الحقيقة والواقع أن هذه القصة لها اتصال فى الجملة بما قبلها ، فهى مشاركة لما قبلها فى المعنى ، غير منقطعة عنه كليّة .

ولعل هذا الاتصال يتبين من أن قصة نوح هذه متصلة فى المعنى بقصة آدم (عليه السلام) المذكورة قبلها فى هذه السورة بقوله تعالى : ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين** ﴾ [الآية ١٢ : من سورة المؤمنون] . الخ الآيات .

ولا يخفى ما بين آدم ونوح (عليهما السلام) من مناسبة ؛ فإن آدم هو الأب الأول للبشر ونوح هو الأب الثانى . لأن النوع الإنسانى بعده قد انحصر فى نسله . بعد أن أهلك الطوفان كل الكافرين حتى من كان من نسله كولده الذى سبق عليه القول فمات كافراً .

وقوله تعالى حكاية عن نوح : ﴿ **فقال ياقوم اعبدوا الله** ﴾ بمعنى وحدوه وأطيعوه، وكان هذا أول ما وجهه إلى قومه من نداء يتضمن إرشادهم إلى التوحيد ، الذى هو دعوة كل نبى ، والفاء تدل على الترتيب والتعقيب كما تقدم ، والمعنى أنه بادر إلى هذا النداء عقب ابتعاثه مباشرة .

وقوله تعالى : ﴿ **مالكم من إله غيره** ﴾ هو كالتعليل لما قبله أى للأمر بعبادة الله وحده . وإذا كان الأمر مشفوعا بالعلة والسبب الداعى إليه كان ذلك أدعى إلى قبوله والمبادرة إلى تنفيذه .

وقوله : ﴿ **أفلا تتقون** ﴾ . والمعنى أفلا تخافون عقوبة الله الذى هو ربكم وخالقكم إذا عبدتم غيره ، مما ليس له من صفات الألوهية ، واستحقاق العبادة أدنى شيء .

النص الرابع : من سورة نوح :

وهو قوله تعالى : ﴿ **إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه . أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم . قال ياقوم إنى لكم نذير مبين . أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون** ﴾ .

قال ابن كثير فى تفسيرها : (يقول تعالى مخبرا عن نوح (عليه السلام) أنه أرسله إلى قومه آمراً له أن ينذرهم بأس الله قبل حلوله بهم ، فإن تابوا وأنابوا رفع عنهم ..) ا هـ .

ويقول صاحب الفتوحات الإلهية عند هذه الآية أيضا : (وروى قتادة عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال أول نبى أرسل نوح عليه السلام ، وأرسل إلى جميع أهل الأرض ، ولذلك لما كفروا أغرق الله أهل الأرض جميعا) ا هـ . كلام صاحب الفتوحات الإلهية ، نقلا عن تفسير الخطيب .

وقوله فى الحديث : (أول نبى أرسل نوح) لعل المراد منه أنّه أول نبى أرسل بالنهى عن عبادة غير الله لأن عبادة غيره إنما حدثت فى زمن نوح ، وإلا فمن المعلوم أن قبله أنبياء : آدم وشيث وإدريس .

ولعل هؤلاء الأنبياء قبله لم تكن لهم شرائع وإنما كان ما جاءوا به نصائح وتوجيهات إلى الخير المطلق ، ولم تكن عبادة الأصنام قد عرفت فى عصرهم ؛ فإن الناس كانوا مازالوا على الفطرة الخيرة من التوحيد الخالص ، ولم يكونوا قد ابتعدوا عن الله كثيرا بفعل الشياطين ووسوستهم .

قال صاحب الشهاب كما ينقله عنه الجمل فى حاشيته : (ونوح أطول الأنبياء عمرا ، بل أطول الناس ، وهو أول من شرعت له الشرائع ، وأول رسول أنذر من الشرك ، وأهلكت أمته) ا هـ . شهاب .

وفى قول نوح عليه السلام ﴿ **أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون** ﴾ دعوة منه (عليه

السلام) لقومه أن يفردوا الله تعالى بالعبادة فلا يشركوا معه الأصنام والأوثان ، وأن يحذروا غضب الله ونقمته إن استمروا على هذا الشرك ، ولم يقلعوا عنه . وفى قوله ﴿ **وأطيعون** ﴾ إشارة إلى أن طاعة الرسل عليهم السلام هى طاعة لله ؛ لأنهم لايأمرون ولا ينهون من قبل أنفسهم ، بل بأمر الله تعالى لهم فمن أطاع أوامرهم فقد أطاع أوامر الله ، قال تعالى فى حق نبيه خاتم الأنبياء محمد ﷺ : ﴿ **وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى** ﴾ [الآيتان ٣ ، ٤ : من سورة النجم] .

وقال أيضاً : ﴿ **وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا** ﴾ .
[الآية ٧ : من سورة الحشر] .

وقال جل وعلا : ﴿ **من يطع الرسول فقد أطاع الله** ﴾ .
[الآية ٨٠ : من سورة النساء] .

وما يجرى على واحد منهم ينسحب على الجميع عليهم أفضل الصلاة والسلام .

هذا ومن هذه النصوص القرآنية التى ذكرت يتضح لنا تماما أن الدعوة إلى توحيد الله تعالى توحيداً خالصا لا يرقى إليه الشك ولا يعتريه الريب ونبذ عبادة الأصنام وعدم إشراكها مع الله فى العبادة وعدم التقرب إليها بالدعاء أو الخضوع أمامها أو الذبح لها أو تعظيمها بأى نوع من أنواع التعظيم كان هو الغرض الأساسى لدعوة نوح عليه السلام فنجد هذا الغرض فى الآيات الأربع هو المتصدر للنداء مما يؤكد أنه فى المقام الأول والدرجة العليا من دعوة نوح (عليه السلام) . وحتى في حواره (عليه السلام) مع قومه وجداله معهم .

كان يرمى إلى تثبيت هذه العقيدة فى نفوسهم ، وطرح الشرك بالله ، ونبذ عبادة الأصنام ، حتى ملّوا جداله ، وكرهوا نقاشه ، فقالوا له ما قال الله عنهم فى كتابه الكريم : ﴿ **قالوا يانوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين** ﴾ [الآية ٣٢ : من سورة هود] .

وكان مما جادلهم فيه ، وأقام عليهم فيه الحجة عقيدة التوحيد والإيمان بالبعث ، الذى سيحاسبون فيه على أعمالهم ، ويسألهم الله فيه عن كفرهم ، وعبادتهم الأصنام :

قال الله تعالى فى شأنه مع قومه : ﴿ **فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدراراً * ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا** *

مالكم لا ترجون لله وقارا * وقد خلقكم أطوارا * ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً * وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً * والله أنبتكم من الأرض نباتا * ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا * والله جعل لكم الأرض بساطا * لتسلكوا منها سبلا فجاجا ﴾ [الآيات من ١٠ – ٢٠ من سورة نوح] .

ففى هذه الآيات دليل لنوح على قومه ، وحجة دامغة له ، يقذف بها على باطلهم فيزهقه ، بقوله لهم : استغفروا ربكم أى توبوا إليه وأقلعوا عما أنتم فيه من عبادة غيره وأطيعوه فى كل ما يأمركم به على لسانى . ثم أقام عليهم الحجة فى تدعيم ما دعاهم إليه ، وعرضه عليهم ، بالترغيب أولا ، وذكرهم بالمصدر الحقيقى لهذه النعم التى يحبونها ، وهو الله (تبارك وتعالى) فإنه وحده واهبها ومعطيها ، ولو شاء لأمسكها عنهم ، فلا يقدر أحد مّا على إيصالها إليهم .

ومن هذه النعم إرسال المطر وسقوطه من السماء على أرضهم ، فيشربون ، ويسقون مواشيهم ، وتخضر أرضهم بالنبات ، والزروع والأشجار ، فيأكلون ، وتأكل ماشيتهم ، وتكثر بساتينهم ، وحدائقهم ، ويمددهم الله بالأموال والبنين ، وذلك ما كانوا يحبونه فى دنياهم ، ويرغبون فيه ، وفى هذا التذكير بالنعم إشارة واضحة إلى أنهم إن أطاعوا الله تعالى ، وأفردوه بالعبادة ، زادهم من هذه النعم .

ففى ذلك إرشاد لهم ، وتوجيه إلى توحيد الله ، والعرفان بأنه وحده واهب هذه النعم .

وقد روى عن سيدنا عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) أنه صعد المنبر ليستسقى فلم يزد عن الاستغفار ، وقراءة الآيات التى فيها الاستغفار ، ومنها هذه الآيات .

فلما قيل له فى ذلك قال : (لقد طلبت الغيث بمجاديح السماء التى يستنزل بها المطر) .-والمجاديح : هى الأنواء الصادقة التى لا تخطىء . شبه عمر رضى الله عنه الاستغفار بها بجامع أن كلا منهما لا يخطىء الغرض .

وقد روى أيضا عن الحسن : (أن رجلا شكا إليه الجدب . فقال استغفر الله ، وشكا إليه آخر الفقر ، وآخر قلة النسل ، وآخر قلة ريع أرضه فأمرهم كلهم بالاستغفار : فقال له الربيع بن صبيح : أتاك رجال يشكون أبواباً فأمرتهم كلهم بالاستغفار ؟ فتلا هذه الآيات) .

ثم ينتقل نوح (عليه السلام) بعد هذا الاحتجاج عليهم بالترغيب فيما عند الله من هذه النعم ، التى لا يملكها إلا الله . فإن هم وحدوه ، وأطاعوه ، أغدقها عليهم ، وإن أشركوا معه غيره ، وعصوه أمسكها عنهم .

انتقل بعد ذلك إلى الترهيب فقال ما حكاه الله تعالى عنه : ﴿ **مالكم لا ترجون لله وقاراً** ﴾ وكلمة ﴿ **ترجون** ﴾ هنا بمعنى تخافون لأنه من المعروف أن الرجاء فيه طرف من الخوف . وكلمة ﴿ **وقاراً** ﴾ بمعنى عظمة .

والمعنى : كيف لا تخافون عظمة الله وقهره وجبروته ، أو مالكم لا تعظمون الله حق عظمته ، فلا تخافون من بأسه ونقمته جزاء كفركم وإشراككم به ؟

وبعد هذا الترغيب والترهيب أخذ عليه السلام يوجه أنظارهم إلى ما فى هذا الكون من آيات باهرات ، ودلائل ناصعات تهدى الحائرين ، وتأخذ بيد التائهين إلى معرفة الخالق جل وعلا وتوحيده الخالص ، وقد بدأ معهم بأقرب شىء إليهم وهى أنفسهم فقال ما قاله الله تعالى عنه : ﴿ **وقد خلقكم أطواراً** ﴾ .

والمعنى : كيف تشركون معه غيره ، والحال أنه خلقكم فى أطوار ومراحل تظهر عظمة الله تعالى ، وكمال قدرته فى كل طور منها أكثر من الذى قبله : بأن جعلكم أولا نطفة : وهى ماء مهين كما وصفه الله تعالى سلّ واستخلص من ظهور الآباء ، ثم صار إلى أرحام الأمهات ، فحفظه الله تعالى زمنا فى هذا القرار المكين ، بعد أن اختلط ماء الرجل بماء المرأة ثم تحول بقدرة الخالق (جل وعلا) إلى مادة لزجة ، تعلق بهذا الرحم ، وبعد مدة تتحول هذه المادة إلى قطعة من الدم المتجمد ، أو قطعة من اللحم صغيرة رخوة ، ثم يخلق الله تعالى من هذه القطعة الصغيرة التى لا تزيد على مقدار ما يتناوله الإنسان فى فمه مرة واحدة عند طعامه . أى لا تزيد على مقدار ما يملأ الفم من طعام .

وإذا بقدرة الخالق (جل وعلا) تتجلى ، فتنشىء من هذا الحجم الصغير العظام كلها : من العمود الفقرى إلى عظام الأطراف من الأذرع والسيقان وجمجمة الرأس وعظام الرقبة إلى عظام الأصابع والأظافر . ثم تتجلى القدرة الغالبة فى وضع مسام صغيرة على إهاب البدن كله ، وفى هذه المسام منابت الشعر ، فتراه أحيانا كثيفا غزيرا فى بعض المواضع : كالرأس ، وأحيانا خفيفا لا يكاد يحجب الجلد : كغالب الجسد . وأحيانا تراه وسطا : كشعر الحاجب ورموش العين ، وأحيانا نرى هذا الشعر قد نبت

وظهر بشكل واضح عقيب الولادة مباشرة : كشعر الرأس والحاجب ورمش العين . وأحيانا لا ينبت ولا يظهر إلا بعد البلوغ : كشعر اللحية والشارب والغانة وغير ذلك .

فمن الذى قسّم هذا التقسيم ، ووقت هذا التوقيت فى البدن الواحد ؟ إنه الله رب العالمين .

ثم تأتى بعد ذلك المعجزة العظيمة ، والقدرة القاهرة ، فيتحول هذا الجماد بإرسال ملك من قبل الله تعالى ؛ لينفخ فيه هذا السر الإلهى الذى هو الروح فإذا بهذا الجماد كائن حى يتحرك ، ويصير بشرا سويا . هذا عدا ما تولاه الله تعالى فى جميع أطواره من الحفظ والرعاية ، وهو فى بطن أمه من إيداعه هذا القرار المكين الأمين عليه ، فلا يصله إليه فيه أذى ، وتهيئة هذا المكان له بما يلائم وضعه فى كل طور من الأطوار حتى يخرجه الله تعالى إلى حياة الناس فى هذه الدنيا ، وتستمر عناية الله وكلاءته له طوال عمره . فهل يقدر على هذا كله أحدٌ غير الله ؟ حاشا لله . وتبارك الله أحسن الخالقين دعاهم نوح (عليه السلام) إلى التفكر فى كل هذا ليتخذوا منه دليلا على كمال قدرة الله تعالى . فلا يشركوا معه غيره فى العبادة .

ثم بعد ذلك لفت أنظارهم أيضاً إلى التفكير فى ما حولهم من هذه المخلوقات العجيبة ، الدالة على اتقان صنعته تعالى ، وكمال قدرته فقال أيضاً ما قاله الله عنه : ﴿ **ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً .. الآيات** ﴾ .

والمعنى انظروا إلى هذه السموات السبع المتطابقة فوقكم من بناها ، ورفع سمكها وسواها ، وجعل فيها الكواكب النافعة لكم : كالشمس تستضيئون بها ، وتوقتون الأيام والليالى بها ، وجعل فيها القمر الذى تستنيرون به ، فى الليل الداجى ، وتوقتون به الأشهر والسنين ، فترتبط مصالحكم ، ومعاملاتكم بهذا التوقيت ولكم فى ذلك كله فوائد عظيمة .

ثم بعد أن وجههم إلى النظر فى العالم العلوى عاد بهم ؛ ليتفكروا فى العالم الأرضى فأفهمهم أن أصل خلقتهم منها وهو أبوهم آدم (عليه السلام) وأن الجميع يموتون ، ويعودون بموتهم هذا إلى الأرض ، ثم إن الحق (جل وعلا) سوف يخرجهم من الأرض للبعث والحساب .

وبهذا يدلهم نوح أيضاً على إثبات البعث ، ثم يذكرهم بهذه النعم التى أغدقها ا
عليهم فى الأرض أثناء حياتهم : بأن جعلها الله (تعالى) لهم كالبساط : أى موض
نوم الرجل فهو يتقلب فيه كيف يشاء عند النوم . ومثل ذلك يتقلب فى مسالك الأرض
وطرقها أثناء اليقظة ، بحثاً عن الرزق وغيره ، فالله (تعالى) جعلها ممهدة لذلك ، ولو
شاء لجعلها صلداً : كالحديد لا يستطيع الإنسان شقها ، وحرثها بمحراثه فلا تنبت له
زرعا ، ولو شاء لجعلها رخوة سائلة تغوص فيها الأقدام ، فلا يستطيع الإنسان المشى
عليها .

ولكن من رحمته تعالى بالإنسان أن خلقها له بصورة وسط بين الصلابة والميوعة .
ليتأتى بذلك النفع الكامل للإنسان . فمن الذى يقدر على ذلك إلا الله رب العالمين ؟ ..

ومن هذا كله نستطيع أن نقول إن دعوة نوح (عليه السلام) كانت كلها موجهة
إلى الأمر بتوحيد الله ، ونبذ عبادة الأصنام ، والدعوة إلى أنه (تعالى) وحده هو
المستحق للعبادة دون غيره من المخلوقات .

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآيات : (.. ﴿ **والله جعل لكم الأرض
بساطاً** ﴾ أى بسطها ومهدها وقررها وثبتها بالجبال الراسيات الشم الشامخات ﴿ **لتسلكوا
منها سبلاً فجاجاً** ﴾ أى خلقها لكم لتستقروا عليها وتسلكوا فيها أين شئتم من نواحيها
وأرجائها وأقطارها وكل هذا مما ينبههم به نوح (عليه السلام) على قدرة الله وعظمته
فى خلق السموات والأرض ونعمه عليهم فيما جعل لهم من المنافع السماوية والأرضية ،
فهو الخالق الرزاق ، جعل السماء بناء والأرض مهادا ، وأوسع على خلقه من رزقه .

فهو الذى يجب أن يعبد ويوحد ولا يشرك به أحد ؛ لأنه لا نظير له ولا عديل
له ولا ندّ ولا كفء ولا صاحبة ولا ولد ولا وزير ولا مشير بل هو العلى
الكبير) ا . هـ . كلام ابن كثير .

دعوة هود عليه السلام

وإنما آثرت ذكر موقف هود مع قومه بعد ذكر موقف نوح مع قومه مباشرة نظراً
لأن قصة هود غالباً ما تأتى فى القرآن الكريم عقيب قصة نوح مباشرة ، وقد ذكّر
هود قومه خلال جداله معهم بأن الله تعالى استخلفهم فى الأرض بعد قوم نوح .

فكان من نقاشه معهم كما حكاه الله عنه فى سورة الأعراف : ﴿ **واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ..** ﴾ [من الآية : ٦٩ من الأعراف] وكذلك جاءت قصة هود عقيب قصة نوح فى سورة هود ، وسورة الشعراء ، وسورة المؤمنون ، وقد نسب هود إلى نوح عليهما السلام كما جاء فى قول ابن إسحاق وغيره من علماء الأنساب نسباً قريباً .

وبعد أن ظهر الآن سر ذكر هود بعد نوح (عليهما السلام) نأتى إلى تلك النصوص القرآنية التى تحدثت عن دعوة هود قومه إلى عبادة الله تعالى وحده وعدم الإشراك به فنقول :

١ – قال الله تعالى : ﴿ **وإلى عاد أخاهم هوداً قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون** ﴾ [الآية ٦٥ : الأعراف] .

٢ – قال الله تعالى : ﴿ **وإلى عاد أخاهم هوداً قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون** ﴾ [الآية ٥٠ : هود] .

٣ – قال تعالى : ﴿ **ثم أنشأنا من بعدهم قرنا آخرين فأرسلنا فيهم رسولا منهم أن اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون** ﴾ [الآيتان ٣١ ، ٣٢ : المؤمنون] .

٤ – قال تعالى : ﴿ **واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ألا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم . قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين * قال إنما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به ولكنى أراكم قوما تجهلون فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم * تدمر كل شىء بأمر ربها فأصبحوا لا يُرى إلا مساكنهم كذلك نجزى القوم المجرمين ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعا وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شىء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون * ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون * فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة بل ضلوا عنهم وذلك إفكهم وما كانوا يفترون** ﴾ [الآيات من ٢١ إلى ٢٨ : الأحقاف] .

وإذا نظرنا إلى هذه النصوص مجملة نجدها تدور حول دعوة هود قومه إلى عبادة الله وحده ، وترك عبادة الأصنام ، وحضهم على تقوى الله تعالى وخوف عقابه إن

عبدوا غيره وتذكيرهم بعاقبة من قبلهم من الأمم التى دمرت جزاء كفرها وعصيانها لخالقها . وعدم نصرة آلهتها المزعومة التى عبدتها من دون الله فلم تمنعها من عذاب الله ولم تدفع عنها عقابه .

وأما هذه النصوص مفصلة فيمكن أن نقول فيها ما يأتى :

النص الأول : من سورة الأعراف :

وهو قوله تعالى : ﴿ **وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون** ﴾ .

فقوله : ﴿ **وإلى عاد ... إلخ** ﴾ أى أرسلنا إلى قبيلة عاد أخاهم هوداً .

وهى قبيلة عربية سميت باسم جدها الأعلى عاد وعبر القرآن عن هود عليه السلام بوصف الأخوة لهم على أنه من قبيلتهم أى أخوهم نسبا وقيل على معنى أنه أخوهم فى الإنسانية .

وقوله : ﴿ **قال ياقوم اعبدوا الله .. إلخ** ﴾ أى وحدوه وأفردوه بالعبادة ، فلا تشركوا معه غيره ، فليس لكم إله غيره يستحق العبادة والتعظيم .

والخلاصة أنه عليه السلام قال لهم ما قاله نوح لقومه والقصة برمتها معطوفة بالواو على قصة نوح قبلها .

وقوله ﴿ **أفلا تتقون** ﴾ تحذير وإنكار عليهم بأنهم لم يخافوا عقابه فعبدوا معه آلهة أخرى .

وقيل فى هذه العبارة تخويف لهم بما حدث لقوم نوح قبلهم حين أغرقهم الطوفان ، وكان العهد بهم قريبا والواقعة فريدة فى نوعها ومشهورة فاكتفى هود عليه السلام بتذكيرهم بهذه الواقعة وكفى بها تخويفا وإنذاراً .

النص الثانى : من سورة هود :

وهو قوله تعالى : ﴿ **وإلى عاد أخاهم هوداً قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون** ﴾ .

هو مثل النص الأول تماماً والواو فيه للعطف ؛ عطف جملة على جملة ، فقد عطفت قصة هود على قصة نوح المذكورة قبلها فى هذه السورة .

وقوله : ﴿ **إن أنتم إلا مفترون** ﴾ أى كاذبون فى ادعائكم أن مع الله آلهة أخرى .

النص الثالث : من سورة المؤمنون :

وهو قوله تعالى : ﴿ **ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين فأرسلنا فيهم رسولاً منهم أن اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون** ﴾ .

المراد بالقرن هنا الجماعة من الناس الذين عاشوا فى زمن واحد .

والمعنى : أننا بعد أن أهلكنا قوم نوح بالطوفان أنشأنا قوما آخرين هم قبيلة عاد كما يقول ابن عباس وغيره من المفسرين وبدليل أن قصتهم تذكر دائما بعد قصة نوح وهم أقرب الأمم إليهم زمنا حتى قيل ما بينهما إلا مائة عام أو أقل .

وعلى ذلك فالرسول الذى أرسل فيهم هو هود عليه السلام ، وتعدية الفعل « بفى » دون « إلى » دليل على أنه كان منهم كما تصفه الآيات الأخرى بأنه أخوهم . فتكون الأخوة من النسب فإن « فى » تدل على الظرفية فكأنه قال رسولاً كائناً منهم ولم يأتهم من الخارج . هذا هو الراجح .

وقيل إن المراد بأهل هذا القرن هم عاد الثانية أى ثمود قوم صالح بدليل أن الله جعل عقوبتهم فى آخر هذه القصة هى الصيحة ، والصيحة إنما كانت عقوبة ثمود .

ولكن يمكن أن يقال إن المراد بالصيحة هنا مطلق العذاب فتكون شاملة لإرسال الريح الصرصر الذى عذبت به عاد الأولى . أو تكون الصيحة هى عبارة عن صوت الريح التى أرسلت على عاد قوم هود . وبهذا أمكن أن يقال إن القول الأول هو الراجح .

وقوله : ﴿ **أن اعبدوا الله .. إلخ** ﴾ (أن) فيه مصدرية والتقدير أرسلناه بأن اعبدوا ، أى بقوله اعبدوا ... الخ » . ويصح أن تكون – أن – مفسرة والشرط فيها متحقق لأنه سبقها أرسلنا . وهو فيه معنى القول دون حروفه . وبقية النص كما تقدم .

النص الرابع : من سورة الأحقاف :

وهو قوله تعالى ﴿ **واذكر أخا عاد ..** ﴾ إلى قوله ﴿ **وذلك إفكهم وما كانوا يفترون** ﴾ . وهو المتقدم آنفا . والآيات الكريمة فى هذا النص مسوقة لتسلية نبينا محمد ﷺ وتقدم أن أخا عاد هو هود عليه السلام . والمعنى اذكر يامحمد حاله مع قومه وعدم استجابتهم لندائه وتسّ بذلك . ثم شرعت الآيات فى تفصيل القصة بقوله تعالى : ﴿ **إذ أنذر قومه بالأحقاف** ﴾ ، والأحقاف جمع حقف والمراد مكان سكنى قبيلة عاد الذين بعث هود عليه السلام فيهم . قيل هو بمعنى الجبل من الرمال ، وقيل هو الجبل والغار ، وقيل

واد بحضرموت ، وقيل حى من أحياء اليمن بأرض يقال لها الشحر .

وقوله تعالى : ﴿ **وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه** ﴾ أى إن أهل القرى ليسوا وحدهم هم الذين أرسل إليهم رسول . بل ماحولهم أيضا من القرى أرسل إليهم رسل . وذلك كقوله تعالى : ﴿ **وإن من أمة إلا خلا فيها نذير** ﴾

[من الآية ٢٤ : فاطر] .

وقوله تعالى : ﴿ **ألا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم** ﴾ إما فى محل النصب مقول لقول محذوف والتقدير أنذر قومه بالأحقاف فقال كذا وكذا . أو فى محل جر بحرف محذوف والتقدير أنذرهم بأن لا يعبدوا إلا الله ... الخ » .

وهذا بيان وتوضيح لإنذار هود لقومه وندائه لهم ؛ وبيان لأن مثل هذا الإنذار صدر من الرسل الذين أرسلوا قبله وبعده لأهل القرى المجاورة لمكان قومه وغيرها . فهو نداء عام يصدر من كل رسول إلى قومه يدعوهم إلى توحيد الله تعالى ونبذ عبادة غيره ويحذرهم نقمته وعذابه الأليم إن هم خالفوا هذه النداء . وقوله تعالى : ﴿ **قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين** ﴾ بيان لرد قومه على دعوته حيث قالوا منكرين عليه أجئتنا لتصرفنا عن عبادة آلهتنا التى تعوّدنا عليها فأتنا بوعيدك إن كنت صادقاً فى دعواك . وهذا نوع من التكذيب والتحدّى وعدم المبالاة بوقوع العذاب . وقوله تعالى : ﴿ **قال إنما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به ولكنى أراكم قوما تجهلون** ﴾ معناه أن هوداً عليه السلام يفوض الأمر إلى الله فى هؤلاء المكذبين فيخبر أن الله تعالى أعلم باستحقاقكم العذاب فإن كنتم تستحقونه عاجلا عجله وإن كنتم تستحقونه آجلا أجله . وليس لى من الأمر إلا مجرد التبليغ ولكنى أراكم قوما لا تعقلون ولا تفهمون معنى الرسالة ووظيفة الرسول أو المعنى أراكم لا عقل لكم أصلا فلا تعقلون ما يجب أن يعقل ويفهم .

وقوله تعالى : ﴿ **فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ماستعجلتم به ريح فيها عذاب أليم . تدمر كل شىء بأمر ربها فأصبحوا لايُرى إلا مساكنهم كذلك نجزى القوم المجرمين** ﴾ . قيل إن الله تعالى أجحفهم حتى احتاجوا إلى المطر ، فرأوا سحابة ظنوها ستمطرهم ؛ لأنها مستقبلة أوديتهم ، فطاروا بها فرحا وقالوا : هذا عارض ممطرنا ، ولكن سرعان ما ردّ عليهم هود بما أحزنهم وأقنطهم ، وبدل استبشارهم أسفا وكمدا ، فقال لهم بل هو ما استعجلتم به من العذاب الذى

طلبتموه ، وليس هو ماء ولا مطر ، بل هو ريح فيها عذاب أليم مهلكة ومدمرة ، تأتى على أرواحكم وأموالكم ، فلا تبقى ولا تذر ، كما قال الله تعالى : ﴿ **تدمر كل شىء بأمر ربها** ﴾ وكما قال فى آية أخرى ﴿ **ما تذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم** ﴾ [الآية ٤٢ : من سورة الذاريات] .

وقد كان ذلك فاجتاحتهم الريح حتى قضت عليهم ، فأصبحوا أثرا بعد عين ، وأصبحت مساكنهم خرابا يبابا . ثم بين الله تعالى أن هذا جزاء المجرمين لا من قوم هود فحسب ، بل كذلك قضينا بالهلاك والدمار على كل من خالف أمرنا وكذب رسلنا . وقوله تعالى : ﴿ **ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شىء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ماكانوا به يستهزءون** ﴾ . يذكر الله تعالى المخاطبين من أمة محمد ﷺ بحال الأمم السابقة كأمة هود وغيره بأن الله تعالى مكنهم فى الأرض وأسبغ عليهم النعم من السمع والبصر وغيره . ولكنهم لما جحدوا آيات الله وكذبوا رسله أخذهم الله بالنكال والدمار ولم تغن عنهم هذه النعم شيئا فاحذروا أن تكونوا مثلهم فيحل عليكم العقاب ، ولا تستطيعون دفعه .

وقوله تعالى : ﴿ **ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون** ﴾ . هو أيضاً تذكير وتحذير لأهل مكة ، من سوء عاقبة الأمم السابقة ، خشية أن يصيبهم ما أصاب هذه الأمم ، حين كذبت أنبياءها ، ومن الأمم التى أهلكها الله بتكذيب رسلها وكلها حول مكة وقريب منها عاد ، وكانوا بحضرموت فى الجنوب الشرقى من الجزيرة العربية . وثمود وكانت منازلهم بين الجزيرة ، وبين الشام . وسبأ وهم أهل اليمن فى الطرف الجنوبى من الجزيرة . ومدين وكانت فى طريقهم أيضا يغدون عليها ويروحون فوجة الله تعالى أنظار المخاطبين من أمة محمد ﷺ ليتعظوا بأحوال هذه الأمم التى تقع قريبا منهم ، يشاهدون آثارها ، ويعرفون أخبارها . كما جاء ذلك فى آية أخرى ﴿ **وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون** ﴾ [الآيتان ١٣٧ ، ١٣٨ : الصافات]

وقوله تعالى: ﴿**فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً آلهة بل ضلوا عنهم وذلك إفكهم وماكانوا يفترون**﴾. الضمير فى نصرهم عائد على الأمم السابقة التى كذبت رسلها والموصول وصلته مراد بهم الأصنام التى عبدها هؤلاء الأقوام من دون

الله . والمعنى فهل نصرتهم الأصنام التى عبدوها ، فدفعت عنهم شيئا من عذاب الله . الجواب كلا . لم تنفعهم أصنامهم ، ولم تمنعهم من بأس الله ، بل ضلوا عنهم ، وتخلوا عن نصرتهم ، فى وقت احتياجهم إليهم ، وذلك كذبهم فى زعمهم أن الأصنام تنفعهم ، وما كانوا يفترون . أى افتراؤهم فى اتخاذهم إياهم آلهة وقد بان خسرانهم وضلالهم فى اعتمادهم عليها . وما شأن أصنامكم ياكفار مكة إلا كشأن هذه الأصنام السابقة ، لا تنفع ولا تضر ، فاتعظوا بمن كان قبلكم ، واتركوا عبادة هذه الأصنام واقبلوا على توحيد الواحد الديان .

دعوة صالح عليه السلام

من النصوص التى ذكرها القرآن الكريم فى هذا المجال قوله تعالى :-

١ - ﴿ **وإلى ثمود أخاهم صالحا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم** ﴾ [الآية ٧٣ : من سورة الأعراف] .

٢ - ﴿ **وإلى ثمود أخاهم صالحا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربى قريب مجيب** ﴾ [الآية ٦١ : من سورة هود] .

٣ - ﴿ **ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً أن اعبدوا الله فإذا هم فريقان يختصمون** ﴾ . [الآية ٤٥ : النمل] .

والذى دعانى إلى ذكر قصة صالح عليه السلام بعد هود لأن الله ذكرها كذلك فى بعض السور كالأعراف وهود وأيضاً لأنه من خطاب صالح لقومه أن قال لهم - واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد . فدل على أنهم جاءوا بعدهم . وهذه النصوص الثلاثة كما نرى كلها منصبة على دعوتهم إلى توحيد الله تبارك وتعالى وإفراده بالعبادة مع الاحتجاج عليهم ببعض الآيات الدالة على صدقه وعلى كمال قدرة الله تعالى .

النص الأول : من سورة الأعراف :

وهو قوله تعالى : ﴿ **وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم** ﴾ . والواو فيه عاطفة لقصة على قصة ، والجار والمجرور

يتعلق بمحذوف تقديره وأرسلنا ... وثمود - قبيلة صالح ، وهى قبيلة عربية ، سميت باسم جدها الأعلى ومساكنها بالحجر - بكسر المهملة وسكون المعجمة ، مكان بين الحجاز والشام ، ويعرف الآن بمدائن صالح ، وقد مر به النبى ﷺ وهو ذاهب إلى غزوة تبوك سنة ٩ هـ وأمر أصحابه بالإسراع فيه لأنه أرض نزل بها عذاب .

ووصف صالح عليه السلام بالأخوة فيه إشارة إلى أنه منهم نسباً وموطنا . وفى ذلك من الاستعطاف وإثارة مشاعر الأخوة فيهم ما يدعوهم إلى سرعة الاستجابة له .

ثم قال لهم عليه السلام ما قاله كل نبى لقومه : ﴿ **اعبدوا الله مالكم من إله غيره** ﴾ أى أفردوه بالعبادة ولا تعبدوا معه آلهة أخرى فليس هناك من الآلهة المزعومة ما له صفة من صفات الألوهية يستحق بها العبادة . ثم أخذ يحتج عليهم بالمعجزة الدالة على صدقه فقال : ﴿ **هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله** .. إلخ ﴾ ، فأضاف الناقة إلى الله ، ليدل على تعظيمها من جهة ، وعلى أنها بينة من الله دالة على صدقه ، وليست من صنعه هو ولا غيره ، ولكنها من الله خلقها ، وجعلها معجزتى إليكم .

ثم أرشدهم إلى ما يجب عليهم نحوها ، وهو عدم التعرض لها بسوء ، ولكنهم كذبوا كونها آية شاهدة على صدق صالح ، وليتهم سكتوا عند هذا الحد ، بل تعرضوا لها بالقتل والعقر فاستحقوا الهلاك والدمار .

النص الثانى : من سورة هود :

وهو قوله تعالى : ﴿ **وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربى قريب مجيب** ﴾ . تقدم الكلام عن صدر هذه الآية فى النص السابق ، وأما قوله ﴿ **هو أنشأكم من الأرض** .. إلخ ﴾ فهو احتجاج عليهم ، وتذكير لهم بكمال قدرته تعالى ، وأنه مصدر النعم كلها ، فهو الجدير بالعبادة وحده دون غيره ، من هذه الآلهة الكاذبة التى ليس لها أدنى صفة من صفات الألوهية ، ولا من صفات الربوبية ، فما الداعى إلى عبادتها ؟.

ومعنى أنشأكم من الأرض أى خلقكم منها ، وذلك بخلق أبيكم آدم منها مباشرة ، أو بخلق النطف التى أنتم منها من أغذية مستخرجة من الأرض ؛ فإن النطفة التى يخلق منها الإنسان عبارة عن الدم الذى تكون فى جسم الأب ، من الأغذية والأطعمة التى منبتها من الأرض غالباً . ومعنى استعمركم فيها أى أقدركم على عمارتها وسكناها ، فاستغفروه من الشرك والمعاصى ، ثم توبوا إليه أى ارجعوا إلى طاعته ، واتركوا معصيته

﴿ إن ربى قريب ﴾ بعلمه ﴿ مجيب ﴾ دعاء من دعاه قابل لتوبة من تاب إليه .

النص الثالث : من سورة النمل :

وهو قوله تعالى : ﴿ **ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً أن اعبدوا الله فإذا هم فريقان يختصمون** ﴾ . الواو فيها عاطفة لجملة على جملة ، واللام للقسم ، والتقدير . والله لقد أرسلنا إلى ثمود .. الخ ، وثمود اسم القبيلة ، ويطلق عليها أيضا عاد الثانية ، وصالح أخوهم نسبا : أى من أفراد هذه القبيلة ، و(أن) مصدرية أو مفسرة كما تقدم واعبدوا الله بمعنى وحدوه ، أو أفردوه بالعبادة ، و(إذا) فجائية ، والمعنى : ففاجأ إرساله انقسام قومه إلى فريقين : فريق آمن واستجاب وفريق عاند وكفر .

قال ابن كثير عند تفسيرها : (يخبر الله تعالى عن ثمود وما كان من أمرها مع نبيها صالح عليه السلام حين بعثه الله إليهم ، فدعاهم إلى عبادة الله وحده ، لا شريك له ﴿ **فإذا هم فريقان يختصمون** ﴾ قال مجاهد : مؤمن وكافر ..) ا هـ كلام ابن كثير .

دعـوة شعيب عليه السلام

مما ذكره الله تعالى وورد به القرآن الكريم فى دعوة شعيب عليه السلام مايأتى :

١- قوله تعالى : ﴿ **وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ...** ﴾ [من الآية ٨٥ : سورة الأعراف] .

٢ - قوله تعالى : ﴿ **وإلى مدين أخاهم شعيبا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان إنى أراكم بخير وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط** ﴾ . [الآية ٨٤ : هود] .

٣ - قوله تعالى : ﴿ **وإلى مدين أخاهم شعيبا فقال ياقوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر ولا تعثوا فى الأرض مفسدين** ﴾ . [الآية ٣٦ : العنكبوت] .

وهذه الآيات كلها تدور حول دعوته لقومه إلى التوحيد الخالص ، وإفراده بالعبادة ، ونهيهم عن المفاسد والظلم ، بنقص الكيل والميزان ، وتخويفهم بيوم البعث ، الذى يحاسب الناس فيه على أعمالهم ، هذا هو معنى النصوص إجمالا وأما تفصيلا فهو :

النص الأول : من سورة الأعراف :

وهو قوله تعالى : ﴿ **وإلى مدين أخاهم شعيباً قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ..** ﴾ . الواو عاطفة لجملة على جملة كما تقدم ، والجار والمجرور متعلق بمحذوف

تقديره وأرسلنا .. الخ ، ولفظ مدين اسم للقبيلة التى سميت باسم جدها الأعلى أيضاً ، وهو مدين بن إبراهيم عليه السلام . وهو اسم للقرية أيضا ، والمراد به هنا القبيلة .

وإذا كانت القبيلة تنتمى إلى ابن الخليل وشعيب أيضا ينتمى إليه فهو إذاً أخوهم نسبا ، وكان سكنى هؤلاء القوم بين الحجاز والشام ، بمكان يسمى معان ، وهم أصحاب الأيكة ، لأن المنطقة التى كانوا يسكنونها قريبا من معان كانت مليئة بالشجر .

هذا وقد قال بعض المفسرين إن شعيبا أرسل إلى أمتين : أهل مدين ، وأصحاب الأيكة . وأن أهل مدين لما كذبوا أهلكوا بالضيحة ، وأصحاب الأيكة لما كذبوا أهلكوا بعذاب يوم الظلّة . قال تعالى فى نهاية قصته فى سورة هود : ﴿ **ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين** ﴾ . [الآية ٩٤ : هود] . وقال فى نهاية قصته فى سورة العنكبوت ﴿ **فكذبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين** ﴾ . [الآية ٣٧ : العنكبوت] .

وقال فى نهاية قصته فى سورة الشعراء ﴿ **فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم** ﴾ . [الآية ١٨٩ : الشعراء] .

ولكن المحققين من المفسرين قالوا إنه أرسل إلى أمة واحدة هم أهل مدين ، وأن بلادهم كانت مليئة بالشجر ، فسموا أصحاب الأيكة ، وأن العذاب الذى أهلكوا به ، وذكرته الآيات الثلاث نوع واحد ، كانت السحابة السوداء مقدمة له ، ثم ارتجفت بهم الأرض ، وتزلزلت ، ثم صاح فيهم الملك صيحة ، قضت عليهم ، وأهلكتهم .

هذا وإن كانت دعوة شعيب لقومه بالنهى عن كثير من المفاسد والمظالم التى كانت منتشرة فى قومه متفشية فيهم إلا أن أساس ذلك كله كان دعوته لهم إلى تصحيح العقيدة ، وإخلاص العبادة لله وحده ، كما يتصدّر ذلك النصوص المذكورة صراحة ، فكل نص نراه مصدّراً بقوله لهم : ﴿ **اعبدوا الله مالكم من إله غيره** ﴾ .

النص الثانى : من سورة هود :

وهو قوله تعالى : ﴿ **وإلى مدين أخاهم شعيباً قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ولاتنقصوا المكيال والميزان إنى أراكم بخير وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط** ﴾ .

المعنى وأرسلنا إلى مدين أخاهم شعيبا فهو معطوف على ماقبله ، عطف القصة على القصة . وقوله ﴿ **قال ياقوم اعبدوا الله** ﴾ فيه بدء بالأهم فالمهم ، كما هو عادة الرسل جميعا ، يبدءون بالدعوة إلى توحيد الله تعالى ، ثم يعقبون بالنهى عن المعاصى السائدة

فى أقوامهم . ولما كان أهل مدين قد تعودوا نقص الكيل والميزان ، نهاهم عليه السلام عن هذه العادة القبيحة . ثم قال لهم : ﴿ **إنى أراكم بخير** ﴾ أى بسعة وغنى ، يغنيكم عن التطفيف ، وكان الأولى بهذه النعم التى أنتم فيها ، والسعة فى الرزق أن تشكروا الله عليها ، لا أن تعصوه بالتطفيف ، وظلم الناس فى معاملتكم لهم بالبيع ، والشراء ، وغير ذلك . وقد تقدم أنهم كانوا أهل شجر وزرع ، فهم فى بحبوحة من العيش ، تغنيهم عن هذا الجشع . ثم خوفهم عليه السلام من العذاب الذى يحيط بهم من كل جانب ، ويهلكهم إن لم يوحدوا الله تعالى ، ويقلعوا عن هذه المفاسد ، ووصف العذاب بالإحاطة دليل المبالغة والشدة فوصف الإحاطة فى الحقيقة للعذاب وإنما وصف به اليوم لأنه ظرف له .

النص الثالث : من سورة العنكبوت :

وهو قوله تعالى : ﴿ **وإلى مدين أخاهم شعيبا فقال ياقوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر ولا تعثوا فى الأرض مفسدين** ﴾ . والجملة كما تقدم معطوفة بالواو على جملة سابقة . وقوله : ﴿ **فقال ياقوم اعبدوا الله** ﴾ فى العطف بالفاء ، وهى دالة على الترتيب والتعقيب ، دليل على أنه عليه السلام عقيب إرساله مباشرة بادر بدعوة قومه إلى التوحيد . وقوله ﴿ **وارجوا اليوم الآخر** ﴾ إما بمعنى خافوا على حد قوله تعالى : ﴿ **فمن كان يرجوا لقاء ربه** ﴾ . [الآية ١١٠ : الكهف] . أى يخاف لقاء ربه .

ويكون المعنى وحدوا الله ، وخافوا عقابه يوم القيامة ، إن أشركتم معه غيره فى العبادة . وإما أن يكون المعنى افعلوا ماترجون به الثواب فى العاقبة ومهما يكن فهو أيضا دعوة لهم إلى الإيمان بالله تعالى وباليوم الآخر . وقوله : ﴿ **ولا تعثوا فى الأرض مفسدين** ﴾ نهى لهم أيضا عن الفساد فى الأرض ، والبغى على عباد الله فيها . قال ابن كثير فى تفسيرها : (نهاهم عن العيث فى الأرض بالفساد وهو السعى فيها والبغى على أهلها وذلك أنهم كانوا ينقصون المكيال والميزان ويقطعون الطريق على الناس) اهـ . كلام ابن كثير .

دعوة إبراهيم عليه السلام

ورد فى دعوة الخليل إبراهيم عليه السلام ومناقشته قومه فى أمر التوحيد كثير من آيات القرآن الكريم منها :

١ – قوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ [الآية ٢٥٨ : البقرة] .

٢ – قوله تعالى : ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة إنى أراك وقومك فى ضلال مبين وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين * فلما جَنّ عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين * فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين * فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال ياقوم إنى برىء مما تشركون * إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين ﴾ [الآيات من ٧٤ – ٧٩ : الأنعام] .

٣ – قوله تعالى : ﴿ واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا * إذ قال لأبيه يأبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا ﴾ إلى قوله ﴿ .. فتكون للشيطان ولياً ﴾ [الآيات من ٤١ – ٤٥ : مريم] .

٤ – قوله تعالى : ﴿ ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين * إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون * قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين * قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين * قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين * قال بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين * وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين * فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون * قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين * قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم * قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون * قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم * قال بل فعله كبيرهم هذا فسئلوهُم إن كانوا ينطقون * فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون * ثم نكسوا على رءوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون * قال أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئا ولا يضركم * أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ﴾ [الآيات من ٥١ – ٦٧ من سورة الأنبياء] .

٥ – قوله تعالى : ﴿ واتل عليهم نبأ إبراهيم إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون * قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين * قال هل يسمعونكم إذ تدعون * أو ينفعونكم أو

يضرون * قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون * قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون * أنتم وآباؤكم الأقدمون فإنهم عدوّ لى إلا رب العالمين * الذى خلقنى فهو يهدين * والذى هو يطعمنى ويسقين * وإذا مرضت فهو يشفين * والذى يميتنى ثم يحيين * والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين ﴾ [الآيات من ٦٩ - ٨٢ : الشعراء] .

٦ - قوله تعالى : **﴿ وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون * إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون ﴾** [الآيتان ١٦ ، ١٧ : العنكبوت] .

٧ - قوله تعالى : **﴿ وإن من شيعته لإبراهيم إذ جاء ربه بقلب سليم * إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون * أئفكا آلهة دون الله تريدون * فما ظنكم برب العالمين * فنظر نظرة فى النجوم * فقال إنى سقيم * فتولوا عنه مدبرين * فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون * مالكم لا تنطقون * فراغ عليهم ضربا باليمين * فأقبلوا إليه يزفّون * قال أتعبدون ماتنحتون * والله خلقكم وما تعملون ﴾ .**

[الآيات من ٨٣ - ٩٦ : الصافات] .

٨ - قوله تعالى : **﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إننى براء مما تعبدون * إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين * وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون ﴾**

[الآيات ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ : الزخرف] .

من هذه النصوص الكثيرة التى تعرضت لدعوة الخليل (عليه السلام) قومه إلى توحيد الله تعالى يتضح لنا أنه عليه السلام نشأ فى قوم يعبدون الأصنام ، فى ظل ملك يدعى الألوهية ، وأب يتزعم قومه فى باطلهم بل ويصنع لهم هذه التماثيل ، التى يعبدونها من دون الله . وقد آتى الله تعالى خليله إبراهيم رشده منذ شبابه ، وهداه إلى الملة الحنيفية السمحة ، وبعثه هاديا وداعيا إلى الله ، ومحذرا من عبادة هذه الأصنام ، التى لا تغنى عابديها من الله شيئاً ، وكان عليه السلام واضح الحجة ، ناصع البيان ، ساطع البرهان ، فى جداله ونقاشه ، حتى أفحم الجميع ، وألزم الخصم بالمنطق والدليل ، وكان فى ذلك طويل النفس ، هادئا فى نقاشه ، يرخى لخصمه العنان ، ويوافقه فى زعمه الباطل ، ويصبر عليه ، ثم يكر بالحجة الدامغة على باطله فيدمغه ، ويظهر الحق واضحا جليا لكل ذى عينين بادئا فى هذا الجدال بأبيه ، فقد دعاه إلى الله ، وترك عبادة الأصنام

بأسلوب حكيم ، فيه الحجة الناصعة ، مع الأدب والاحترام ومراعاة حق الأبوة ، بما لا يخل بالواجب فى النصح لله رب العالمين . ثم عقب بمجادلة قومه وأقاربه ثم بالناس أجمعين ثم بالملك الطاغية الذى أعماه الغرور بالملك فادّعى الألوهية كذبا وزوراً . فقد واجهه الخليل (عليه السلام) بحقيقة أمره ، وأنه ماهو إلا عبد مربوب لله رب العالمين عاجز عن صفات الألوهية ، عار عن صفات الربوبية ، ولم يخش الخليل بطشه ، ولا جبروته ، بل واجهه بالحقيقة ، ودعاه إلى عبادة الله ، والتخلى عن غروره وزعمه الباطل ، وناقشه فى ذلك بالحجة ، وقارعه بالدليل ، حتى أفحمه ، وتركه مبهوتا متحيراً . وكان من شجاعة الخليل (عليه السلام) فى الحق بعد أن وجد أن الجدال والكلام لا يجدى فى قوم درجوا على الباطل ، ومرنوا على الفساد . أن قطع دابر الفتنة بالعمل ، لا بالقول ، فكسر أصنامهم ، وحطمها ، مع علمه التام بأن ذلك سوف يثير حفيظتهم ، ويظهر كوامن حقدهم وحنقهم . ولكن ذلك لا يعنيه مادام فى سبيل الحق ، ومادام بأمر الله تعالى ، وقد كان ذلك فنجاه الله من شرهم ، وحفظه من كيدهم . هذا ما يمكن أن يفهم من هذه النصوص إجمالا وإليك معناها على التفصيل :

النص الأول : من سورة البقرة

وهو قوله تعالى : ﴿ **ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك ، إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت . قال إبراهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين** ﴾ . الاستفهام فى هذه الآية الكريمة للتعجب من حال هذا الكافر المغرور الذى جادل إبراهيم فى شأن خالقه ، و﴿ **تر** ﴾ هنا يمكن أن تكون علمية فيكون المعنى ألم تعلم أيها المخاطب ؟ ويمكن أن تكون بصرية على أن هذه القصة من الظهور والوضوح بحيث جعلت كالمرئية المشاهدة بالبصر . والمراد بهذا المجادل ، كما يقول بعض المفسرين . هو نمروذ بن كنعان ملك بابل الذى كان معاصر لإبراهيم (عليه السلام) .

وإعراض القرآن الكريم عن التصريح باسمه إشارة إلى مهانته وحقارته ولأن القرآن لا يهمه الأشخاص ، وإنما يعنى بالأحداث ، وما فيها من عظات وتوجيهات . وأطلق القرآن الكريم على هذا الحوار من جانب هذا الطاغية محاجة مع أنه فى الواقع مجادلة بالباطل . من قبيل المشاكلة اللفظية أو هى محاجة فى نظره السقيم . والضمير فى قوله ﴿ **فى ربه** ﴾ يعود إلى إبراهيم (عليه السلام) وفى ذلك إيذان من أول الأمر بأن الله

تعالى مؤيد وناصر لرسوله إبراهيم (عليه السلام) . ويمكن أن يكون الضمير عائدا إلى هذا الطاغية ؛ فإن الله تعالى ربه أيضا . وإن لم يكن هو معترف بذلك .

وقوله : ﴿ **أن آتاه الله الملك** ﴾ إشارة إلى سبب كفره وطغيانه ، وادعائه الألوهية . « فأن » ومادخلت عليه فى تأويل المصدر مفعول لأجله ، وحرف الجر محذوف ، والتقدير قال ما قال لأجل إيتاء الله إياه الملك . وقوله : ﴿ **إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت** ﴾ أى إن الله تعالى هو الذى يهب الحياة لكل الأحياء ويقضى بالموت والفناء على كل حى . والعبارة فيها قصر بطريق تعريف الطرفين ، فكأنه قال : ربى وحده هو المختص بذلك ، القادر عليه ، فلا يشاركه فيه مخلوق كائنا من كان . ومادام كذلك فهو وحده المستحق للعبادة فلا ينبغى أن يشاركه فيها مخلوق كائنا من كان . وقد أتى بالعبارة بصيغة المضارع ليفيد التجدد والحدوث باستمرار فإن الإحياء والإماتة أمر متكرر متجدد يشاهده الناس فى كل عصر وحين . وقوله تعالى : ﴿ **قال أنا أحيى وأميت** ﴾ جواب هذا المغرور للرد على ماقاله إبراهيم . وإذا كنت تزعم ياإبراهيم أن إلهك يحيى ويميت ، وهو يستحق العبادة لذلك ، فإنى أعارضك وأقول لك إننى أنا أيضا أحيى وأميت فأنا أستحق العبادة مثله ، وقد زين له شيطانه ، وخيل إليه غروره أنه يعفو عمن حكم بقتله ، ويطلقه فيكون قد أحياه ، ويأتى ببرىء فيقتله ، وبذلك يكون قد أماته .

وقد كان يمكن لإبراهيم عليه السلام أن يبين له أن ذلك ليس من الإحياء والإماتة التى يُحَاجّ فى شأنها بل المقصود من الإحياء إنشاء الحياة ، ومن الإماتة إنشاء الموت .

ولكنه عليه السلام آثر أن يترك هذا وينتقل إلى حجة أخرى تفحم هذا الخصم ، وتدل على ضعفه ، وعدم اتصافه بشىء من صفات الألوهية الحقة ، بما لا يدع مجالا للشك . فقال عليه السلام له ما حكاه القرآن الكريم بقوله : ﴿ **قال إبراهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب** ﴾ أى إذا سلمنا جدلا أن لك قدرة على الإحياء والإماتة ، فمن المعلوم المشاهد للناس أجمعين . أن الله يأتى بالشمس من جهة المشرق ، حتى تغيب آخر النهار ، فى جهة المغرب . فأت بها أنت على عكس ذلك ، ولو مرة واحدة ، إن كانت لديك قدرة تستطيع أن تفعل بها شيئا كما تزعم . فلم يملك هذا الطاغية أمام هذه الحجة القويّة التى واجهه بها إبراهيم إلا أن يندهش ، ويتحير ، وتنقطع حجته ، ويسلم فى ذلة وهوان . ثم ذيلت الآية الكريمة بقوله : ﴿ **والله لا يهدى القوم الظالمين** ﴾ أى لا يهديهم إلى الحق ولا يلهمهم الحجة والبرهان بسبب ظلمهم وطغيانهم وافترائهم على الله .

النص الثانى : من سورة الأنعام :

وهو قوله تعالى : ﴿ **وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة إنى أراك وقومك فى ضلال مبين . وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين . فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال ياقوم إنى برىء مما تشركون . إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين** ﴾ . قوله : ﴿ **وإذ قال إبراهيم لآبيه آزر** ﴾ (إذ) ظرف زمان والتقدير اذكر يامحمد ، وذكّر قومك ، وقت أن قال إبراهيم كذا وكذا . وآزر هو اسم أو لقب لوالد إبراهيم . وقد قال بعض الشيعة إن آزر عم إبراهيم أو جده . ويطلق على العم والجد أب مجازاً . وقد بنوا ذلك على زعمهم أن آباء الأنبياء لا يصح أن يكونوا كفاراً . ولكن يرد على هؤلاء الشيعة بأن حمل الآية على الحقيقة أولى من جملها على المجاز خاصة وأن حملها على المجاز لم يرد به نقل ثابت . وقوله : ﴿ **أتتّخذ أصناما آلهة** ﴾ الاستفهام فيه إنكارى والتعبير بأتّخذ – وهو افتعال من الأخذ – فيه إشارة إلى أن صنيعهم هذا أمر ما ينبغى أن يكون ، وليس هو قائم على أساس ، ضرورة أن هذه الأصنام ليس لها من صفات الألوهية أدنى شىء ، وفيه تعريض بسخافة عقولهم .

وقوله : ﴿ **إنى أراك وقومك فى ضلال مبين** ﴾ يمكن أن تكون الرؤية فيه بصرية ويكون المعنى أن ضلال هؤلاء القوم لوضوحه وظهوره أصبح كالمرئى المشاهد بالعين . ويؤيده وصف الضلال بالمبين . ويمكن أن تكون الرؤية علمية فتكون ﴿ **فى ضلال مبين** ﴾ فى موضع المفعول الثانى . وقد اتبع الخليل (عليه السلام) فى هذا أسلوب الداعية الحكيم الذى يبدأ بأهله وأقاربه أولا ثم بالناس ثانيا فها هو عليه السلام ينكر هذا العمل على أبيه أولا ثم على قومه ثانيا . وذلك أجدى وأنفع فى الدعوة .

وقوله تعالى : ﴿ **وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين** ﴾ . معناه كما أرينا إبراهيم الحق فى خلاف ما عليه أبوه وقومه من الشرك ، وعبادة الأصنام ، نريه أيضا مظاهر ربوبيتنا ، ومالكيتنا للسموات والأرض ، ونطلعه على حقائقها ؛ ليزداد إيماناً ؛ وليكون من الموقنين أنه على الحق ، وأن مخالفيه على الباطل : والمراد بالرؤية هنا الانكشاف فتشمل المبصرات والمعقولات التى يستدل بها على

الحق . وقوله تعالى : ﴿ **فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى .. الخ** ﴾ أى أظلم عليه الليل وستره بظلامه رأى كوكبا طالعا فقال هذا ربى . وكان هذا القول من إبراهيم عليه السلام على سبيل الفرض وإرخاء العنان للخصم – وليس على سبيل الاعتراف والاعتقاد – حاشاه عن ذلك – وقد سبق أن قلنا إنه (عليه لسلام) كان فى نقاشه لقومه طويل النفس ، هادىء الأسلوب يرخى العنان لخصمه ، ويجاريه فى زعمه ، من قبيل الفرض الجدلى ، حتى يصغى الخصم للمناقشة تمام الإصغاء ، ثم يكرّ (عليه السلام) على هذا الافتراض الجدلى فيفنده بالحجة الواضحة ، والبرهان الساطع ، حتى يدحض هذا الباطل ، ويزهقه تماما . فقد قال هذا القول مجاراة لعباد الأصنام ، والكواكب ، حتى يصغوا إلى حديثه ، ثم كرّ على هذا الباطل ، وأثبت لهم أن هذا الكوكب غير ثابت الوجود ، بل هو متغير ومنتقل ، والرب الحقيقى لابد أن يكون ثابت الوجود فلا يتغير ولا يتنقل . فلا يصلح إذا هذا الكوكب أن يعبد من دون الله .

وقوله : ﴿ **فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى .. الخ** ﴾ حالة ثانية : انتقل إليها إبراهيم فى التدليل على وحدانية الله تعالى واستحقاقه العبادة وحده وإبطال عبادة الأصنام والكوكب فإن هذا القمر أيضا طلع ثم غاب ، فلم يثبت على حالة واحدة ، فهو كغيره من الكواكب متغير ومتنقل ، وهذا دليل الحدوث وعدم الثبات ، فهو بالتالى لا يصلح إلها يعبد . وفى قوله (عليه السلام) مسمعاً قومه من حوله : ﴿ **لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين** ﴾ تنبيه لهم أن هناك ربا حقيقيا غير هذه الكواكب هو الإله الحق الذى يجب أن يفرد بالعبادة وأن هذه الكواكب لا تستحق العبادة فى شىء لأنها ليست لها من صفات الألوهية أدنى شىء . وفيه أيضا تعريض بضلال هؤلاء القوم فى عبادتهم لهذه الكواكب . وقوله : ﴿ **فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر .. الخ** ﴾ حالة ثالثة : انتقل إليها الخليل أيضاً فى محاجة قومه ، للتدليل على وحدانية الله تعالى واستحقاقه للعبادة وحده ، دون سواه من الكواكب والأصنام وسائر المخلوقات .

وفى قوله ﴿ **هذا أكبر** ﴾ مبالغة عظيمة فى إرخاء العنان للخصم ومجاراته فى زعمه حتى يصغى تمام الإصغاء إلى ما سوف يلقى إليه من الحجة البالغة والبرهان العظيم الذى يبطل كل هذه الإفتراضات الباطلة ، التى سلمها لهم إبراهيم جدلا . وقوله ﴿ **فلما أفلت** ﴾ أى غابت – ﴿ **قال ياقوم إنى برىء مما تشركون** ﴾ مجاهرة منه (عليه السلام) بالنتيجة النهائية التى يريد أن يصل إليها فى محاجته لقومه . وهى البراءة الصريحة من عبادة هذه الأجرام المتغيرة الحادثة ، التى يعتريها الأفول والتغيب ، وتقريع لهم على هذا الشرك ،

الذى لا يقوم على حجة ، ولا يستند إلى برهان . ثم يختم (عليه السلام) هذه المحاجة فى الاستدلال على وحدانية الله تعالى ووجوب إفراده بالعبادة بقوله : ﴿ **إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين** ﴾ أى إنى توجهت إلى الله تعالى بكليتى ، فلا أعبد إلا إياه ، ولا أدعو إلا إياه ، ولا أطلب حوائجى إلا منه ؛ لأنه المستحق لذلك ؛ ولأنه هو الذى خلق السموات والأرض ، وأبدع هذا الكون على غير مثال سابق . وما أنا من الذين يشركون معه (تعالى) آلهة أخرى ، فى الاعتقاد أو الأقوال أو عمل الجوارح . وبذا يكون (عليه السلام) قد أقام الحجج والبراهين على وحدانية الله تعالى وأبطل عبادة الأصنام ، وسائر المعبودات الباطلة . وسفّه أحلام عابديها .

النص الثالث : من سورة مريم :

وهو قوله تعالى : ﴿ **واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا . إذ قال لأبيه ياأبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً . يا أبت إنى قد جاءنى من العلم مالم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سويا . يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا . ياأبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا** ﴾ .

فى سوق هذه القصة تسلية للنبى محمد ﷺ . وهى معطوفة على قصة زكريا (عليه السلام) فى أول السورة فى قوله تعالى : ﴿ **ذكر رحمة ربك عبده زكريا ...** ﴾
[من الآية ٢ : مريم]

والمعنى اذكر يامحمد وذكّر غيرك بقصة إبراهيم ، وقت أن قال لأبيه كذا وكذا .

ومعنى كونه (عليه السلام) ﴿ **صدّيقاً** ﴾ أى صادقا مبالغا فى الصدق ، فى كل ما يقول ، وهذا هو شأن الأنبياء جميعاً ، وكعادة إبراهيم (عليه السلام) فى طول النَّفس فى المحاجّة وهدوء النفس مما يجبر سامعه على الإصغاء حتى يقذف إبراهيم فى وجهه بالحجة الدامغة التى لا يستطيع ردها ، فلا يسعه إلا التسليم للحق والاعتراف به .

فقد سلك هذا المسلك مع خصمه هذا . خاصة وأنه هو والده ، وأحب الناس إليه ، وأحرص الخلق على هدايته ، فقد تدرج معه فى الدعوة من مرحلة إلى أخرى مع غاية التلطف ومراعاة الأدب ، وحق الأبوة . فناداه أولا بقوله ﴿ **يا أبت لم تعبد ما لايسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً** ﴾ سؤال فيه إنكار وتعجب من حاله إذ كيف

يعبد أصناما ليس لها من صفات الألوهية والربوبية شيء ، فهى لا تسمعه إذا دعاها ، وطلب منها حوائجه ، ولا تبصره حين يضرع إليها ، ويخشع عندها ، ولا تدفع عنه ، ولا عن نفسها شيئا من ضرر يقع عليه ، أو عليها . لا فى الدنيا ، ولا فى الآخرة ، فهى بهذا لا تستحق العبادة ، ومادام الأمر كذلك فوجب عليك ياأبت أن تبادر بنبذ عبادتها ، وأن تعبد الله وحده ، السميع البصير الضار النافع . ثم ناداه ثانيا بقوله : ﴿ **يا أبت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سويا** ﴾ . وفى هذا النداء دعوة لأبيه إلى اتباعه فيما يدعوه إليه من عبادة الله وحده وطرح عبادة الأصنام ، وهى دعوة فى غاية اللطف والإحسان . مُصدَّرة بقوله : ﴿ **ياأبت** ﴾ الدالة على غاية الشفقة والتقرب إليه . وفيها وصف نفسه بشىء من العلم فلم يزعم العلم الفائق ، ولم يصف أباه بالجهل المطبق ، بل بين له أن الله تعالى أعطاه علماً ينير له الطريق وهذا العلم لم يأتك أنت يا أبت ويقصد بهذا العلم : الوحى ثم دعاه إلى اتباعه فيما يدعوه إليه من التوحيد ، وبين له ثمرة ذلك ، وهو الهداية إلى الطريق السوى ، والصراط المستقيم .

ثم ناداه ثالثا بقوله : ﴿ **يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا** ﴾ نهى لأبيه مع التلطف أيضا عن طاعة الشيطان ، وبيان أن عبادة غير الله هى من وسوسة الشيطان ، وتزيينه ، ومعلوم أن الشيطان عدو للإنسان ، عاص للرحمن ، فلا تنبغى طاعته . ثم ناداه رابعا بقوله : ﴿ **يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا** ﴾ ، تحذير وتخويف لأبيه من سوء عاقبة الشرك ، ولكن مع الأدب ، ومراعاة حق الأبوة أيضا ، حيث لم يصرح (عليه السلام) بأن العذاب واقع بأبيه لاحق به بل قال : ﴿ **إنى أخاف أن يمسك .. الخ** ﴾ . وقد نكّر كلمة ﴿ **عذاب** ﴾ إشارة للتقليل ، وكأنه قال أخاف أن يمسك شىء من عذاب الله ولو قليل ، وذلك إظهار لشدة خوفه على أبيه ، ومزيد شفقته عليه ، أن يمسه ولو قليل من عذاب الله ، لذلك يحرص على دعوته إلى التوحيد ، حتى ينجو من كل عذاب ، ومعنى قوله فتكون للشيطان وليا أى قرينا فى العذاب يوم القيامة .

النص الرابع : من سورة الأنبياء :

وهو قوله تعالى : ﴿ **ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين . إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون . قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين . قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين . قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين .**

قال بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين . وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين . فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين . قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون . قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يإبراهيم قال بل فعله كبيرهم هذا فسئلوهم إن كانوا ينطقون . فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون . ثم نكسوا على رءوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون . قال أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئا ولا يضركم . أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ﴾ . صدِّر هذا النص الكريم باللام الموطئة للقسم ، والتقدير – والله لقد آتينا .. الخ – والرشد هنا بمعنى الهدى أى الاهتداء لوجوه الصلاح فى الدين والدنيا ، والاقتدار على إصلاح الأمة ، فقد خلقه فيه ذلك وهيأناه له قبل ابتعاثه ، وذلك ما يؤيده قول الله تعالى : ﴿ **الله أعلم حيث يجعل رسالته** ﴾ . [من الآية ١٢٤ : الأنعام] .

فقد خلق الله تعالى الرسل مهيئين لذلك وصانهم من الشرك والفساد ، حتى قبل إرسالهم . وكنا به عالمين أى عالمين باستحقاقه لذلك . ثم بين الله تعالى بعد ذلك دعوة إبراهيم (عليه السلام) لأبيه وقومه إلى التوحيد ، وإنكاره عليهم عبادة الأصنام بقوله ﴿ **ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون** ﴾ وفى سؤاله عن أصنامهم بـ (ما) التى يسأل بها عن حقيقة الشىء تحقير لهذه الأصنام وتجاهل لحقيقتها ، كأنه يسأل أى شىء هى ؟ مع علمه بحقيقتها ، ومن أى شىء صنعت ؟ ولكنه (عليه السلام) تجاهل ذلك وكأنه يقول : لا علم لى بحقيقتها فكيف أعلم استحقاقها للعبادة من دون الله ؟..

ولما لم يجدوا دليلا ولا برهانا على استحقاقها للعبادة لجأوا إلى التقليد فقالوا : إنا ﴿ **وجدنا آباءنا لها عابدين** ﴾ فرد عليهم بقوله ليس حالكم أقل سوءاً من حال من قلدتموهم فكل من المقلد والمقلد فى ضلال مبين ، إذ ليس لأحد منكم ولا منهم دليل على استحقاق هذه الأصنام للعبادة ، ولكنهم استعظموا من إبراهيم هذا الإنكار عليهم وعلى آبائهم ، واستبعدوا أن يكونوا هم وآباؤهم على ضلال طول هذه المدة فقالوا له : ﴿ أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين ﴾ أى أجاد فى كلامك هذا أم هازل ؟ فأضرب عنهم (عليه السلام) ببل ، وأخبرهم أنه جاد غير لاعب . مثبتا لهم ربوبية الواحد الديان ، وحدوث هذه الأصنام ، فقال : ﴿ **بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن وأنا على ذلكم**

من الشاهدين ﴾ . والضمير المنصوب فى (فطرهن) قيل راجع إلى السموات والأرض . وقيل راجع إلى هذه التماثيل التى عبدوها من دون الله ، وهذا الأخير أدخل فى تضليلهم ، وإقامة الحجة عليهم ؛ لأن فيه تصريحا بأن معبوداتهم من جملة مخلوقاته تعالى فلا يصح إشراكها معه فى العبادة . ولما رأى (عليه السلام) أن هذه المحاجة اللفظية وإقامة الحجج بالكلام غير مجدية مع هؤلاء القوم عزم على أن يلقنهم درساً عملياً ، ويقيم عليهم الحجة بالعمل ، لا بالكلام . فقال : ﴿ **وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين** ﴾ . أى لأجتهدن فى تكسيرها بعد أن تذهبوا إلى عيدكم وفى الإتيان بالتاء معنى التعجب من تسهيل الكيد على يده مع صعوبته ؛ لقوة سلطان نمروذ وحرصه على هذه الآلهة . والكيد فيه معنى الاحتيال . وقد احتال (عليه السلام) فى الوصول إلى بيت الأصنام ، حتى قال لهم لما طلبوا منه الخروج معهم إلى عيدهم ﴿ **إنى سقيم** ﴾ فلما وصل إليها قام بتحطيمها ولم يبق إلا على كبيرها ، معلقا الفأس فى عنقه ، لعلهم يرجعون إليه فيسألونه عن الذى كسرها ، فلا يجيبهم ، فيكون فى ذلك حجة لإبراهيم عليهم ، إذ هذا الصنم الأكبر إذا عجز عن حماية الأصنام الصغرى من التكسير ، وعجز عن الإخبار عمن فعل بها هذا ، فهو لا شك عاجز فكيف يستحق العبادة . ويصح أن يكون المعنى لعلهم يرجعون إلى إبراهيم ؛ ليحاجهم فى ذلك . أو لعلهم يرجعون إلى الله فيعبدونه وحده ، بعد أن عرفوا عجز هذه الأصنام ، وعدم استحقاقها للعبادة .

حكى الله تعالى ذلك بقوله : ﴿ **فجعلهم جذاذاً إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون** ﴾ . فلما عاد هؤلاء الكفار من عيدهم ، ودخلوا بيت الآلهة فوجدوها محطمة . قالوا : ﴿ **من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين** ﴾ إنه لشديد الجرأة على هذه الآلهة التى هى فى نظرهم جديرة بالاحترام والتوقير . ﴿ **قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم** ﴾ أى قال من سمعه منهم يحلف على تكسيرها . ﴿ **قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون** ﴾ أى قال نمروذ وأشراف القوم أحضروا إبراهيم على ملأ من الناس لعلهم يشهدون شدة عقابنا له ، أو لعلهم يشهدون إقامة الحجة عليه ، وإدانته بتكسير الآلهة . وكان ذلك هو مطلوب إبراهيم ؛ ليقيم الحجة عليهم بأنهم عبدوا مالا يملك الدفاع عن نفسه ، فهو فى غاية الذلة والمهانة ، فكيف يعبد من دون الله ؟ فلما حضر (عليه السلام) هذا الجمع الكبير قالوا له : ﴿ **أأنت فعلت هذا بآلهتنا يٰإبراهيم ، قال : بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون** ﴾ . وبهذا يكون (عليه السلام) قد أثبت التكسير

لنفسه ، ونفاه عن الصنم ، ولكن على طريق التبكيت والتعريض لانه من المعلوم أن هذا التكسير دائر بين اثنين أحدهما عاجز وهو الصنم ، والآخر قادر وهو إبراهيم وإذا دار الأمر بين اثنين عاجز وقادر ثم أسند إلى العاجز على طريق التهكم لزم منه انحصاره فى القادر . والحاصل أن إبراهيم أثبت الفعل لنفسه ، على الوجه الأبلغ ، متضمنا فيه الاستهزاء والتضليل . فليس هو فى هذا الجواب كاذبا . وليس هناك ما يدعوه إلى الكذب فليس هو خائفاً على نفسه من عقابهم لأنه واثق بإنجاء الله تعالى له من كيدهم ، غاية الأمر أنه أراد أن يضع أيديهم على عجز آلهتهم ، وعدم استحقاقها للعبادة ، بدليل قوله فاسألوهم إن كانوا ينطقون ؛ ليوجه أنظارهم أمام هذا الجمع الكبير إلى أن أصنامهم لا تستطيع حتى أن تنطق ، فتخبرهم بما وقع لها ، فكيف تكون آلهة تعبد من دون الله ؟. وكأن القوم لقيام الحجة ونصاعة الدليل قد رجعوا إلى عقولهم ، وثابوا إلى رشدهم ، فعلموا أنهم على الباطل ، وأن دعوة إبراهيم هى الحق ، فقال بعضهم لبعض ﴿ **إنكم أنتم الظالمون** ﴾ لعبادتكم لهذه المخلوقات العاجزة وليس إبراهيم هو الظالم فى تكسيرها . ولكن سرعان ما رجعوا عن هذا الحق وانتكسوا فعادوا إلى الشقاوة والمجادلة بالباطل . قال (تعالى) حكاية عنهم ﴿ **ثم نكسوا على رءوسهم** ﴾ .

قال النسفى عند هاتين الآيتين : ﴿ **فرجعوا إلى أنفسهم** ﴾ فرجعوا إلى عقولهم وتفكروا بقلوبهم لما أخذ بمخالفتهم ﴿ **فقالوا إنكم أنتم الظالمون** ﴾ على الحقيقة بعبادة مالا ينطق ، لا من ظلمتموه حين قلتم من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين ؟. فإن من لا يدفع عن رأسه الفأس كيف يدفع عن عابديه البأس ، ﴿ **ثم نكسوا على رءوسهم** ﴾ .

قال أهل التفسير : أجرى الله تعالى الحق على لسانهم فى القول الأول ، ثم أدركتهم الشقاوة : أى ردوا إلى الكفر ، بعد أن أقروا على أنفسهم بالظلم ، يقال نكسته : قلبته فجعلت أسفله أعلاه . أى استقاموا حين رجعوا إلى أنفسهم ، وجاءوا بالفكرة الصالحة ، ثم انقلبوا عن تلك الحالة ، فأخذوا فى المجادلة بالباطل والمكابرة فقالوا﴿ **لقد علمت ما هؤلاء ينطقون** ﴾ فكيف تأمرنا بسؤالها) اهـ كلام النسفى .

ولما رأى إبراهيم (عليه السلام) رجوعهم عن الحق ، الذى نطقوا به إلى الباطل الذى دأبوا عليه . قال محتجا عليهم ، ومنكرا عليهم ، ومتضجرا من حالهم ، متهما إياهم بعدم العقل والتفكير . ﴿ **أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئا** ﴾ إن عبدتموه ، ويعنى بذلك الأصنام ﴿ **ولا يضركم** ﴾ أى شيئا إن تركتم عبادته ﴿ **أف لكم ولما**

تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ﴾ وكلمة (أف) اسم صوت ، إذا صوّت به دل على تضجر صاحبه مما يرى ويشاهد ومعنى ﴿ **أفلا تعقلون** ﴾ أى أليس عندكم عقل ، تدركون به أن هذه الأصنام لا تستحق العبادة لعجزها . وأن الذي يستحق العبادة وحده هو الله الواحد القهار .

النص الخامس : من سورة الشعراء :

وهو قوله تعالى : ﴿ **واتل عليهم نبأ إبراهيم إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون . قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين . قال هل يسمعونكم إذ تدعون . أو ينفعونكم أو يضرون . قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون . قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون . أنتم وآباؤكم الأقدمون . فإنهم عدوّ لى إلا رب العالمين . الذي خلقنى فهو يهدين . والذى هو يطعمني ويسقين . وإذا مرضت فهو يشفين . والذي يميتني ثم يحيين والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **واتل عليهم نبأ إبراهيم** ﴾ الخطاب للنبى محمد ﷺ والضمير فى « عليهم » راجع إلى أهل مكة ، أو المخاطبين فى عصر نزول القرآن ، ومابعده إلى يوم القيامة ، ونبأ إبراهيم أى خبره وقصته حين قال كذا وكذا . وذلك للعظة والاعتبار .

وقوله تعالى : ﴿ **إذ قال لأبيه وقومه** ﴾ الضمير فى قومه إما عائد إلى إبراهيم أو إلى أبيه ؛ فإن القوم قومهما معا . وقوله : ﴿ **ما تعبدون** ﴾ أى ما حقيقة هذه الأشياء التى تعبدونها و(ما) يسأل بها عن حقيقة الشىء . وهذا السؤال منه (عليه السلام) مع علمه بحقيقة هذه الأصنام من قبيل تجاهل العارف وفيه إشارة إلى حقارة هذه الأصنام وتفاهتها . فكيف تعبد من دون الله ؟.. وقوله تعالى : ﴿ **قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين** ﴾ . كان يكفي فى الجواب أن يقولوا : أصناما كما قال الله تعالى ﴿ **وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً** ﴾ [من الآية ٣٠ : النحل] . ولكنهم زادوا في الجواب كلمة « نعبد » افتخاراً ومباهاة بعبادتها ، كما جاء قولهم ﴿ **فنظل لها عاكفين** ﴾ أي عابدين على الدوام ، على سبيل المفاخرة والمباهاة أيضاً . ولما رأى إبراهيم إصرارهم على الباطل ، ومفاخرتهم به احتج عليهم لإظهار بطلانه بقوله : ﴿ **هل يسمعونكم إذ تدعون** ﴾ أى هل يسمعون دعاءكم إذا دعوتموهم . ﴿ **أو ينفعونكم** ﴾ إذا عبدتموهم ﴿ **أو يضرون** ﴾ أى هل يضرونكم إذا تركتم عبادتهم . وأمام هذه الحجج القوية التى تدل على عجز هذه المخلوقات ، وخلوها عن أى صفة من صفات الألوهية ، أو الربوبية ،

مما يجعلها لا تستحق أى شيء من العبادة ، أو الخضوع له بأى نوع من أنواع العبودية ، لايشك فى ذلك إنسان عنده أدنى شيء من التعقّل والتفكير .

تسليم للحجة وخضوع للبرهان !

أمام هذا الحوار المنطقى الواضح ، لم يسع هؤلاء القوم إلا التسليم للحجة ، والخضوع للبرهان ، فأقروا بأن هذه الأصنام لا تسمع ولا تبصر ولا تضر ولا تنفع ، فقالوا بصيغة الإضراب ﴿ **بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون** ﴾ أى كلاّ ما عبدنا هذه الأصنام من أجل أنها تسمع أو تبصر أو تنفع أو تضر ، وإنما عبدناهم تقليداً لآبائنا ، فليس لدينا برهان يدل على استحقاقها للعبادة وإنما هو التقليد للآباء والأجداد ، فلما صاروا إلى التقليد احتج عليهم إبراهيم بأنهم هم ومن قلدوهم فى ضلال مبين بعيد عن الحق والصواب ، فقال لهم كما قال الله تعالى : ﴿ **قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون فإنهم عدو لى إلا رب العالمين** ﴾ أى إن هذه الأصنام التى عبدتموها أنتم وآباءكم . تأتى يوم القيامة تخاصمنى ، وتعادينى ، وتحاجنى أمام الله – إن عبدتها فى الدنيا .

وهذا على حد قوله تعالى فى شأن الأصنام وعابديها يوم القيامة : ﴿ **كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً** ﴾ . [الآية ٨٢ : من سورة مريم] .

وكان مقتضى الخطاب أن يقول إبراهيم لهؤلاء القوم « أفرأيتم هذه الأصنام فإنها تأتى عدوة لكم يوم القيامة تحاجكم وتخاصمكم أمام الله ، ضرورة أن هؤلاء القوم هم الذين عبدوها فى الدنيا . لا إبراهيم حاشاه عن ذلك . ولكنه سلك معهم أسلوباً أسند فيه عداوة الأصنام لنفسه يوم القيامة ، إن هو عبدها فى الدنيا ، على سبيل الفرض والتقدير ، ليتألفهم بذلك ، ويتلطف معهم فى العبارة حتى يستميل قلوبهم ، بحسن العبارة ؛ طلبا لاستجابتهم لدعوته ، وحرصا على إقبالهم على الإيمان بالله ، وترك عبادة هذه الأصنام .

وقال الفراء : إن العبارة أى قوله : ﴿ **فإنهم عدو لى** ﴾ من المقلوب والأصل – فإنى عدو لهم – أى للأصنام وكان من نتيجة عداءه (عليه السلام) لهذه الأصنام أن حطمها وكسرها ، ليقضى على مصدر الشر ، ويقطع دابر الفتنة . وقوله : ﴿ **إلا رب العالمين** ﴾ الاستثناء فيه منقطع ، والتقدير لكن رب العالمين الذى أعطانى كذا وكذا ليس عدوا لى . ثم أخذ يبين ما أعطاه الله (تعالى) وتفضل به عليه مما استحق به أن يكون من الأحباب ، لا من الأعداء ، وما كان حقيقا به أن يعبد وحده ، ولا يشرك معه غيره . فقال : ﴿ **الذى خلقنى** ﴾ أى أوجدنى من العدم ، على غير مثال سابق ، كما خلق غيرى

من سائر المخلوقات أيضا ، بإيجادها من العدم على غير مثال سابق يحتذيه ، فهو الخلاق العليم . ﴿ **فهو يهدين** ﴾ للمنهج القويم فى الدنيا والآخرة ، وكذلك يهدى كل من قدّر هدايته أزلا . ﴿ **والذى هو يطعمنى ويسقين** ﴾ أى هو المنعم المتفضل بالطعام والشراب الذى يحيى به الإنسان فمهما سعى الإنسان ، وباشر من الأسباب الظاهرة ، فلا يناله إلا ما قدر الله تعالى له . فإنه تعالى هو مصدر العطاء الحقيقى ، ونلاحظ أن الخليل (عليه السلام) قدم الهداية إلى الحق وإلى الطريق المستقيم عن الطعام والشراب ، وهو ما يحيى به الإنسان ؛ لأن الأول به حياة الأرواح والثانى به حياة الأبدان ، وما تحيا به الروح أولى بالتقديم ، قال الشاعر الحكيم :

انهض إلى الروح واستكمل فضائلها فأنت بالروح لا بالجسم إنسان

ثم أخذ الخليل يبين دلائل قدرة الله تعالى ، ويوضح علامات بره وإحسانه فقال : ﴿ **وإذا مرضت فهو يشفين** ﴾ إنه تعالى مالك الضر والنفع ، فيشفى ويمرض : لا كأصنامكم التى لا تملك ضراً ولا نفعاً . ونلاحظ أنه (عليه السلام) فى مقام النفع وهو الشفاء أسند الفعل إلى الله تعالى . وفى مقام الضر ، وهو الأمراض أسند الفعل لنفسه ، مع أن الكل من الله – تأدبا مع خالقه (تعالى) وكراهة أن يسند إليه ما هو ضرّ فى نظرنا . ويمكن أن يحمل على هذا قوله تعالى : ﴿ **ما أصابك من حسنة فمن الله وما أ[illegible]ن سيئة فمن نفسك** ﴾ فيكون الخليل عليه السلام متأدبا بهذا الأدب القرآنى العظيم . ويكون المعنى فى هذه الآية إسناد الحسنة إلى الله على أنه الفاعل الحقيقى ، وإسناد السيئة إلى الإنسان على أساس أنه هو المتسبب فيها .

لماذا أسند الخليل المرض إلى نفسه ؟

هذا وقد قيل فى تعليل إسناد الخليل المرض إلى نفسه ، والشفاء إلى الله ؛ لأنه أراد أن يذكر الله تعالى بلسان الشكر فلا يكون من المناسب أن يسند إليه ما فيه الضر .

وقوله تعالى : ﴿ **والذى يميتنى ثم يحيين** ﴾ أسند الإماتة والإحياء كليهما إلى الله تعالى .

سؤال وجوابه :

ولعل قائلا يقول : كيف يسند الإماتة هنا إلى الله تعالى مع أن فيها ضرا ؟ وهلا قال – وإذا مت – كما قال قبلها – وإذا مرضت ؟ وللإجابة نقول : إن الموت يخرج به المؤمن من سجن الدنيا وشقائها ، إلى سعة الآخرة وسعادتها ، والمؤمن الحقيقى يعلم

أنه بهذا الموت يلقى ربه ، وهو دائم الشوق إليه ، فالموت بالنسبة له نعمة يسر له ، ولا يستاء منه ، ولقد عده القرآن نعمة من النعم التى تفضل الله بها على عباده ، وطلب منهم أن يشكروه عليها .

قال (تعالى) فى سورة الرحمن : ﴿ **كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام** ﴾ . [الآيتان ٢٦ ، ٢٧] .

ثم أردف ذلك بقوله : ﴿ **فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ . [الآية ٢٨] .

وبذلك يكون القرآن الكريم قد اعتبر الموت نعمة من النعم التى ساقها الله فى هذه السورة ، وطلب من الإنس والجن عقيب كل واحدة أن يشكروه عليها .

وقوله ﴿ والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين ﴾ وكأنه (عليه السلام) يقول لهم إن هذا الإله الذى تركتم عبادته ، وعبدتم الأصنام ، هو المرجو للنفع يوم القيامة فهو الذى أطمع أن يغفر لى ما فرط منى فى الدنيا ، فهل أصنامكم هذه التى شهدتم بعجزها فى الدنيا تقدر على شىء من ذلك فى الآخرة ، فكيف ساغ لكم أن تعبدوها ؟ هذا ومن المعلوم أن الأنبياء (عليهم السلام) معصومون من الخطايا ، ومنهم إبراهيم (عليه السلام) ولعله يقصد بخطيئته : ما فرط منه من نحو ترك مستحب ، أو فعل مكروه ، مما هو جائز شرعا ، وإنما سماها خطيئة هضما للنفس ، وحباً للتواضع ، فهو من باب حسنات الأبرار سيئات للمقربين . ومن هذا القبيل قول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ ﴿ **ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر** ﴾ . [الآية ٢ : الفتح] .

وبذلك بطل ما قيل عنه (عليه السلام) إن من خطاياه قوله : ﴿ **إنى سقيم** ﴾ وقوله ﴿ **بل فعله كبيرهم هذا** ﴾ وقوله للكوكب حين بزغ ﴿ **هذا ربى** ﴾ وقوله عن سارة أختى حين سأله الجبار . والحقيقة أن هذه الأشياء ليست كذبا ، وإنما هى معاريض جائزة ، احتاج إليها إبراهيم فى مقام المحاجة ، ومجادلة القوم ، وليست هى خطايا حقيقية .

قال الإمام النسفى عند هذه الآية فى تفسيره ﴿ أن يغفر لى خطيئتى ﴾ قيل هو قوله : ﴿ **إنى سقيم** ﴾ ﴿ **بل فعله كبيرهم** ﴾ ، هذا ربى للبازغ ، هى أختى لسارة .

وما هى إلا معاريض جائزة ، وليست بخطايا يطلب لها الاستغفار ، واستغفار الأنبياء تواضع منهم لربهم ، وهضم لأنفسهم ، وتعليم للأمم فى طلب المغفرة . ا هـ كلام النسفى .

النص السادس : من سورة العنكبوت :

وهو قوله تعالى : ﴿ **وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون** ﴾ .

قوله تعالى : « وإبراهيم » قرىء بالنصب على أنها معطوفة على قوله « نوحا » فى قوله قبلها ﴿ **ولقد أرسلنا نوحا** ﴾ والمعنى ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم . أو على أنها بمفعول لفعل محذوف ، تقديره اذكر . أو أنها معطوفة على الهاء فى « أنجيناه » المتقدم قبلها ، والتقدير : فأنجيناه أى نوحا وإبراهيم ، وقرىء بالرفع على تقدير : ومن المرسلين إبراهيم ، فهى مبتدأ والخبر مقدر مقدم عليها .

قوله تعالى : ﴿ **اعبدوا الله واتقوه** ﴾ أى وحدوه (تعالى) توحيداً خالصاً ، فالأمر الأول إشارة إلى الإثبات أى تحصيل عقيدة التوحيد فى القلب ، وذلك باعتقاد أن الله تعالى واحد فى ذاته وفى صفاته وفى أفعاله . والأمر الثانى إشارة إلى النفى : أى نفى الشريك عن الله تعالى لأن من أشرك مع الله غيره فى العبادة فتوجه إلى غيره استقلالا ، أو مع التوجه إلى الله ، أو باتخاذ غيره على أنه واسطة تقربه إلى الله ، فلا يكون متّقياً ولا خائفا من عقابه تعالى .

وقال بعض المفسرين : إن الأمر الأول إشارة إلى الإتيان بالواجبات : أى فعل المأمورات ، ويدخل فى ذلك الاعتراف بوجود الله ووحدانيته دخولا أولياً .

والأمر الثانى : إشارة إلى ترك المحرمات أى اجتناب المنهيات ، ويدخل فى ذلك الامتناع عن الشرك دخولا أولياً . وقوله تعالى : ﴿ **ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون** ﴾ أى ما تقدم من التوحيد ونفى الشريك خير لكم مما أنتم فيه من الشرك ، وعبادة غير الله أى إن كنتم من أهل العلم والمعرفة فلا تفعلوا ذلك . وقوله تعالى : ﴿ **إنما تعبدون من دون الله أوثاناً وتخلقون إفكا** ﴾ فيه دليل على أن ماهم فيه من عبادة غير الله شر وباطل ، وأن هذه الأصنام لا تضر ولا تنفع ، فعبادتها عبادة لمن لا طائل تحته ، وأن تسميتها آلهة تسمية باطلة ، فهى أسماء مزعومة ليس تحتها مسميات ، فعملهم هذا مجرد اختلاق وإفك . وقوله تعالى : ﴿ **إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق** ﴾ فيه مزيد تدليل على أن هذه الأصنام عاجزة لا تملك أن توصل لعابديها نفعا ، فهى لا ترزقهم ، وفى الآية توجيه لهم أن ينصرفوا عن عبادتها إلى عبادة

الله الواحد الرزاق . وقوله تعالى : ﴿ **واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون** ﴾ . ذكر هذين الأمرين بعد طلب الرزق من الله لأن الأول – وهو عبادة الله – سبب فى إيصاله أى إيصال الرزق . والثانى – وهو الشكر – سبب فى بقائه ، فبالشكر تدوم النعم .

والتذييل بإليه ترجعون فيه تذكير بالجزاء ، إثابة وعقوبة فقضية الرجوع إليه تعالى أن يجازى كل عامل بما عمل : إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

النص السابع : من سورة الصافات :

وهو قوله تعالى : ﴿ **وإنّ من شيعته لإبراهيم إذ جاء ربه بقلب سليم . إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون . أئفكاً آلهة دون الله تريدون . فما ظنكم برب العالمين . فنظر نظرة فى النجوم ، فقال إنى سقيم . فتولوا عنه مدبرين . فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون . مالكم لا تنطقون فراغ عليهم ضربا باليمين . فأقبلوا إليه يزفون قال أتعبدون ما تنحتون . والله خلقكم وماتعملون** ﴾ . قوله تعالى : ﴿ **وإن من شيعته لإبراهيم** ﴾ الضمير فى شيعته عائد إلى نوح (عليه السلام) فقد ذكرت قصته فى هذه السورة قبل قصة إبراهيم مباشرةً ، وذلك بقوله تعالى . ﴿ **ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون** ﴾ إلى آخر القصة . والشيعة فى اللغة معناها : أنصار الرجل وأتباعه ، وكل قوم اجتمعوا على أمر .. كما جاء فى المصباح ، ومعناها هنا أن إبراهيم من شيعة نوح أى شايعه وتابعه فى أصول الدين ، أو فى التصلب ومصابرة المكذبين ، فإن كلا منهما (عليهما السلام) من أولى العزم الذين صبروا على أذى قومهم . وروى عن ابن عباس أى من أهل دينه ، وقيل على منهاجه وسنته ، وكل ذلك صحيح ، فإن الأنبياء جميعاً أبناء علة دينهم واحد ، وشرائعهم مختلفة ، أى أصول الدين التى جاءوا بها جميعا متحدة ، وليس بينهم اختلاف إلا فى الفروع كما تقدم . قوله تعالى : ﴿ **إذ جاء ربه بقلب سليم** ﴾ قال ابن عباس (رضى الله عنهما) يعنى شهادة أن لا إله إلا الله ، وعن الحسن : سليم من الشرك .

وينقل الجمل عن صاحب الفرائد قوله :– (لما كان المقام مقام مدح وجب أن يكون سالما عن كل الآفات ؛ لأن السالم عن البعض يدخل فيه كل القلوب ، لأنه ما من قلب إلا وهو سالم عن البعض) ا هـ . وهو معنى حسن .

ومعنى مجيئه ربه بذلك أى إخلاصه (عليه السلام) قلبه ، وعلم الله ذلك منه فضرب المجىء مثلا لهذا الإخلاص على سبيل الاستعارة . ففى كلمة (جاء) استعارة تصريحية تبعية ، حيث شبه إخلاصه قلبه بمجيئه بتحفة فى أنه فاز بما يستجلب به رضاه .

قوله تعالى : ﴿ **إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون** ﴾ . أى واذكر حال إبراهيم حين قال لأبيه وقومه منكراً عليهم عبادتهم للأصنام ، ماذا تعبدون أى أى شيء تعبدونه ؟ فالاستفهام للإنكار والتوبيخ . وقدم أباه على قومه لأن الداعية إلى الله تعالى ينبغى أن يبدأ بأقرب الناس إليه ، خاصة وأن أباه كان زعيماً من زعماء هؤلاء الكفار ، حتى قيل إنه هو الذى كان يصنع لهم هذه الأصنام ويبيعها لهم .

وقوله : ﴿ **أئفكاً آلهة دون الله تريدون** ﴾ الاستفهام فيه إنكارى ، وهو فى الحقيقة ليس داخلا على إفكاً ، بل على الفعل ، والتقدير : أتريدون أن تعبدوا آلهة دون الله إفكا فتكون إفكا مفعول من أجله أى أتريدون عبادة آلهة دون الله من أجل الإفك والكذب والادعاء الباطل . وقدم المفعول لأجله على المفعول به وهو آلهة لأن المقصود الأهم أن يصف فعلهم بأنه إفك وباطل ، وكلمة دون ظرف متعلق بتريدون .

وقدمت المعمولات كلها على الفعل . وهو تريدون للأهمية ، والذى حسن ذلك وقوعه فاصلة . أى : رأس آية . وقوله ﴿ **فما ظنكم برب العالمين** ﴾ أى ما ظنكم أنه فاعل بكم إذا لقيتموه ، والحال أنكم عبدتم غيره فى الدنيا . هل ظننتم أن يترككم بلا حساب وعقاب ؟ كلا إنه سوف يحاسبكم ويعاقبكم على هذا الشرك أشد العقاب .

قوله تعالى : ﴿ **فنظر نظرة فى النجوم فقال إنى سقيم** ﴾ . أراد إبراهيم (عليه السلام) أن يتخلص من القوم حيث أرادوا منه أن يخرج معهم إلى عيدهم ، وأراد هو أن يتخلف عنهم ؛ ليتمكن مما عزم عليه ، وهو تكسير الأصنام ، فأخذ ينظر إلى السماء ، ويتفكر فيما يلهيهم به ، فقال : ﴿ **إنى سقيم** ﴾ والعرب تقول لمن تفكر وتدبر فى أمره نظر فى النجوم ، وقيل نظر فى علم النجوم ، أو فى كتبها ، وكان القوم أهل نجامة أى : كانوا يتعاطون علم النجوم ، فأراد (عليه السلام) أن يعاملهم من حيث كانوا يتعاطون ؛ لئلا ينكروا عليه فأوهمهم بذلك واعتبر ذلك عذرا لنفسه ؛ لكى يصل إلى غرضه ، بناء على أن هذا العلم كان محظورا . فهو لم يؤمن به ، ولم يعتقده ، ولكنه موّه عليهم به ؛ ليتمكن من غرضه . أو على أن هذا العلم لم يكن محظورا فى عهده وإنما حظر فى شريعة محمد ﷺ . حتى قال ابن عباس : (كان علم النجوم من النبوّة فلما حبس الله الشمس على يوشع بن نون أبطل ذلك ، وكان نظر إبراهيم فيها علما نبوياً .

وحكى ابن جرير عن الضحاك : كان علم النجوم باقيا إلى زمن عيسى (عليه السلام) حتى دخلوا عليه فى موضع لا يطلع عليه منه ، فقالت لهم مريم : من أين

علمتم بموضعه ؟ قالوا : من النجوم فدعا ربه عند ذلك فقال : اللهم لا تفهمهم فى علمها . فلا يعلم على النجوم أحد فصار حكمها فى الشرع محظورا ، وعلمها فى الناس مجهولا) اهـ . من حاشية الجمل على الجلالين عند تفسير هذه الآية .

ووصفه عليه السلام لنفسه بالسقم : إما على معنى إنى سأسقم على حد قوله تعالى : ﴿ **إنك ميت** ﴾ أى ستموت فكل حى عرضة لأن يسقم كما أن كل حى سيموت حتماً . أو على معنى إنى سقيم القلب ؛ لعبادتكم للأصنام . فهو (عليه السلام) كسائر الأنبياء يحرص على هداية قومه ، فتسره طاعتهم ، وتحزنه معصيتهم . أو على معنى أنه حى صائر إلى الموت لا محالة ، ومن كان الموت أمامه فهو سقيم ، ولقد قيل فى رجل مات فجأة : مات وهو صحيح ، فقال أعرابى : أصحيح من الموت فى عنقه ! . أو على معنى إنى مشارف للسقم ؛ وذلك أنه نظر إلى النجم فأوهمهم أنه استدل بأمارة تدل على أنه على وشك أن يمرض وكان غالب أمراضهم الطاعون ، وكانوا يفرون منه ، فأوهمهم ذلك ليفروا عنه ، ويخلو هو بأصنامهم . وهو (عليه السلام) فى كل هذا صادق غير كاذب فكل ذلك من قبيل المعاريض الجائزة للوصول إلى مصلحة شرعية .

قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية : (فأما الحديث الذى رواه ابن جرير ههنا حدثنا أبو كريب حدثنا أبو أسامة حدثنى هشام عن محمد عن أبى هريرة (رضى الله عنه) أن رسول الله ﷺ قال : « **لم يكذب إبراهيم (عليه الصلاة والسلام) غير ثلاث كذبات : ثنتين فى ذات الله تعالى قوله (إنى سقيم) وقوله (بل فعله كبيرهم هذا) وقوله فى سارة : هى أختى** » فهو حديث مخرّج فى الصحاح والسنن من طرق ، ولكن ليس هذا من باب الكذب الحقيقى الذى يذم فاعله ، حاشا وكلا ولما ، وإنما أطلق الكذب على هذا تجوزا ، وإنما هو من المعاريض فى الكلام ؛ لقصد شرعى دينى ، كما جاء فى الحديث « **إن فى المعاريض لمندوحة عن الكذب** ») اهـ . كلام ابن كثير .

من المعاريض التى استعملت :

هذا ومن المعاريض التى استعملها نبينا محمد ﷺ لمصلحة شرعية ، ما رواه ابن إسحاق (أنه عليه الصلاة والسلام خرج هو وأبو بكر قبيل غزوة بدر ليستطلعا أخبار قريش فسارا حتى أتيا على شيخ من العرب فسأله الرسول ﷺ عن قريش وعن محمد وأصحابه ، وما بلغه عنهم ، فقال الشيخ : لا أخبركما حتى تخبرانى ممن أنتما ؟ فقال رسول الله ﷺ : **إذا أخبرتنا أخبرناك** . قال : أذاك بذاك ؟ قال : **نعم** . قال الشيخ :

فإنه بلغنى أن محمدا وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا . فإن كان صدق الذى أخبرنى فهم اليوم بمكان كذا وكذا للمكان الذى به المسلمون . وبلغنى أن قريشاً خرجوا يوم كذا وكذا فإن كان الذى أخبرنى صدقنى فهم اليوم بمكان كذا وكذا للمكان الذى به قريش . فلما فرغ من خبره قال : ممن أنتما ؟ فقال رسول الله ﷺ : **نحن من ماء ثم انصرف عنه**) اهـ . كلام ابن اسحاق .

فهذا وأمثاله ليس من الكذب المخالف للواقع الذى يذم صاحبه بل هو من المعاريض التى قد تخفى على بعض الأذهان ، ولكنها حقيقة واقعة فى حدّ ذاتها .

قوله تعالى : ﴿ **فتولوا عنه مدبرين . فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون مالكم لا تنطقون** ﴾ . أى إنه (عليه السلام) بعد أن أوهمهم أنه مشارف لمرض الطاعون ، خافوا من العدوى ، فولوا هاربين إلى عيدهم ، تاركين له (عليه السلام) . فانتهز (عليه السلام) هذه الفرصة ، فذهب بعد توليهم إلى بيت الأصنام فى خفة وسرعة ، فوجد أن القوم قد وضعوا بين يدى آلهتهم طعاما حتى تبركه لهم ، فإذا رجعوا من عيدهم أكلوه ، فصاح إبراهيم فى هذه الآلهة : استهزاء وسخرية بها وبعابديها قائلا لهم : ﴿ **ألا تأكلون** ﴾ ؟ فلما لم يجيبوه بشىء قال لهم ﴿ **مالكم لا تنطقون** ﴾) ؟ كل ذلك على سبيل الاستهزاء والسخرية أيضا . وقوله تعالى : ﴿ **فراغ عليهم ضربا باليمين** ﴾ أى فمال عليهم فى خفية وسرعة ضارباً لها على رءوسها ، محطما لها بيده اليمنى ؛ لأنها أقوى الجارحتين ، أو أن اليمين مراد بها القوة ، والمعنى : أنه كان يحطمها بشدة ، مستخدما فى ذلك كل قواه . أو أن المراد باليمين هنا : الحلف أى القسم الذى أقسمه بقوله : ﴿ **وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين** ﴾ وعلى الأول فالباء للاستعانة وعلى الثانى فالباء للملابسة وعلى الثالث فالباء للسببية . وعدى (راغ) الأول بإلى لأنه توبيخ لهم . وعدى (راغ) الثانى بعلى لأنه أفاد ضربهم من أعلاهم إلى أسفلهم فاستعمل (على) الدالة على الاستعلاء .

قوله : ﴿ **فأقبلوا إليه يزفون** ﴾ أى يسرعون مأخوذ من الزفيف بمعنى الإسراع والأصل فيه زفيف النعام أى سرعته . وهو حال من فاعل أقبلوا والمعنى أنهم لما سمعوا بتكسير الأصنام أقبلوا مسرعين فزعين من هول ما سمعوا . قائلين له منكرين متعجبين من فعلته : أنحن نعبدها وأنت تكسرها ؟ فقال لهم (عليه السلام) مؤنبا ومنبها على أنها لا تستحق العبادة ؛ لأنها أقل منهم شأناً ، يصنعونها بأيديهم . فهى مخلوقة غير خالقة ، فكيف تستحق العبادة ؟ . قال لهم : ﴿ **أتعبدون ما تنحتون . والله خلقكم وما تعملون** ﴾ .

أى كيف تعبدون ما تنحتونه بأيديكم من الأحجار والأخشاب ، وهى مخلوقة غير خالقة ، وتتركون عبادة الله الخالق لكم ولهذه الأصنام التى تعبدونها ، أو الخالق لكم ولكل عمل تعملونه ، إن هذا لمن السخف الذى لا يرضاه عاقل فلست أنا الذى ألام على تكسيرها ، بل أنتم الذين ينبغى أن تلاموا على عبادتها . ثم إن القوم لم يخضعوا للحجة ، ولم يذعنوا للبرهان ، فعاندوا ، واتهموه بالظلم فى تكسيرها ، وأرادوا إحراقه بالنار جزاء تكسيرها ، فأنجاه الله منها ، وجعلها عليه بردا وسلاما ، ونصره على أعدائه .

النص الثامن : من سورة الزخرف :

وهو قوله تعالى : ﴿ **وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إننى براء مما تعبدون . إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين . وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إننى براء مما تعبدون** ﴾ (إذ) ظرف ، والعامل فيه محذوف تقديره : اذكر . أى واذكر يامحمد لقومك ، ولكل من يتأتى منه الاتعاظ والاعتبار ، وقت أن قال إبراهيم لأبيه وقومه هذا القول الذى يدل على مفارقته لأبيه ولقومه ، فيما هم عليه من شرك ، وبراءته من اعتقادهم الفاسد ، فلم يقلد أباه فى عقيدته ، كما قلد كفار مكة آباءهم حتى قالوا : ﴿ **إنا وجدنا آباءنا على أمة و إنا على آثارهم مقتدون** ﴾ [من الآية ٢٣ : الزخرف] .

ولم يقلد قومه فى عقيدتهم مع أنهم كانوا يملكون جميع الأرض فلم يخضع لسلطانهم ، ولم يشاركهم فى إثمهم وبهتانهم ، وتذكير قريش بحال إبراهيم مع قومه ؛ لأنه كان أعظم آبائهم ومحط فخرهم والمجمع على محبته وحقية دينه منهم ومن غيرهم .

قال تعالى : ﴿ **قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا بُرَءَاءُ منكم ومما تعبدون من دون الله** ﴾ . [من الآية ٤ : من سورة الممتحنة] .

فدلت هذه الآية على أن سنة إبراهيم (عليه السلام) ومن آمن معه التبرى من الكفار ، ولو كانوا ذوى رحم وقرابة – فصلة الدين والعقيدة يجب أن تكون هى أقوى الصلات ، وأعز الوشائج التى تربط بين المؤمنين ، فلا تتقدم صلة عليها ، ولا اعتبار لأى عاطفة غيرها .

يقول ابن كثير عند تفسيره هذه الآية من سورة الزخرف : (يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وخليله ، إمام الحنفاء ، ووالد من بعث بعده من الأنبياء ، الذى تنتسب إليه قريش فى نسبها ومذهبها ، أنه تبرأ من أبيه وقومه فى عبادتهم الأوثان ، فقال ﴿ **إننى**

براء مما تعبدون ﴾) اهـ . كلام ابن كثير . وكلمة (براء) مصدر بمعنى برىء . فهى لا تجمع ولا تثنى ولا تذكر ولا تؤنث مثل رجل عدل وامرأة عدل وقوم عدل .

و(ما) فى قوله ﴿ **مما تعبدون** ﴾ يصح أن تكون مصدرية : فيكون المعنى براء من عبادتكم الباطلة . ويصح أن تكون موصولة : والمعنى براء من الذى تعبدونه من دون الله أى الأصنام . وقوله : ﴿ **إلاَّ الذى فطرنى فإنه سيهدين** ﴾ الاستثناء منقطع ، والتقدير : أبرؤ من آلهتكم التى تعبدونها . لكن الله الذى سيهدينى إلى الخير وإلى الطريق القويم لا أبرؤ منه بل أعبده وأوحده . وقوله : ﴿ **وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون** ﴾ المراد بالكلمة هنا هى كلمة التوحيد أى لا إله إلا الله ، وهى المفهومة من تبريه من المشركين ومن قوله إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين ، وهذه الكلمة جعلها إبراهيم باقية فى ذريته ، فلا يزال فيهم من يوحد الله تعالى إلى يوم القيامة ، وذلك حين وصاهم بها كما يرشد إليه قوله تعالى : ﴿ **ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يابنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون** ﴾ . [الآية ١٣٢ من سورة البقرة] .

وهذا الجعل منه عليه السلام رجاء أن يرجع إليها من أشرك منهم : أى من ذريته .

قال ابن كثير عند هذه الآية من سورة الزخرف أيضاً : (﴿ **وجعلها كلمة باقية فى عقبه** ﴾ أى هذه الكلمة وهى عبادة الله وحده ، لا شريك له ، وخلع ما سواه من الأوثان . وهى لا إله إلا الله أى جعلها دائمة فى ذريته ، يقتدى به فيها من هداه الله تعالى من ذرية إبراهيم (عليه الصلاة والسلام) ﴿ **لعلهم يرجعون** ﴾ أى إليها) اهـ كلام ابن كثير .

وقال النسفى عند تفسيره لهذه الآية أيضاً : (﴿ **كلمة باقية فى عقبه** ﴾ فى ذريته . فلا يزال فيهم من يوحّد الله ويدعو إلى توحيده . ﴿ **لعلهم يرجعون** ﴾ لعل من أشرك منهم يرجع بدعاء من وحد منهم . والترجى لإبراهيم) اهـ . كلام النسفى .

دعوة يوسف عليه السلام

يوسف هو الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم . يوسف بن يعقوب بن إسحاق ابن إبراهيم (عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام) فلا عجب – وهو النبى سليل الأنبياء – أن يكون داعية إلى توحيد الله ، محذرا من اتخاذ الأنداد والأشباه ، مبطلا لعبادة الأصنام والأوثان بالحجة والبرهان ، فهاهو (عليه السلام) يبدأ دعوته إلى الله ،

وهو فى محنته وكربه ، داخل قضبان السجن ومن وراء أسواره وهو الذى دخله مظلوما ، فداء لشرفه وعرضه أن يتلوث .

بدء الدعوة :

بدأ دعوته إلى خالقه فى وسط هؤلاء الضعفاء ، بعد أن مهد لقبول دعوته بإظهار معجزاته التى أيده الله بها حتى يستجيبوا لندائه ، ويصغوا لمقالته ، وقبل أن يدعوهم يبين لهم أنه هو متبع لما يدعوهم إليه عملا لا قولا ، فأوضح لهم أنه مطبق لهذه الدعوة على نفسه ، متبع لها قبل أن يأمر بها ، ويتوجه بها إلى الغير فيوضح لهم أنه مفارق لعبادة الأصنام ، طارح لها ، مخالف للعاكفين عليها ، من الأقوام الذين عاشرهم ، وتربى فى وسطهم ، فقال ﴿ **إنى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون** ﴾ .

وبين لهم أيضا أنه معتنق لدين الله الذى جاء به آباؤه وأجداده من الرسل الكرام وهو التوحيد الخالص فقال لهم : ﴿ **واتبعت ملة آبائى إبراهيم وإسحاق ويعقوب** ﴾ .

كما بين لهم أنه لا ينبغى ولا يمكن أن يقع مَن الأنبياء شرك أبداً ، لا ظاهر ولا خفى وأن هذا الاعتقاد السليم فضل من الله تعالى يؤتيه لمن يشاء من عباده ، وبعد هذا التمهيد العظيم الذى يجعل السامع يصغى إلى الدعوة وتستقر فى ضميره ووجدانه ، ويبادر إلى سماعها وطاعتها . بعد هذا كله أخذ عليه السلام يعرض دعوته إلى توحيد ربه مقرونة بالدليل والبرهان ﴿ **ياصاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار** ﴾ . كما أوضح لهم بما لايدع مجالا للشك فساد ماهم عليه من عبادة غير الله من الأصنام والأوثان ، فأقام الدليل على عدم استحقاقها لشىء من العبادة ، حيث بين لهم أنها عاجزة : لا تملك لهم ولا لنفسها ضرا ولا نفعا وأنها أسماء ليس تحتها مسميات ما أنزل الله على أحد من رسله بصحة عبادتها آية ولا برهانا . فليس على صحة عبادتها دليل عقلى ولا نقلى ، فقال ﴿ **ماتعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان .. الآية** ﴾ . ثم بين لهم أيضاً أن هذه الدعوة هى دين الله القويم الذى ينبغى اتباعه ، وطرح كل ماعداه ، واسمع معى أيها القارىء حديث القرآن الكريم ، يصور لنا موقف يوسف (عليه السلام) ويعرض طريقة دعوته إلى الله فى أسلوب بليغ وعبارة رائعة فيقول : ﴿ **ودخل معه السجن فتيان قال أحدهما إنى أرانى أعصر خمراً وقال الآخر إنى أرانى أحمل فوق رأسى خبزاً تأكل الطير منه نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين . قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما**

ذلكما مما علمني ربى إنى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون . واتبعت ملة آبائى إبراهيم وإسحاق ويعقوب ماكان لنا أن نشرك بالله من شىء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون . يا صاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار . ماتعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **ودخل معه السجن فتيان .. الخ** ﴾ الواو عاطفة لهذا على مفهوم ما قبله ، والتقدير فسجنوه ، ودخل معه السجن فتيان . روى عن ابن عباس أن أحدهما خازن طعام الملك ، والآخر ساقيه ، فرأى أحدهما فى منامه أنه يعصر عنبا من جنس العنب الذى يخمر ، ورأى الآخر أنه يحمل فوق رأسه خبزا . ولما كانت رؤياهما واضحة جلية فقد توجه كل منهما إلى يوسف يطلب تأويلها منه ؛ لأنهما قد أدركا بما أودع فيهما من الغريزة الفطرية الميالة للعدل وحب الخير للناس ، أدركا بهذه الفطرة أن يوسف من المحسنين المحبين للخير المقيمين للعدل ، وقد أعانهما على ذلك ماشاهداه من سعة علمه وحسن سيرته ، مع أهل السجن . ولذلك عللا طلبهما لتأويل الرؤيا بقولهما كما قال الله : ﴿ **إنا نراك من المحسنين** ﴾ . قوله تعالى : ﴿ **قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما** ﴾ . أراد يوسف عليه السلام من هذه المقدمة أن يزيد الرجلين ثقة به ، وبما يخبرهم به حتى يصغيا إلى دعوته ، ويستجيبا لنصيحته ، فبين لهم أن الله تعالى منّ عليه بعلم بعض المغيبات ، وهو القدرة على أن يخبرهم بنوع الطعام الذى يدخل عليهما داخل السجن مع أنه (عليه السلام) موجود معهما داخل السجن فلا يشاهد ما بالخارج . وذلك مثل ما أيد الله به عيسى (عليه السلام) من بعده من الإخبار بالمغيبات كما قال الله عنه ﴿ **وأنبئكم بما تأكون وماتدخرون فى بيوتكم** ﴾ [من الآية ٤٩ : سورة آل عمران] .

هذا ولم يفت يوسف عليه السلام أن يخبرهما أن هذا بتعليم الله إياه ، وليس سحرا ولا شعوذة ولا دجلا ولا تنجيما ولا غيره من هذه المعلومات الكاذبة ، وإنما هو بتعليم الله إياه فقال لهما كما قال الله تعالى عنه : ﴿ **ذلكما مما علمنى ربى** ﴾ . ولما أطمأن يوسف إليهما ووثق من إصغائهما وسماعهما لدعوته بدأ يعرض عليهما ماهو أهم من تأويل الرؤيا ، وذلك هو التوحيد الخالص ، وإفراد الخالق بالعبودية ، وطرح كل ما سواه ،

وكان من الحكمة أن يبدأ عليه السلام دعوته إلى الله داخل السجن ؛ لأن أولى الناس بالمسارعة إلى الحق وقبوله هم الفقراء والضعفاء والمظلومون . وأبعد الناس عن الحق المترفون والمتكبرون . ولعل هذا هو الحكمة الإلهية فى دخوله السجن بادىء ذى بدء .

وقوله : ﴿ **إنى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون** ﴾ أخبر عليه السلام عن نفسه أنه خالف عباد الأصنام الكافرين بالله الذين عبدوا آلهة أخرى باطلة لا تملك لهم ضرا ولا نفعا مثل قومه الكنعانيين فى آسيا الذين فارقهم صغيرا ، ومثل القوم الذين تربى بينهم وهم المصريون الذين عبدوا الشمس ، وعبدوا ملوكهم من الفراعنة ، وعبدوا (العجل أبيس) وغير ذلك فلم يسر يوسف سيرتهم ولم يسلك طريقهم لأنها طريق الشيطان . ومادام الفتيان وأهل السجن يثقون فى إحسانه وحسن سيرته فلابد أن يسلكا طريقه ويبتعدا عما ابتعد هو عنه . فكأنه بذلك دعاهما إلى ترك عبادة الأصنام فليس المراد من هذا مجرد الإخبار عن نفسه بل المراد دعوة غيره . وبعد أن دعا عليه السلام إلى التخلية عن الرذائل التى من أفظعها وأشنعها الإشراك بالله . دعا أيضاً إلى التحليه التى من أفضلها وأشرفها الإيمان بالله تعالى ، بوجوده ووحدانيته وإفراده بالعبادة ، فقال كما حكاه الله عنه : ﴿ **واتبعت ملة آبائى إبراهيم وإسحاق ويعقوب** ﴾ . يريد يوسف بهذا أن يريهم أنه من بيت نبوة ورسالة ، بعد أن عرفهم أنه نبى يوحى إليه ، وفى ذلك مزيد اطمئنان للإصغاء إليه ، وتلقى دعوته بالقبول والرضا ، وليعلمهم أن مايدعوهم إليه من التوحيد ليس دعوته هو وحده ، بل سبقه إليه هؤلاء الرسل الكرام الذين هم آباؤه .

والمعنى إنى هجرت ملة الكافرين ، واتبعت ملة المرسلين .

حال من سلك طريق الهدى :

وهكذا يكون حال من سلك طريق الهدى ، وأعرض عن طريق الغىّ والضلال ، فإن الله يهدى قلبه ، ويعلمه مالم يعلم ، ويجعله إماما يقتدى به ، وداعية إلى الحق وإلى طريق الهداية والرشاد . وقوله : ﴿ **ما كان لنا أن نشرك بالله من شىء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون** ﴾ أى ليس لنا معشر الأنبياء والمرسلين ، وما كان من شأننا أن نشرك بالله من شىء . أىّ شىء كان إنسا أو جنا أو ملكا أو شجرا أو حجرا أو غير ذلك . « ذلك » أى هذا التوحيد ، وهو الإقرار بأن لا إله إلا الله وحده لا شريك له . ﴿ **من فضل الله علينا** ﴾ أى أوحاه إلينا وأمرنا

به ، فهو الذى هدانا إلى معرفته وتوحيده فى ألوهيته وربوبيته .

﴿ **وعلى الناس** ﴾ إذ أرسلنا إليهم ، وجعلنا دعاة لهم ، لتعريفهم بهذا التوحيد ودعوتهم إليه . ﴿ **ولكن أكثر الناس لا يشكرون** ﴾ أى يشكرون نعمة الله عليهم بإرسال الرسل . بل بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار . قوله تعالى : ﴿ **ياصاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار** ﴾ إضافتهما للسجن على أنهما من نزلائه . ومعروف أن الإضافة تكون لأدنى ملابسة ، مثل أصحاب الجنة ، وأصحاب النار . والاستفهام للتقرير بعد التخيير . ومعنى تفرّق الأرباب أى فى ذواتهم فهم كثرة . وفى صفاتهم المعنوية التى ينعتهم بها عابدوها . وفى صفاتهم الحسية التى يصورها لهم رؤساؤهم وكهانهم رسوم مختلفة ، ونقوش متفاوتة ، وتماثيل عديدة ، منصوبة فى الهياكل والمعابد . أهؤلاء بهذه الصفات خير لكم ولغيركم « أم الله » الواجب الوجود الخالق لكل موجود ، « الواحد » فى ذاته وصفاته وأفعاله ، المنفرد بالخلق والإيجاد ، والمالك المتصرف فى سائر الكائنات . « القهار » بقدرته الغالبة ، وسلطانه العظيم ، وجبروته الذى لا يقهر ؟ لا شك إذا عرض هذا السؤال على أى عاقل أن يكون جوابه : بل الله الواحد القهار الذى لا إله غيره ولا رب سواه . قوله : ﴿ **ماتعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان** ﴾ . المخاطب بهذا هم الفتيان ، وأهل السجن جميعا ، ومن كان على دينهم ، داخل السجن وخارجه ، والضمير فى « من دونه » راجع إلى الله الواحد القهار .

والمعنى : ما تعبدون غيره . إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ، أى هذه الأصنام التى سميتموها آلهة ، ليس لها من صفات الألوهية إلا مجرد الاسم ، وسميتموها أربابا ، وليس لها من صفات الربوبية إلا مجرد الاسم ، فأنتم فى الحقيقة تعبدون أسماء ليس تحتها مسميات . أى ليس تحتها مسميات موصوفة بالألوهية الحقة ، أو الربوبية الحقة .

قال الشيخ رشيد فى تفسيره – المنار – عند هذه الآية : (﴿ **وما تعبدون من دونه** ﴾ أى غير هذا الواحد القهار ﴿ **إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم** ﴾ من قبلكم . أى وضعتموها لمسميات نحلتموها صفات الربوبية وأعمال الرب الواحد فاتخذتموها أربابا ، وما هى بأرباب تخلق ، وهى لا ترزق ، ولا تضر ولا تنفع ، ولا تدبر ولا تشفع ، فهى فى الحقيقة لا مسميات لها بالمعنى المراد من لفظ الرب الإله المستحق للعبادة . حتى يقال إنها خير أم هو خير . ﴿ **ما أنزل الله بها** ﴾ أى بتسميتها أربابا على أحد من

رسله ﴿ **من سلطان** ﴾ أى أى نوع من أنواع البرهان والحجة . فيقال : إنكم تتبعونه . بالمعنى الذى أراده تعالى منه ، تعبدا له وحده وطاعة لرسله ، فيكون اتباعها أو تعظيمها غير مناف لتوحيده ، كاستيلام الحجر الأسود عند الطواف بالكعبة المعظمة ، مع الاعتقاد بأنه حجر لا ينفع ، ولا يضر ، كما ثبت فى الحديث - فهى تسمية لا دليل عليها من النقل السماوى فتكون من أصول الإيمان ، ولا دليل عليها من العقل فتكون من نتائج البرهان) ا هـ . كلام رشيد رضا .

لمن الحكم ؟

وقوله تعالى : ﴿ **إن الحكم إلا لله** ﴾ . أى ما الحكم فى أمر الربوبية والعقائد والعبادات الدينية إلا لله وحده ، يتلقى عن رسله وأنبيائه بطريق الوحى ، فليس لبشر أن يحكم فى ذلك برأيه وهواه ، ولا بالاجتهاد واستحسان العقل الذى لا يستند إلى النص . وهذه قاعدة أساسية فى دين الله ، جاء بها جميع رسل الله ، ولا تختلف باختلاف الزمان والمكان . وقوله تعالى : ﴿ **أمر ألا تعبدوا إلا إياه** ﴾ هذا بيان لأول أصل بنى عليه الدين الحق ، وهو أول مايجب معرفته على العاقل البالغ ، وهو توحيد الله تعالى توحيداً خالصاً مع ترك الإشراك به كلية . قال الشيخ رشيد رضا عند تفسير هذه الآية : ﴿ **أمر ألا تعبدوا إلا إياه** ﴾ أى إياه وحده فادعوه واعبدوا ، وله وحده فاركعوا واسجدوا ، وإليه وحده فتوجهوا ، حنفاء لله غير مشركين به ملكا من الملائكة الروحانيين ، ولا ملِكا من الملوك الحاكمين ، ولا كاهنا من المتعبدين ، ولا شمساً ولا قمراً ، ولا نجماً ولا شجراً ، ولا نهراً مقدساً كالكنج والنيل ، ولا حيواناً كالعجل أبيس .

فالمؤمن الموحد لله لا يذل نفسه بالتعبد لغير الله من خلقه بدعاء ولا غيره ، لإيمانه بأنه هو الرب المدبر المسخر لكل شىء ، وأن كل ماعداه خاضع لإرادته وسننه فى أسباب المنافع والمضار ، لا يملك لنفسه ولا لغيره غير ما أعطاه من القوى التى هى قوام جنسه ومادة حياة شخصه . ﴿ **أعطى كل شىء خلقه ثم هدى** ﴾ [٥٠ : طه] .

فإليه وحده الملجأ فى كل ما يعجز عنه الإنسان ، أو يجهله من الأسباب وإليه المصير للجزاء على الأعمال يوم الحساب) ا هـ . كلام رشيد رضا .

قوله : ﴿ **ذلك الدين القيم** ﴾ أى ما أدعوكم إليه من التوحيد الخالص ، هو الدين القيم ، والحق المستقيم ، الذى جاء به جميع الرسل ، ومنهم آبائى إبراهيم وإسحاق ويعقوب .

وقوله : ﴿ **ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ أى لا يعلمون ذلك حق العلم ، وذلك لاتباع أهوائهم ، وأهواء آبائهم الوثنيين ، الذين اتخذوا لأنفسهم آلهة سموها أرباباً ، وهى ليس لها من صفات الألوهية أو الربوبية أدنى نصيب . لهذا كله كان أكثر الناس مشركين ، والقلة منهم مؤمنون . قال تعالى : ﴿ **وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين** ﴾ . [الآية ١٠٣ : سورة يوسف] .

دعـوة موسى عليه السلام

بعث الله تعالى عبده ورسوله موسى (عليه السلام) برسالة ذات شقين : الأول منهما إلى فرعون لدعوته إلى الله تعالى وتخليص بنى إسرائيل من أسره لهم ، وتسلطه عليهم فى مصر ، والثانى منهما : دعوة قومه بنى إسرائيل إلى توحيد الله (تعالى) وهدايتهم إلى الطريق المستقيم ، وإخراجهم من الظلمات إلى النور ، وقد وردت نصوص القرآن الكريم تحكى لنا موقفه من فرعون ، وموقفه أيضاً من بنى إسرائيل **وإليك هذه النصوص** :

١ – قال تعالى : ﴿ **اذهب أنت وأخوك بآياتى ولا تنيا فى ذكرى ، اذهبا إلى فرعون إنه طغى * فقولا له قولا ليناً لعله يتذكر أو يخشى * قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى * قال لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى * فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى** ﴾ . [الآيات من ٤٢ – ٤٧ من سورة طه] .

٢ – قال تعالى : ﴿ **فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين * أن أرسل معنا بنى إسرائيل ...** ﴾ إلى أن قال : ﴿ **قال فرعون وما رب العالمين * قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين * قال لمن حوله ألا تستمعون * قال ربكم ورب آبائكم الأولين * قال إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون * قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون** ﴾

[الآيتان ١٦ ، ١٧ ثم من الآية ٢٣ – ٢٨ : الشعراء] .

٣ – قال تعالى : ﴿ **هل أتاك حديث موسى * إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى * اذهب إلى فرعون إنه طغى * فقل هل لك إلى أن تزكى * وأهديك إلى ربك فتخشى** ﴾ [الآيات من ١٥ – ١٩ : النازعات] .

٤ – قال تعالى : ﴿ **وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا ياموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون * إن هؤلاء متبر ماهم فيه وباطل ما كانوا يعملون * قال أغير الله أبغيكم إلها وهو فضلكم على العالمين** ﴾ [الآيات ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٠ : الأعراف] .

٥ – قال تعالى : ﴿ **واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين * ولما سقط فى أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين * ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً قال بئسما خلفتمونى من بعدى أعجلتم أمر ربكم وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه قال ابن أم إن القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى فلا تشمت بى الأعداء ولا تجعلنى مع القوم الظالمين * قال رب اغفر لى ولأخى وأدخلنا فى رحمتك وأنت أرحم الراحمين** ﴾ .

[من الآية ١٤٨ – ١٥١ : سورة الأعراف]

٦ – قال تعالى : ﴿ **ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور وذكرهم بأيام الله إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور * وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم * وإذ تأذّن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد * وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن فى الأرض جميعاً فإن الله لغنى حميد** ﴾ . [الآيات من ٥ – ٨ : سورة إبراهيم] .

فإذا نظرت إلى هذه الآيات الكريمة وجدت أن موسى (عليه السلام) قد قام بمهمة شاقة ، لا يقدر على مواجهتها إلا من اصطفاه الله (تعالى) لرسالته ، واصطنعه لنفسه ، مثل موسى (عليه وعلى سائر الأنبياء السلام) . فقد واجه موسى فرعون بكلام لم يسمعه من أحد قبل موسى . وكأنه (عليه السلام) علم سطوة فرعون وجبروته وتكبره فطلب من الله تعالى أن يعينه بهارون ، فأعانه الله به ، وأرسله معه ردءاً يصدقه ، ويشد عضده ، فقال الله تعالى لموسى ﴿ **اذهب أنت وأخوك بآياتى ولا تنيا فى ذكرى . اذهبا إلى فرعون إنه طغى . فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى** ﴾ ونظراً لمعرفتهما بطبيعة فرعون وغلظته ، فقد تخوفا من لجاجته ، وعدم استجابته للحق وخشيا أن تمتد إليهما يده بالعقاب ، حتى طمأنهما الله (تعالى) بقوله : ﴿ **لا تخافا اننى معكما أسمع وأرى** ﴾ .

فلما دخلا عليه قالا ﴿ **إنا رسولا ربك فأرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى** ﴾ . وقد وقع ذلك على مسامع فرعون وقع الصاعقة ، فإنه كان يزعم أنه رب القوم فكيف يقول له الرجلان : ﴿ **إنا رسولا ربك** ﴾ إلى أن قالا ﴿ **قد جئناك بآية من ربك** ﴾ . فمن هو ربه الذى أرسل هذين الرجلين ؟ إن فى ذلك عدواناً على مركزه ومقامه بين رعيته ، وإهانة لشخصه لم يتعودها ولم يخطر بباله أن أحداً من رعيته يجرؤ على ذلك . وفوق هذا . المطلب الثانى الذى طلباه منه وهو : أن يرسل معهما بنى إسرائيل الذين يعيشون فى مصر تحت قهره وجبروته ، يستذلهم ، ويستعملهم فى الأعمال الشاقة : كحفر الأرض ، وشق القنوات ، وإقامة المبانى ، والتماثيل والأعمال الحقيرة : كالخدمة فى المنازل والقصور . يريد هذان الرجلان أن يحرراهم من أسره ورقّه ، إن هذا الشيء عظيم لا يمكن أن يستجيب له طاغية كهذا . فأخذ يجادل ويناقش بالباطل ، وموسى (عليه السلام) يقنعه بالحجة البالغة ، والبينة الدامغة على أن لهذا الكون خالقاً قوياً قادراً هو رب فرعون ورب العالمين . فلما قال فرعون متهكما : ﴿ **وما رب العالمين ؟** ﴾ قال موسى : ﴿ **رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين** ﴾ أى هو الذى أوجد هذه الكائنات : علويها وسفليها فلا يكون إلهاً حقاً إلا إذا كان قادراً على ذلك ، فهل تقدر على شيء منه أنت يافرعون ؟

فصاح فرعون فى وجوه القوم حوله قائلا على سبيل السخرية : ﴿ **ألا تستمعون** ﴾ إلى هذا الكلام الغريب الذى يقوله هذا الرجل؟ فرد موسى محتجاً عليهم جميعاً بقوله ﴿ **ربكم ورب آبائكم الأولين** ﴾ أى من قبل أن يوجد فرعون . فقال فرعون مُمعِناً فى التعنت والاستكبار : ﴿ **إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون** ﴾ . فلم يلتفت موسى لقوله ، وأخذ يقيم الحجة عليه وعليهم بقوله ﴿ **رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون** ﴾ أى إن الإله الحق هو الذى جعل المشرق مشرقا بشروق الشمس منه والمغرب مغربا بغروب الشمس فيه ، فإن كان فرعون إلها كما تزعمون فليقلب هذا الوضع . وهكذا أخذ موسى يقيم الحجج على فرعون وقومه ؛ ليدلهم إلى الإله الحق ، ويدعوهم إلى وحدانيته والخوف من عقابه وحده ، وإبطال ما كانوا يعتقدونه من تأليه فرعون وعبادته من دون الله . وبعد أن فرغ موسى من هذه المهمة الشاقة ، وسار ببنى إسرائيل إلى الضفة الشرقية من البحر الأحمر بعد أن أنجاه الله تعالى وأغرق عدوه فرعون وجنوده فى هذا البحر إذا به يواجه مشكلة أعقد وأشد ، فإن بنى إسرائيل الذين تربوا فى الذل

والهوان وتأليه البشر ، ماكادوا يرون عباد الأصنام بالمشرق حتى قالوا لموسى فى غير حياء ﴿ **اجعل لنا إلها كما لهم آلهة** ﴾ فبدل أن يشكروا الله أن أنجاهم من الذل ، وأهلك عدوهم بدل أن يشكروه فيوحدوه ويعبدوه وحده إذا بهم يطلبون الشرك به . وممن ؟ من موسى (عليه السلام) نبى الله ورسوله ، الذى دعى إلى التوحيد وجابه به طاغية كان يدعى لنفسه الألوهية ، ويزعم أنه لا إله للقوم غيره . وأجرى الله تعالى تخليصهم من الذل وإنجاءهم من الغرق على يديه . فغضب موسى من قولهم هذا ، وأخذ يبين لهم أنهم بهذا جاهلون لقدر الله تعالى وعظمته وأن ما عليه عباد الأصنام متبر وباطل ، وأن لا إله لهم يستحق العبادة إلا رب العالمين ، الذى خلصهم من الذل ، وتفضل عليهم بسائر النعم . ثم أخذ (عليه السلام) يذكرهم بأيام الله ، ونعمه عليهم ، وذكرهم بما كانوا فيه تحت سلطان فرعون من البلاء العظيم : كتذبيح البنين ، واستحياء البنات وغير ذلك ، وبين لهم موسى أنهم إن شكروا الله تعالى على هذه النعم فسوف يزيدهم منها ، وإن جحدوا وكفروا فسوف يعذبهم عذاباً أليماً ، وأوضح لهم أن الله تعالى غنى عن عباده جميعاً ، فلا يضره كفر من كفر ولا ينفعه إيمان من آمن ، وسوف يجزى الجميع كلا بما عمل

تفصيل بعد إجمال :

هذا هو معنى هذه النصوص القرآنية إجمالا .

وأما معناها على التفصيل فنقول والله المستعان :

النص الأول : من سورة طه :

وهو قوله تعالى : ﴿ **اذهب أنت وأخوك بآياتى ولا تنيا فى ذكرى . إذهبا إلى فرعون إنه طغى . فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى . قالا ربنا إننا نخاف أن يفرظ علينا أو أن يطغى . قال لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى . فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **اذهب أنت وأخوك بآياتى ولا تنيا فى ذكرى** ﴾ خطاب من الله تعالى لنبيه موسى أن يصطحب معه أخاه هارون . كما طلب هو من الله ذلك فيذهبا بالآيات والمعجزات التى أيدهما الله بها ، ولا يتوانيا أى : لا يفترا ولا يقصرا فى ذكر الله تعالى وتسبيحه ؛ ليكون ذكر الله عونا لهما فى مهمتهما ، وكاسرا لشوكة عدوهما ، أو أن تبليغ الرسالة فى حدّ ذاته ذكر فيكون المعنى : ولا تقصرا فى تبليغ الرسالة .

وقوله تعالى : ﴿ **إذهبا إلى فرعون إنه طغى** ﴾ كرر الأمر هنا وذلك أنه فى الأمر الأول ذكر ما أرسلا به : وهو الآيات وفى الأمر الثانى ذكر المرسل إليه : وهو فرعون . ثم ذكر العلة فى البعث إليه : وهى أنه تمرد وتجبر فى الأرض بادعائه الألوهية ، فبذلك يكون قد جاوز الحد فى الكفر والضلال . وقوله تعالى : ﴿ **فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى** ﴾ اختلف المفسرون فى هذا القول اللين ، فقال وهب بن منبّه (أى قولا له إن الله تعالى إلى العفو والمغفرة أقرب منه إلى الغضب والعقوبة) .

وعن الحسن البصرى : (أعذرا إليه . قولا له إن لك ربا ولك معادا وإن بين يديك جنة ونارا) .

وعن على وسفيان الثورى (كنّه) أى نادياه بكنيته وكان يكنى بأبى العباس أو بأبى الوليد أو بأبى مرة وقيل : (أى عداه بشباب لا يهرم بعده وملك لا يزول عنه إلا بالموت) . وقيل : (هو قوله تعالى : ﴿ **فقل هل لك إلى أن تزكى وأهديك إلى ربك فتخشى** ﴾) فظاهره الاستفهام والمشورة . وإن كان ينطوى على الدعوة والأمر .

وخلاصة القول : أن الله تعالى أمرهما أن يدعوا فرعون إلى طاعة الله ، وترك زعمه الفاسد بأنه إله ، وأن يكف عن تعذيب بنى إسرائيل : الذين هم تحت أسره ورقه على أن يكون ذلك كله فى أسلوب سهل ، وعبارة لطيفة ، فذلك أوقع فى النفوس ، وألين لقساوة القلوب ، وأنجع فى الدعوى ، وأرجى للقبول .

قال تعالى : ﴿ **ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن** ﴾ [من الآية ١٢٥ : النحل] .

وقال أيضاً : ﴿ **ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إننى من المسلمين * ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم** ﴾ . [الآيتان ٣٣ ، ٣٤ : من سورة فصلت] .

ومن لطائف هذه الآية المفسرة : أن فرعون فى غاية الكبر والتجبر ، وموسى وهارون نبيان من أنبياء الله ، وهما صفوة الخلق فى زمانهما ، ومع ذلك أمرهما الله تعالى أن يتلطفا مع أعدى أعدائه تعليما للأمة ، وإرشاداً للدعاة إلى الله : أن يكون لين الجانب طابعهم حتى تكون دعوتهم أجدى وأنفع . ينقل الإمام النسفى عند تفسيره لهذه الآية من سورة طه (أنها تليت عند يحيى بن معاذ فبكى وقال : هذا رفقك بمن يقول : أنا إله ! وهذا رفقك بمن قال : أنا ربكم الأعلى فكيف بمن قال : سبحان ربى الأعلى) ا هـ .

كلام النسفى .

ومعنى « لعله يتذكر » أى يتعظ « أو يخشى » أى يخاف عقاب الله . وقد اختلف فى حدوث ذلك من فرعون ، فقيل حدث منه التذكر بالفعل ولكنه لم ينفعه ، فلم يؤمن . وقيل إنه هم بالإيمان بموسى ولكن هامان منعه من ذلك ، وكان فرعون لا يقطع أمراً دونه . ومن هذا نعلم مدى ضرر بطانة السوء الذين يستولون على الحاكم : حتى يزينوا له الشر، ويصدونه عن الخير . ولكن الظاهر من الآية ومن غيرها أن فرعون لم يحدث منه التذكر ، فيكون الترجى فى قوله « لعله » صادر من موسى وهارون أى اذهبا إليه وادعواه إلى الله دعوة من تطمعان فى إيمانه ، وترجوان هدايته ، وباشرا هذا الأمر بهمة ونشاط مباشرة من يطمع فى جدواه ونفعه . أو أن هذا الترجى صادر من الله (تعالى) وإن كان لم يتحقق مضمونه من فرعون لأن الله علم أزلا أنه سوف لا يؤمن ، وإنما فعل ذلك قطعاً لعذره ، وإقامة للحجة عليه أو أن المعنى لعله يتذكر من يتذكر من الناس عامة ، ويخشى من يخشى من الناس عامة فالضمير فى (لعله) ليس لفرعون وإنما هو ضمير الشأن . ولاشك أنه قد وقع التذكر والخشية من كثير من الناس . وقوله تعالى : ﴿ **قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى . قال لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى** ﴾ .

معناه أنهما قالا مستجيرين بالله من جهله وحمقه ، إننا نخاف أن يعجل علينا بالعقوبة ، فيؤذينا ولا ينتظر تمام الدعوة وإظهار صحتها بالمعجزة ، أو أن يطغى ، فيعتدى ويجاوز الحد : بأن ينسب إلى جلالك مالا يليق . فطمأنهما الله تعالى بقوله : ﴿ **لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى** ﴾ .

قال ابن كثير عند تفسيرها : (أى لا تخافا منه فإننى معكما أسمع كلامكما وكلامه ، وأرى مكانكما ومكانه ، لا يخفى علىّ من أمركم شىء ، واعلما أن ناصيته بيدى ، فلا يتكلم ولا يتنفس ولا يبطش إلا بإذنى ، وبعد أمرى ، وأنا معكما بحفظى ونصرى وتأييدى) ا هـ . كلام ابن كثير .

وينقل الإمام النسفى عن ابن عباس فى تفسيرها . قوله : (أسمع دعاءكما فأجيبه ، وأرى مايراد بكما فأمنع ، لست بغافل عنكما فلا تهتما) ا هـ .

وقوله تعالى : ﴿ **فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم** ﴾ . (فأتياه) أمر بالوصول إليه ، والمثول أمامه ، وفى مجلسه . وأمّا ما تقدم من

قوله ﴿ **إذهبا إلى فرعون** ﴾ فهو أمر بالسير إليه ، والذهاب إلى مكانه ، فالأمر الأول باعتبار بدء السير ، والأمر الثانى باعتبار نهايته فليس هناك تكرار . وكأنه قال ابدءا بالمسير إليه فإذا وصلتما مجلسه وواجهتماه فقولا كذا وكذا . وقوله ﴿ **إنا رسولا ربك** ﴾ إشارة إلى الشق الأول من رسالتهما : وهو دعوة فرعون إلى توحيد الله تعالى وتعريفه بالرب الحقيقى ، الذى خلقه ورباه بنعمه ، وتذكيره بفساد رأيه القائل إنه هو – أى فرعون – إله للقوم ، فأرشداه أن يتخلى عن هذا الزعم الباطل ، وأن يعلم أنه مربوب لله تعالى ، مخلوق له ، لذلك أضافا كلمة الرب إلى فرعون نفسه ، ولم يقولا (ربنا) أو « رب العالمين » ؛ ليكون ذلك أبلغ فى تذكيره : بأن له خالقا ورازقا يجب عليه أن يذعن له ، ويقلع عن دعواه الربوبية .

والشق الثانى : وهو أن يطلق سراح بنى إسرائيل من ذُلَّه وأسره ، فلا يعذبهم بتسخيرهم فى الأعمال الشاقة : من حمل وحفر وبناء ، وغير ذلك فى غير ما شفقة عليهم ، ولا رحمة بهم . وقوله تعالى : ﴿ **قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى** ﴾ أى أتيناك بحجة دالة على صدق دعوانا الرسالة . وهذه الجملة جارية مجرى التفسير والتفصيل للجملة التى قبلها ، وهى ﴿ **إنا رسولا ربك** ﴾ لأن دعوى الرسالة لا تثبت ولا تصدق إلا ببينة تدل على صدقها لذلك أعطى الله تعالى أنبياءه معجزات تدل على صدق دعواهم ، وقد كانَ مع موسى (عليه السلام) حين جاء فرعون اليد والعصا وغيرهما من المعجزات . ومعنى ﴿ **والسلام على من اتبع الهدى** ﴾ أى إن اتبعت ما جئناك به من الهدى والنور سلمت من العذاب والهلاك . هذا ولما كان أمر الألوهية وتعرية فرعون عنها ، وإثبات أن له ربا وإلها يملكه ، ويملك سائر المخلوقات ، لما كان هذا هو الأهم فى نظره من إطلاق بنى إسرائيل أخذ فرعون يجادل ويخاصم فى أمر هذا الإله ، وموسى يقيم عليه الحجة بعد الحجة ، فى آيات كثيرة ذكرها الله تعالى فى هذه السورة ، بعد الآية التى معنا . كما ذكرها أيضا فى نصوص أخرى فى سورة الشعراء وغيرها ، وسوف نتحدث عنها بمشيئة الله فنقول :

النص الثانى من سورة الشعراء :

وهو قوله تعالى : ﴿ **فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين . أن أرسل معنا بنى إسرائيل** ﴾ .... إلى أن قال : ﴿ **قال فرعون وما رب العالمين . قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين . قال لمن حوله ألا تستمعون . قال ربكم ورب**

آبائكم الأولين . قال إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون . قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون ﴾ . قوله تعالى : ﴿ فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين ﴾ ثنى الرسول فى النص المتقدم من سورة طه ولم يثنه هنا ؛ لأن ماهناك بمعنى المرسل وهما اثنان موسى وهارون فكان لابد من تثنيتهما . وما هنا بمعنى الرسالة فيستوى فى الوصف به الواحد والمثنى والجمع . فأتى به مفرداً ، أو أنه لما كانا متحدين فى الرسالة والشريعة التى جاءا بها كانا كأنهما رسول واحد فعبّر بالمفرد . أو المعنى أن كل واحد منا رسول . وقد جئناك برسالة من قبل الله رب العالمين .

وقوله : ﴿ أن أرسل معنا بنى إسرائيل ﴾ أى أطلقهم من إسارك وقهرك وذلّك ، فإنهم عباد الله المؤمنون ، وحزبه المخلصون ، فلا يستحقون تعذيبك وإذلالك . فلما نظر فرعون إليهما عرف موسى فدار بينهما حوار إلى أن قال فرعون : ﴿ ومارب العالمين ﴾ أى من هذا الذى تزعم أنه رب العالمين غيرى ؟. فإنه كان جاحداً لوجود إله غيره بالكلية زاعماً أنه هو الإله حتى قال لقومه ﴿ ماعلمت لكم من إله غيرى ﴾ .

[من الآية ٣٨ : القصص]

وقد استخف أحلام قومه فزيّن لهم هذا القول حتى اعتقدوه . قال تعالى حاكيا عنه وعنهم : ﴿ فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين ﴾ .

[الآية ٥٤ : الزخرف] .

عم سأل فرعون ؟

هذا وقد قال بعض العلماء إن سؤال فرعون فى هذه الآية كان عن ماهية هذا الإله وحقيقته وذلك لأن – ما – يسأل بها عن الماهية فكأنه قال : من أى جنس من أجناس الموجودات هذا الإله الذى تزعمه ياموسى ؟ ولكن هذا التفسير لا يصح ؛ لأن فرعون ما كان مقراً بوجود إله غيره ، حتى يسأل عن حقيقته ، وماهيته . بل كان جاحداً لذلك من أصله . والذى يؤيد ذلك ما جاء فى آية أخرى من السؤال بمن قال تعالى : ﴿ قال فمن ربكما ياموسى ﴾ . [الآية ٤٩ : من سورة طه] . قال موسى عليه السلام مستدلا على وجود رب العالمين بآثاره مشيراً إلى أن هذا هو الطريق الوحيد الدال على وجوده تعالى فقال : ﴿ رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين ﴾ أى إن كانت لكم قلوب موقنة ، وأبصار نافذة ، فانظروا إلى هذه الكائنات علوية وسفلية ، وتدبّروا فى صنعها واتقانها ، واعلموا أنها لابد لها من صانع حكيم خبير ،

ذلكم الصانع هو رب العالمين الذى خلق هذه الكائنات وأوجدها من العدم ، وهو المتصرف فيها كيفما يشاء .

قال الإمام ابن كثير تعليقا على هذه الآية : (أى خالق جميع ذلك ومالكه والمتصرف فيه وإلهه لا شريك له هو الذى خلق الأشياء كلها العالم العلوى وما فيه من الكواكب الثوابت ، والسيارات النيرات ، والعالم السفلى ومافيه من بحار وقفار وجبال وأشجار وحيوانات ونبات وثمار وما بين ذلك من الهواء والطير ، وما يحتوى عليه الجو ، الجميع عبيد له ، خاضعون ذليلون) ا هـ . كلام ابن كثير .

قال فرعون لمن حوله من قواده ورؤساء دولته ، معجباً لهم من قول موسى ، وداعيا لهم إلى التكذيب والاستهزاء ، ﴿ **ألا تستمعون** ﴾ أى ألا تعجبون من هذا الذى يزعم أن هناك إلها غيرى ؟. فعند ذلك قال موسى متجها بالخطاب إلى قومه الذين ألقى إليهم بهذه الشبهة قاصداً توضيح المعنى فى أذهانهم والاستدلال بما يشاهدونه من المخلوقات على توحيد الله تعالى والاحتجاج على أنه الخالق الرازق رب العالمين فقال : ﴿ **ربكم ورب آبائكم الأولين** ﴾ أى إنه خالقكم ، وخالق آبائكم المتقدمين وإنه إذا كان الاستدلال بالنفس أظهر ، لأن أقرب شىء إلى الإنسان نفسه ، إلا أنه احتاج للاستدلال بخلق الآباء ؛ لأن فرعون ما كان يدعى الألوهية بالنسبة لمن قبله ممن تقدم زمانه ، بل كان يدعيها بالنسبة لمن كانوا فى عصره .

فلما رأى فرعون قوة الحجة ونصاعة الدليل ، خاف على قومه أن يفتنوا عن دينهم ، فيستجيبوا لموسى ، فشوش عليهم بقوله : ﴿ **إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون** ﴾ . حيث يزعم أن فى الوجود إلها غيرى . فقال موسى (عليه السلام) مزيحاً لتلك الشبهة التى شوش بها فرعون على القوم ﴿ **رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون** ﴾ أى إن موسى (عليه السلام) لما رأى فرعون لبّس على قومه الحجة السابقة ، انتقل إلى حجة أقوى وأوضح ، لا تحتمل التشكيك : وهى الحجة التى انتقل إليها إبراهيم فى محاجة نمروذ فأفحمته ، وقطعت جداله .

قال الإمام النسفى تعليقا على هذه الآية : (... وهذا غاية الإرشاد حيث عمم أولا بخلق السموات والأرض وما بينهما ، ثم خصص من العام أنفسهم وآباءهم ؛ لأن أقرب المنظور فيه من العاقل نفسه ، ومن ولد منه ، وما شاهد من أحواله من يوم ميلاده إلى يوم وفاته ، ثم خصص المشرق والمغرب ؛ لأن طلوع الشمس من أحد الخافقين وغروبها فى الآخر على تقدير مستقيم فى فصول السنة ، وحساب مستو ، من أظهر ما استدل به ؛ ولظهوره انتقل إلى الاحتجاج به خليل الرحمن عن الاحتجاج

بالإحياء والإماتة على نمروذ بن كنعان) ا هـ . كلام النسفى .

هذا ولما بهت فرعون كما بهت نمروذ من حجة موسى هذه عدل عن المحاجة إلى جاهه وسلطانه ، فأخذ يتوعد موسى بالسجن والتعذيب ، ودار بينهما كثير من المحاولات والمجادلات التى حكتها الآيات الكريمة بعد هذا النص من هذه السورة الكريمة .

النص الثالث : من سورة النازعات :

وهو قوله تعالى : ﴿ **هل أتاك حديث موسى إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى . اذهب إلى فرعون إنه طغى . فقل هل لك إلى أن تزكى وأهديك إلى ربك فتخشى** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **هل أتاك حديث موسى إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى** ﴾ الاستفهام هنا للتنبيه على أن هذا الأمر مما يجب أن يشيع وينتشر ، والمخاطب نبينا محمد ﷺ .

والقصة مسوقة لتسليته ﷺ وتهديد قومه : أن يصيبهم مثل ما أصاب فرعون وقومه إن هم كذبوا نبيهم ولم يؤمنوا بما جاء به . وكأن الله تعالى يقول لنبيه محمد ﷺ لست وحدك يامحمد بين الأنبياء كذبك قومك ، بل غيرك من الأنبياء كُذبوا وأوذوا فصبروا ، ولست أنت بأقل منهم صبراً ، وليس قومك بأقوى ولا أعز من هذه الأمم التى أهلكت وأبيدت بسبب تكذيب أنبيائها . وفى هذا المعنى يقول الله تعالى : ﴿ **ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين** ﴾ . [الآية ٣٤ : الأنعام] .

و(حديث موسى) أى خبره وقصته مع فرعون ، ثم أخذ يبين ويفصل هذا الحديث فقال : ﴿ **إذ ناداه ربه الخ** ﴾ فكلمة « إذ » ظرف زمان والتقدير حين ناداه .

وهذا النداء هو مبدأ نبوة موسى (عليه السلام) وكان بالوادى المقدس المسمى طوى ، وكان هذا الوادى مقدساً ومشرفاً ؛ لتشريف الله تعالى له بإنزال النبوة فيه المفيضة للبركات والطهر والخير ، وموقع هذا الوادى الذى نبىء فيه موسى عليه السلام بالطور بين أيلة ومصر .

وقوله تعالى : ﴿ **اذهب إلى فرعون إنه طغى** ﴾ من تتمة هذا الحديث ، والجملة فى محل النصب مقول لقول محذوف تقديره (قال اذهب ... الخ) .

وقوله (إنه طغى) تعليل للأمر فى قوله (اذهب) أو تعليل لوجوب امتثال هذا الأمر وحذف مفعول طغى لتذهب فيه النفس كل مذهب ؛ فإن طغيان فرعون كان قد بلغ الغاية وأربى على النهاية حيث تكبر على الله تعالى فكفر به وجحد وجوده ،

وادعى لنفسه الألوهية . وتكبر على مخلوقات الله ، فاستذلهم واستخف أحلامهم ، وقال لهم : أنا ربكم الأعلى .

وقوله تعالى : ﴿ **فقل هل لك إلى أن تزكى** ﴾ أى أعرض عليك الإيمان بوجود الله تعالى وتوحيده وترك الكبر والجحود وادعاء الربوبية ، وليس المراد مجرد العرض والتشاور فى ذلك ، وإنما المراد الدعوة والأمر بترك الكفر وإدعاء الألوهية ، وإنما أمره الله تعالى أن يسوق ذلك فى أسلوب العرض للتلطف والمداراة ، حتى يستنزله من عتوّه وكِبره وهو معنى قوله تعالى فى سورة طه ﴿ **فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى** ﴾ كما تقدم .

وقوله تعالى : ﴿ **وأهديك إلى ربك فتخشى** ﴾ أى وأهديك إلى معرفة ربك بالدليل والبرهان : حتى تعرفه وتقر بوجوده ووحدانيته فإذا عرفته معرفة حقة بأوصاف الربوبية الحقة والألوهية الحقة خشيته وخفت عقابه وارعويت عما أنت فيه : من كبر وجهالة ؛ فإن معرفة الله تعالى بالقلب تورث الهيبة والخشية فى القلب ، ويفيض نورها على الجوارح فتمنعها من معصيته (جل وعلا) .

وذلك ما يشير إليه قول الله تعالى : ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾ [من الآية ٢٨ : سورة فاطر] .

قال الإمام النسفى عند تفسير هذه الآية : ﴿ **وأهديك إلى ربك** ﴾ وأرشدك إلى معرفة الله بذكر صفاته فتعرفه ﴿ **فتخشى** ﴾ لأن الخشية لا تكون إلا بالمعرفة قال تعالى : ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾ أى العلماء به وعن بعض الحكماء : أعَرف الله فمن عرف الله لم يقدر أن يعصيه طرفة عين . فالخشية ملاك الأمر ، من خشى الله أتى منه خير ومن أمن منه اجترأ على كل شر) ا هـ . كلام النسفى .

هذا وقد مضت الآيات بعد ذلك تبين موقف فرعون من هذه الدعوة ، وكيف أخذته العزة بالإثم ؟ فلم يستجب لنداء موسى حتى أهلكه الله تعالى شر هلكة ، جزاء كفره وعناده .

النص الرابع : من سورة الأعراف :

وهو قوله تعالى : ﴿ **وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا ياموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون . إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون . قال أغير الله أبغيكم إلها وهو فضلكم على العالمين** ﴾ .

بعد أن وضح من النصوص السابقة موقف موسى عليه السلام من فرعون ، وبان

كيف دعاه موسى للإيمان فلم يستجب حتى أهلكه الله بالغرق مع جنوده فى بحر القلزم ، وهو يطارد بنى إسرائيل بقيادة موسى (عليه السلام) وأنجى الله موسى ومن معه من كيده وشره ، ولكن بنى إسرائيل الذين عاشوا طويلا فى مصر يعبدون آلهة المصريين سرعان ماحنوا إلى قديمهم ، وتشوقوا إلى رجسهم ، فما كادوا يشاهدون عَبَدَة الأصنام فى الجانب الشرقى من البحر بعد عبوره حتى واجهوا موسى بطلب غريب يدل على جهلهم وغباوتهم ، وما انطوت عليه نفوسهم من طبع لئيم وخلق دنىء فطلبوا من موسى أن يصنع لهم صنما يعبدونه من دون الله ؛ طلبوا ذلك من موسى الذى جاءهم بالتوحيد ، ودعاهم إلى التمسك به ، كما دعا قبلهم فرعون الذى كان عاقبته الغرق والإهلاك أمام أعينهم ، لعدم استجابته للتوحيد والإيمان بالله رب العالمين . ومشهد هلاكه مازال ماثلا فى أذهانهم ، وأمام أعينهم ، فلم يتعظوا بذلك ، وطلبوا هذا المطلب السخيف : جحوداً وكفراً بنعمة الله تعالى عليهم .

وقوله تعالى : ﴿ **وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر** ﴾ أى عبرنا بهم البحر إلى الجانب الآخر فجاوزوه وخلفوه وراء ظهورهم . والمراد بالبحر : هو بحر القلزم المعروف الآن بالبحر الأحمر .

وقوله : ﴿ **فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم** ﴾ أى : مروا على قوم يداومون على عبادة الأصنام ولا يفارقونها . قيل هؤلاء القوم من لخم أو من لخم وجذام ، وقيل من العرب الذين كانوا بالقرب من الحدود المصرية . فقالوا أى بنو إسرائيل لموسى عليه السلام اصنع لنا صنما نعبده كما أنه لهؤلاء القوم أصناما يعبدونها .

وقوله : ﴿ **قال إنكم قوم تجهلون** ﴾» أى كان رد موسى عليهم أنه غضب لهذا المطلب ورماهم بالجهل الكامل الشامل الذى يعم سفه النفس وفساد العقل وسوء التقدير ، وكفران النعمة وعدم الاتعاظ ؛ وذلك لأنهم رغبوا فى الضلال ، وعبادة الأصنام ، ومالوا إلى الفساد ، ولم يشكروا الله على نعمة إنجائهم من عدوهم بتوحيد الله تعالى والإقبال على طاعته ، بل رغبوا عن التوحيد ملة أبيهم إبراهيم بعد أن جددت لهم على يد نبيهم موسى (عليه السلام) ، واستحقوا ما وصف الله به كل مائل عن هذا الهدى النبوى والملة الحنيفية السمحة فقال تعالى : ﴿ **ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه** ﴾ . [من الآية ١٣٠ : البقرة] .

وقوله : ﴿ **إن هؤلاء متبر ماهم فيه وباطل ماكانوا يعملون** ﴾ .

استئناف : يبين به موسى لبنى إسرائيل أن ما عليه هؤلاء العابدون للأصنام الذين يريدون أن يقلدوهم فيه هو أمر قبيح فى نفسه ، وباطل ، سوف يصير إلى الهلاك والدمار . وسوف تعلو فى هذه الأرض كلمة الله ، ويرتفع شأن التوحيد ، وتخمد عبادة الأصنام . ومعنى (متبَّر) أى هالك مؤخوذ من التتبر بمعنى الإهلاك والتكسير والتحطيم . وقوله : ﴿ **أغير الله أبغيكم إلها وهو فضلكم على العالمين** ﴾ .

استفهام إنكارى : يوبخ فيه موسى بنى إسرائيل على مطلبهم السخيف بعد أن بين لهم أن الله وحده هو المستحق للعبادة ، فهو القادر الذى أهلك عدوهم ، وهو المنعم الذى حباهم بكثير من النعم ، فهو وحده المتصف بصفات الألوهية ، وصفات الربوبية . وليس شىء من هذه الأصنام التى يريدون عبادتها . له أدنى شىء من هذه الصفات . وفى هذه الآية تذكير لبنى إسرائيل بنعم الله عليهم الموجبة لإفراده بالعبادة ، والخضوع له وحده . والمعنى كيف أطلب لكم إلها غير الله ، وهو وحده الذى فضلكم على العالمين ؟ أى على سائر الموجودات فى عصركم وذلك بأن جدد لكم التوحيد على يدى وعلى يد هارون ومن كان معهما من أنبياء بنى إسرائيل الذين جاءوا جميعا ، لتجديد الدين وإحياء ما درس من ملة الخليل إبراهيم وهى ملة الإسلام الحنيفية السمحة التى تدعو الجميع إلى إفراد الله تعالى بالعبادة ، والخضوع لسلطانه ، وتخصيصه بالشكر على نعمائه .

النص الخامس : من سورة الأعراف أيضاً :

وهو قوله تعالى : ﴿ **واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسداً له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين . ولما سقط فى أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين . ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا قال بئسما خلفتمونى من بعدى أعجلتم أمر ربكم وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه قال ابن أم إن القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى فلا تشمت بى الأعداء ولا تجعلنى مع القوم الظالمين . قال رب اغفر لى ولأخى وأدخلنا فى رحمتك وأنت أرحم الراحمين** ﴾ .

ما كاد موسى عليه السلام يرد قومه إلى الصواب ، ويعيدهم إلى حظيرة الإيمان ، بعد أن بين لهم فساد ما عليه عُبّاد الأصنام ، حتى ناداه ربه إلى الجبل ؛ ليتلقى التوراة . وقد واعده أربعين ليلة ، فخلَّف على قومه أخاه هارون ، وذهب لمناجاة ربه بعد أن

وصاهم أن يظلوا على التوحيد ، وأن يطرحوا من أنفسهم تماما عبادة الأصنام ، ولكن داء بنى إسرائيل العضال قد عاودهم فى غيبته ، فصنع لهم السامرى من الحلى الذى استعاره نساؤهم من نساء مصر عجلا جسدا له خوار ، وقال لهم : هذا إلهكم وإله موسى ، فعبدوا العجل ، وأخذوا يأكلون ويشربون ويتراقصون حوله ، فلما نصحهم هارون ببطلان ذلك ونهاهم عن عبادة غير الله نهروه وهموا بقتله . فلما عاد موسى ورأى مارأى ؛ غضب لله غضبا شديداً ، فألقى الألواح وأخذ يعاتب هارون بعنف وشدة ، ولكن هارون اعتذر له بأنه نصحهم ولكن القوم لا يحبون الناصحين . ثم قام بإحراق هذا العجل على ملأ من بنى إسرائيل ، وعاقب السامرى فى الدنيا : بأن لا يمسه أحد من الناس ولا يمس أحداً فكتبت عليه العزلة التامة ، وتوعده فى الآخرة بالعذاب الأليم . وبهذا التصرف يكون موسى (عليه السلام) قد قضى على هذه الفتنة ، وأعاد قومه إلى التوحيد وعبادة الله رب العالمين .

هذا وقد قال المفسرون : إن السامرى جمع من نساء بنى إسرائيل هذا الحلى بحجة أنه لا يحل لهن لأنه فى الحقيقة ملك نساء مصر استعاره نساء بنى إسرائيل منهن ، وقد كان السامرى خبيثاً فى جمع هذا الحلى حيث جمعه باسم الدين ، وبحجة عدم حله ، فلما جمعه وصار تحت يده استخدمه ضد الدين أسوأ استخدام ، حتى صرفهم به عن عبادة الله ، وأوقعهم فى الشرك .

وأما الخوار الذى كان يحدثه هذا العجل بعد صنعه : فقد اختلف المفسرون فيه « فقال بعضهم : إن العجل صار لحماً ودماً ودبت في الحياة بقدرة الله : زيادة فى إغوائهم وامتحانهم ، فكان يحدث صوتاً حقيقياً . وقال بعضهم بل إنه ظل ذهباً ؛ غاية الأمر أن اللعين جعله مجوفا فإذا مر الريح بداخله أحدث صوتا : أى يدخل الريح من فمه ويخرج من دبره فيحدث هذا الصوت . أو أن الشيطان كان يدخل به ويحدث هذا الصوت : زيادة فى الإغواء والتلبيس عليهم .

وقوله تعالى : ﴿ **ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا** ﴾ استفهام توبيخ وتقريع لهم . والمعنى أبلَغ بهم الغباء والجهل أنهم لم يفطنوا إلى أن هذا العجل لا يستطيع أن يتكلم بكلام البشر ، بله الإله . ولا يستطيع أن يدلهم على طريق : لا بالكلام ولا بالإشارة كما يدل البشر . بله إرشاد الإله لأنبيائه ورسله . أى أن صفات الإله الحق الذى ينبغى أن يفرد بالعبادة . أن يكلم رسله وأنبياءه بوحى فيه هدايتهم ، وهداية البشر

أجمعين . وليس كذلك هذا العجل الذى زعموه إلها . ثم قرر القرآن ظلمهم البين فى عبادة هذا العجل واتخاذه إلها من دون الله فقال : ﴿ **اتخذوه وكانوا ظالمين** ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ **ولما سقط فى أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا** ﴾ إشارة إلى حالهم بعد أن جاءهم موسى ، وأوضح لهم حقيقة الحال ، وحرق هذا العجل ، وردهم إلى الصواب ، فندموا على ماحدث ، وعضوا أيديهم بأفواههم : ندما وحسرة ، ورضوا بحكم موسى فيهم ، وقالوا : ﴿ **لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين** ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ **ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا قال بئسما خلفتمونى من بعدى** ﴾ . يشير إلى حال موسى بعد رجوعه من مناجاة ربه ، فجاءهم وهو يحمل الألواح التى فيها التوراة فوجد القوم على حالهم من عبادة العجل ، يدورون حوله ويتراقصون فغضب غضبا شديداً مشوباً بالحزن الشديد : على ما وقع فيه القوم ، فقال لهم مؤنّباً وموبخاً : « بئس ما خلفتمونى من بعدى حيث أوصيتكم بالتوحيد ، وتركتكم عليه فغيرتم وبدلتم » . وقوله : ﴿ **أعجلتم أمر ربكم** ﴾ ذم لهم وتقريع . والمعنى أسبقتم بعبادة العجل ما وصيتكم به من التوحيد وإخلاص العبادة لله حتى آتيكم بكتاب الله ، فغيرتم وعبدتم العجل ، ولم تصبروا حتى أعود .

وقد روى أن السامرى قال لهم : هذا إلهكم وإله موسى الذى ذهب لمناجاته ، أن موسى لن يعود ، وقد مات . فاغتروا بذلك ، خصوصا وأن موسى قد وعدهم بعين يوما ، فعدوا اليوم يوما والليلة يوما ، فلما بلغوا عشرين يوما اعتبروا أن الميعاد قد انتهى ، فصدقوا السامرى فى ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ **وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجرّه إليه** ﴾ .

أى إن موسى (عليه السلام) وضع الألواح فى عَجلة ؛ لتفرغ يده منها ؛ حتى يتمكن من الأخذ برأس هارون فى عنف ، وكان ذلك كله غضبا لله ، فليس فيه إهانة للتوراة : التى هى كتاب الله ووحيه ، فحاشا لموسى النبى المعصوم أن يقصد هذا أو يتوجه ذهنه إليه . فليس فى الأمر إلا العجلة فى وضع الألواح ، وهذه العجلة ناشئة من الغيرة لله ، فلا حرج ولا إثم فى ذلك . وكان أخذه (عليه السلام) برأس هارون وجذبه فى عنف ؛ لظنه أنه قصَّر فى نصيحة بنى إسرائيل حتى وقعوا فيما وقعوا فيه ، ولكن هارون (عليه السلام) استعطفه وخفف من غلوائه . فذكره بوشيجة الرحم التى بينهما ، وأعلمه أنه ما قصر بل نصح وأرشد ، ولكن القوم لا يحبون الناصحين ،

حتى تعرضوا له بالأذى وهددوه بالقتل . فقال له ﴿ **ابن أم إن القوم استضعفونى ، وكادوا يقتلوننى ، فلا تشمت بى الأعداء ولا تجعلنى مع القوم الظالمين** ﴾ . فقبل موسى (عليه السلام) عذره ، وطلب له ولأخيه المغفرة والرحمة ، فقال : ﴿ **ربّ اغفر لى ولأخى وأدخلنا فى رحمتك وأنت أرحم الرّاحمين** ﴾ .

بذلك يكون موسى وهارون (عليهما السلام) قد قاوما الشرك فى بنى إسرائيل كلما هموا به ، وحنوا إليه ، ودعوا إلى التوحيد وعبادة الله وحده حتى استقام أمر القوم .

النص السادس : من سورة إبراهيم :

وهو قوله تعالى : ﴿ **ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور وذكرهم بأيام الله إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور . وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم . وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد . وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن فى الأرض جميعا فإن الله لغنى حميد** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **ولقد أرسلنا موسى بآياتنا** ﴾ الواو عاطفة لقصة موسى على قصة نبينا محمد ﷺ المذكورة فى أول السورة بقوله ﴿ كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور ﴾ ، فكما أن الله تعالى أرسلك يامحمد ، وأنزل عليك كتابا ؛ لتخرج به الناس من الظلمات إلى النور ، فكذلك أرسلنا قبلك موسى (عليه السلام) وأنزلنا عليه كتابا : هو التوراة : ليخرج به بنى إسرائيل من الظلمات إلى النور . واللام موطئة القسم ، والتقدير : والله لقد أرسلنا .

وقوله ﴿ **بآياتنا** ﴾ أى المعجزات التى أعطيناك إياها ، والتى من أهمها اليد والعصا ، فقد كان (عليه السلام) يدخل يده فى طوق قميصه ، ثم يخرجها ، فيكون لها شعاع يغلب شعاع الشمس ، وأما العصا فكانت تنقلب ثعبانا عظيما بإذن الله ، فتبتلع حبال وعصى السحرة التى خيلوا للناس بسحرهم أنها ثعابين تتحرك ، وكان له (عليه السلام) فى هذه العصا مآرب وأغراض : كما ذكر الله تعالى فى سورة طه .

ومن معجزاته أيضاً (عليه السلام) أن أصاب الله فرعون وقومه بالجدب والقحط فى واديهم ، ونقص ثمراتهم وزروعهم ، كما قال الله تعالى ﴿ **ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون** ﴾ . [الآية ١٣٠ : الأعراف] .

وذلك تأييد لنبيه موسى (عليه السلام) وجزاء لآل فرعون على مخالفتهم لدعوته .

ومنها أيضا : ما أرسله الله على آل فرعون من الطوفان الذى أهلك زروعهم ومساكنهم ، والجراد الذى أكل أشجارهم وأثمارهم وأعشابهم ، وترك أرضهم سوداء قاحلة ، والقمل الذى آذاهم ، والضفادع التى خرجت من النهر والجداول التى غطت أرضهم وضايقتهم فى معاشهم ونومهم ، والدم الذى اختلط بالمياه حتى ماتت الأسماك . قال تعالى فى ذلك : ﴿ **فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين** ﴾ . [الآية ١٣٣ : الأعراف] .

ومنها أيضا : الطمس على أموال آل فرعون : كما قال تعالى : ﴿ **ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم** ﴾ . [من الآية ٨٨ : سورة يونس] .

والدليل على أن هذه الأشياء ومعجزات لموسى (عليه السلام) قول بنى إسرائيل معاندين كما حكاه الله عنهم : ﴿ **وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين** ﴾ . [الآية ١٣٢ : الأعراف] .

وكان لموسى عليه السلام آيات غير ما ذكر كفلق البحر ، وضرب الحجر بعصاه فانبجست منه اثنتا عشرة عينا إلى غير ذلك . ولعل الله (تعالى) أكثر له من المعجزات الحسية بجوار ما أعطاه من التوراة لبلادة بنى إسرائيل وغفلة عقولهم .

وقوله تعالى : ﴿ **أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور** ﴾ (أن) مفسرة فتؤول بأى لأن ما قبلها وهو أرسلنا فيه معنى القول دون حروفه ، ويمكن أن تكون مصدرية : تؤول مع مابعدها بمصدر ، ويكون حرف الجر قبلها مقدر ، والتقدير : أرسلناه بأن أخرج .. الخ .

والمراد بقومه : بنو إسرائيل ؛ لأن آل فرعون ليسوا من قومه . وقوله ﴿ **من الظلمات** ﴾ أى ظلمات الجهل والغفلة وعبادة الأصنام ، والإشراك بالله . وقوله : ﴿ إلى النور ﴾ أى نور الإيمان والمعرفة وطاعة الله ، وإفراده بالعبادة وحده .

وقوله تعالى : ﴿ **وذكّرهم بأيام الله** ﴾ أى نعمه عليهم من إخراجهم من أسر فرعون ، وإنجائهم منه ، بعد إهلاكه ، وفلق البحر لهم ، وإنزال المن والسلوى وتظليل الغمام ، إلى غير ذلك من النعم الكثيرة ، التى أفاضها الله عليهم ، لعلهم يشكرون . أو المعنى

ذكرهم بالوقائع التى وقعت للأمم قبلهم ، حين كذبت أنبياءها ، فأهلكها الله ؛ كقوم نوح وقوم هود وقوم صالح وذكر ذلك لهم على سبيل الإنذار والتخويف ، لعلهم يرهبون . وسميت هذه الوقائع أياما كما تسمى العرب حروبها وملاحمها بذلك ، فتقول : أيام العرب .

وقوله تعالى : ﴿ **إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور** ﴾ تذييل ختم به الآية ؛ يدعو إلى العظة والاعتبار والانتفاع بهذه الذكريات : سواء كانت أيام محن أو كانت نعما ، فالمؤمن هو الذى إذ ابتلى صبر ، فنال أجر الصابرين وإذا أنعم عليه شكر ، فنال أجر الشاكرين .

قوله تعالى : ﴿ **وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم .. الخ** ﴾ لما أمر موسى أن يذكر قومه بنعم الله عليهم ذكرهم بهذه النعمة العظيمة ، وهى إنجاؤهم من فرعون ، الذى كان يذبح الذكور منهم ويستبقى الإناث . وفى هذه النعمة ابتلاء عظيم لبنى إسرائيل ليرى الله هل هم قادرون على شكرها بالطاعة لله أم عاجزون عن ذلك ؟

وقوله تعالى : ﴿ **وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد** ﴾ . تأذن : أى آذن ، مثل توعّد وواعد وما فيه من التفعّل يدل على المبالغة فكأنه قال : وإذ آذن ربكم إيذانا بليغا ليس فيه شبهة أو شك ، وهو من جملة كلام موسى عليه السلام فهو معطوف على (نعمة) فى قوله : ﴿ **اذكروا نعمة الله عليكم** ﴾ والتقدير : اذكروا حين قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليه واذكروا حين تأذن ربكم . ويصح أن يكون المعنى ﴿ **وإذ تأذَّن ربكم** ﴾ أى آذنكم وأعلمكم بوعده . ويصح أن يكون بمعنى القسم أى أقسم وآلى بعزته وجلاله وكبريائه . وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ **وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة .. الخ** ﴾
[من الآية ١٦٧ : الأعراف] .

وقوله ﴿ **لئن شكرتم لأزيدنكم** ﴾ أى لئن شكرتم يابنى إسرائيل ما أنعمت به عليكم كالإنجاء من فرعون وغير ذلك لأزيدنكم نعماً أخرى . قال ابن عباس رضى الله عنهما : لئن شكرتم بالجد فى الطاعة لأزيدنكم بالجد فى المثوبة . وقوله : ﴿ **ولئن كفرتم إن عذابى لشديد** ﴾ أى لئن كفرتم بما أنعمت به عليكم ، وجحدتموه إن عذابى لشديد لمن كفر بنعمتى : أما فى الدنيا فبسلبها عنه : وأما فى الآخرة فبالعذاب الأليم فى النار . ثم بين لهم موسى أن الله تعالى غنى عن بنى إسرائيل وغيرهم من خلقه ، فلا تنفعه طاعة الطائع ،

ولا تضره معصية العاصى ، فهو الغنى عن عباده جميعا الحميد ، ولو لم يحمده عباده فهم وإن لم يحمدوه بلسان المقال ، فهم حامدون بلسان الحال ؛ لأن وجودهم وخلقهم دليل على كمال قدرة الله ، فإذا رآهم الرائى حمد الله فهو تعالى المحمود على كل حال .

ذكّر موسى قومه بهذا فقال : ماحكاه الله عنه ﴿ **وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن فى الأرض جميعا فإن الله لغنى حميد** ﴾ . ومعنى ذلك أنكم إن كفرتم ولم تحمدوا الله أوقعتم الضرر بأنفسكم ولم تضروا الله لأنه غنى عنكم وعن عبادتكم .

دعـوة هارون عليه السلام

من المعلوم أن هارون أخو موسى (عليهما السلام) وهو شريكه فى الرسالة وعونه فى الدعوة وقد خاطبهما الله تعالى بضمير التثنية عندما أمرهما بالذهاب إلى فرعون فقال لهما : ﴿ **اذهبا إلى فرعون إنه طغى * فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى * قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى * قال لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى * فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى ..** ﴾ [الآية ٤٣ – ٤٧ : طه] .

وكان عليه السلام إذا دعا موسى أمّن على دعائه ، وإذا غاب استخلفه على بنى إسرائيل ، فدعوتهما (عليهما السلام) دعوة واحدة هى الدعوة إلى التوحيد الخالص ، وإلى إفراد الله تعالى وحده بالعبادة ، ولما ذهب موسى لمناجاة ربه أربعين يوما خلفه على بنى إسرائيل ، وأوصاه أن يصلح فيهم وأن يقيم عقيدة التوحيد ، ويحول بينهم وبين الوقوع فى الشرك ، ولما وقعت فتنة العجل الذى صنعه لهم السامرى ، ودعاهم إلى عبادته ، وزعم لهم أنه الإله الذى ذهب موسى لمناجاته ، فأقبلوا على عبادته ، نهاهم هارون عن ذلك أشد النهى ، وذكّرهم بنعم الله عليهم ، وأنه لا ينبغى لهم أن يتورطوا فى هذا الشرك والإثم المبين الذى طهرهم الله منه ، ولكنهم عاندوا ، وهموا أن يبطشوا به ، ومع هذا لم يقصر (عليه السلام) فى نصحهم وإرشادهم ، شهد له ربه بذلك المجهود . فقال فى حقه : ﴿ **ولقد قال لهم هارون من قبل ياقوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعونى وأطيعوا أمرى** ﴾ . [الآية ٩٠ : سورة طه] .

والمعنى والله لقد قال هارون لبنى إسرائيل من قبل أن يعود إليهم موسى ومن أول الأمر فى بدء عبادتهم لهذا العجل : ياقوم مخاطبا لهم بنسبتهم إليه فى القرابة والجنس ؛ ليستجيش عواطفهم وليفهمهم أنه منهم ومن بنى جلدتهم فهو لهم ناصح أمين يعنيه

أمرهم ويضمر لهم الخير ، ﴿ إنما فتنتم به ﴾ أى وجود هذا العجل فتنة لكم واختبار لعقيدتكم فلا تسقطوا فى هذه الفتنة ولا تطيعوا السامرى فى دعوتكم لعبادة عجله .

فليس هو إلهكم وإله موسى كما زعم لكم ، فلا يملك لكم هذا العجل نفعاً ولا ضراً ، فما هو إلا صنم من الأصنام التى استذلتكم فى مصر ﴿ **وإن ربكم الرحمن** ﴾ أى إن إلهكم الحقيقى الذى يستحق العبادة ، ليس هذا العجل ، وإنما هو الرحمن الذى خلقكم ورزقكم ورباكم بنعمه ، وأنجاكم من عدوكم برحمته ، ﴿ **فاتبعونى وأطيعوا أمرى** ﴾ أى اتبعونى فيما آمركم به وأنهاكم عنه وأطيعوا أوامرى فإنها نافعة لكم قصدى بها أن أنصحكم وأهديكم إلى طريق الرشاد . بهذا يكون (عليه السلام) قد حارب الشرك قدر استطاعته ، ودعا إلى التوحيد ، وإخلاص العبادة لله وحده ، وإبطال عبادة الأصنام .

دعوة إلياس عليه السلام

اختلف المفسرون فى إلياس (عليه السلام) فقال بعضهم هو إلياس بن ياسين ، من ولد هارون ، شقيق موسى (صلوات الله وسلامه عليهم) أجمعين . وقال بعضهم : هو إدريس (عليه السلام) واستدل على هذا بقراءة ابن مسعود : « وإن إدريس لمن المرسلين » ، بدل (إلياس) . وهذا قول قتادة ، ومحمد بن إسحاق ، والضحاك . والأول حكاه وهب بن منبه ، وأكثر المفسرين على أنه نبى من أنبياء بنى إسرائيل . أرسله الله تعالى إليهم ، فدعاهم إلى عبادة الله تعالى وحده ، بعد أن كانوا قد عبدوا الأصنام ، وأشركوها مع الله ، وكان من أشهرها صنم يقال له بعل أنكر عليهم أن يعبدوه ، ويتركوا عبادة الله المستحق للعبادة ، فهو ربهم ، وخالقهم ، ورازقهم ، والمتفضل عليهم بسائر النعم . وكان من أمره (عليه السلام) : ما قصه علينا القرآن الكريم فى قوله تعالى ﴿ **وإن إلياس لمن المرسلين * إذ قال لقومه ألا تتقون * أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين * الله ربكم ورب آبائكم الأولين** ﴾ .

[الآيات من ١٢٣ – ١٢٦ : الصافات]

وقد أكدت الآية الأولى أن إلياس مرسل من قبل الله تعالى . وذلك بتصدير الجملة (بإن) الدالة على التوكيد ، وزيادة اللام على خبر إن وكذلك إسمية الجملة .

وقوله تعالى : ﴿ **إذ قال لقومه ألا تتقون** ﴾ معناه واذكر حين قال إلياس لقومه ألا تتقون الله ، أى ألا تخافون عقابه ، حتى ارتكبتم هذا الإثم الشنيع وهذا الضلال المبين ،

من عبادة غيره ، وترك عبادته تعالى ، ففيه إنكار شديد عليهم ؛ لوقوعهم فى الشرك ، وعكوفهم عليه ، بعد أن منّ الله عليهم بهدايته ، وأرسل فيهم الرسل ، وأنزل إليهم التوراة : تخرجهم من الظلمات إلى النور . ثم واجهم بكفرهم ، وشركهم ناعياً عليهم ذلك أشد النعي ومنكره عليهم أشد الإنكار ، فقال ماحكاه الله عنه : ﴿ **أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين** ﴾ . فالهمزة هنا للاستفهام الإنكارى ، ومعنى « تدعون » أى تعبدون لأن العابد يدعو معبوده دائماً يطلب منه حوائجه ويناديه دائما طالبا منه نفعه وكشف ضره . وقد كانوا يفعلون ذلك مع الأصنام فلا يكفون عن ندائها فى كل أمر انتابهم ، وكل خير أصابهم ، يتوجهون بالشكر إليها ، فيذبحون عندها ، ويخضعون لها أشد الخضوع . وكلمة ﴿ **بعلا** ﴾ اختلف المفسرون فيها فقال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة والسدى معناها (ربا) وقد قيل إنها لغة أهل اليمن أو لغة أزد شنوءة . وقال الضحاك هو اسم صنم . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم رواية عن أبيه هو اسم صنم كان يعبده أهل المدينة يقال لها بعلبك غربى دمشق .

وأياً ما كان فقد أنكر عليهم إلياس عبادة هذا الصنم وتركهم عبادة الله الذى لا إله غيره ولا رب سواه فهو وحده المستحق للعبادة ؛ لأنه الخالق الرازق ، وهو أحسن الخالقين أى المقدرين . فالمراد بالخلق هنا التقدير والتصوير ، وليس الخلق الحقيقى أى الاختراع والابتكار والإيجاد من العدم على غير مثال سابق . فهذا الأمر مختص بالله تعالى وحده لا يشاركه فيه أحد من خلقه حتى يقال إنه تعالى أحسنهم وأفضلهم . ثم بين لهم صفات الله تعالى الخالق لهم الذى يستحق العبادة لما له من صفات القدرة العظيمة التى يدل عليها خلقهم وتصويرهم فى أحسن صورة . بين لهم أنه أيضا موصوف بصفات الربوبية ليس لهم وحدهم بل ولآبائهم من قبلهم فقال لهم ما حكاه الله عنه : ﴿ **الله ربكم ورب آبائكم الأولين** ﴾ ولفظ الجلالة وكلمتى (رب) كل ذلك منصوب بالعطف أى عطف البيان على كلمة أحسن الواقعة مفعولا لتذرون ، وفى قراءة هذه الكلمات بالرفع على أن الجملة مستأنفة . وفى ذلك كله دعوة صريحة من إلياس (عليه السلام) إلى قومه بأن يطرحوا عبادة الأصنام ، ويقبلوا على عبادة الواحد الديان مصحوبة هذه الدعوة بالدليل والبرهان والإنكار الشديد على الشرك وأهله ، والحض الشديد على توحيد الله وإخلاص العبادة له وحده (جل وعلا) .

دعوة لقمان إلى التوحيد

اختلف العلماء فى أمر لقمان ونسبه فمن قائل :

إنه كان عبداً حبشيا ، ومن قائل : إنه كان ابن أخى موسى (عليه السلام) ومن قائل : إنه كان ابن أخت أيوب ، إلى غير ذلك ، وأما فى أمره فقد قالوا أيضا : إنه كان حكيما ، كما قالوا أيضا : إنه كان نبيا .

وقيل : كان قاضيا فى بنى إسرائيل وجمهور العلماء على أنه حكيم من الحكماء ، والذى يعنينا من هذا كله ما حكاه القرآن على لسانه : من الدعوة إلى التوحيد ، والتحذير من الإشراك بالله (تعالى) فى صورة موعظة أو نصيحة يوجهها إلى ابنه ، وإن كانت فى الحقيقة مسوقة لكل من سمعها وللناس أجمعين .

قال تعالى : ﴿ **ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غنى حميد * وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يابنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم** ﴾ . [الآيتان ١٢ ، ١٣ : سورة لقمان]

قوله تعالى : ﴿ **ولقد آتينا لقمان الحكمة** ﴾ الحكمة هى : الفهم والعلم والتعبير ، وروى عن قتادة أنها الفقه فى الإسلام .

وقيل : هى الإصابة فى القول والعمل . وقيل : هى العلم والعمل به ، ولا يسمى الرجل حكيما حتى يجمعهما معاً . وقيل : هى شيء يجعله الله فى القلب : ينوره به كما ينور البصر فيدرك المبصر . وقد أعطى لقمان ذلك كله من الله تعالى ، ولكن لم يعط النبوة فلم يوح الله تعالى إليه بشىء كما هو رأى جمهور العلماء .

وقوله تعالى : ﴿ **أن اشكر لله ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه .. الخ** ﴾ . أى أمرناه أن يشكر الله على ما وهبه من النعم التى امتاز بها عن أهل زمانه . وبعض المفسرين جعل « أن » مفسرة ، والمعنى عليه آتيناه الحكمة أى الشكر لله فقد فسر الحكمة التى وهبها الله لقمان بالشكر له تعالى . ومعلوم أن الشكر يكون بالقلب وذلك باعتقاد وجود الله تعالى ، واعتقاد أنه يجب له كل كمال يليق بذاته المقدسة ، وأنه منزه عن كل نقص ، وكذا الإيمان بكل ما وجب الإيمان به : مما جاء فى القرآن الكريم أو فى سنة صحيحة .

وشكر اللسان ذكره (جل وعلا) وتسبيحه وتحميده وتكبيره وحمده والثناء عليه ، وشكر الجوارح باستخدامها فى طاعته (جل وعلا) .

قال الإمام النسفى عند تفسير هذه الآية : (وأن فى « أن اشكر لله » مفسره والمعنى أى اشكر لله ؛ لأن إيتاء الحكمة فى معنى القول[1]، وقد نبه الله تعالى على أن الحكمة الأصلية والعلم الحقيقى هو العمل بهما ، وعبادة الله ، والشكر له ، حيث فسر إيتاء الحكمة بالحث على الشكر ، وقيل : لا يكون الرجل حكيما حتى يكون حكيما فى قوله وفعله ومعاشرته وصحبه . وقال السرى السقطى : الشكر أن لا تعصى الله بنعمه . وقال الجنيد : أن لا ترى معه شريكا فى نعمه . وقيل : هو الإقرار بالعجز عن الشكر . والحاصل أن شكر القلب المعرفة ، وشكر اللسان الحمد ، وشكر الأركان الطاعة ، ورؤية العجز فى الكل دليل قبول الكل) ا هـ . كلام النسفى .

وقوله ﴿ **ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه** ﴾ أى إن فائدة شكره عائدة إلى العبد الشاكر فينال عليه أجر الشاكرين من الله تعالى . وقوله ﴿ **ومن كفر فإن الله غنى حميد** ﴾ أى ومن جحد النعمة ولم يشكرها فضرر ذلك لا يقع إلا عليه ؛ لأن الله تعالى غير محتاج إلى طاعة الطائع ، ولا تضره معصية العاصى ؛ فإنه غنى عن أهل الأرض جميعاً لا تضره معصيتهم ولو عصوه ، وهو المحمود ولو لم يحمده أحد من خلقه ؛ فإن وجود هذه الكائنات ناطق بكمال قدرته ، ولسان حالهم شاهد بأنه لا إله إلا هو الكبير المتعال . قوله تعالى : ﴿ **وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يابنى لا تشرك بالله** ﴾ .

(إذ) ظرفية ، والعامل محذوف تقديره : اذكر ، ووصية لقمان هذه موجهة إلى ابنه فلذة كبده وأحب الناس إليه فلا شك أنه يمنحه أعز ما يعرف مما أعطاه الله من الحكمة ؛ لأنه أحرص الناس على نفعه . وجملة ﴿ **وهو يعظه** ﴾ حالية ، والتقدير قال له كذا وكذا حالة كونه واعظاً له . والتصغير فى قوله ﴿ **يابنى** ﴾ للاشفاق عليه والرحمة به ومحبته . وقوله : ﴿ **لا تشرك بالله** ﴾ نهى قاطع عن اعتقاد الشريك مع الله سواء فى القول أو فى العمل أو فى العقيدة ، فهى وصية له أن لا يعتقد بقلبه الشريك مع الله لا من الإنس ولا من الجنس ولا من الملائكة ولا من الحيوان ولا من الجماد ولا من سائر المخلوقات ولا ينطق بلسانه ما يشير إلى ذلك من قريب أو بعيد ، وأن لا يتوجه بالعبادة إلى غير الله ، فلا يخضع إلا لله ، ولا يدعو إلا الله ، ولا يذبح إلا لله ، ولا يلجأ فى كربه إلا لله ، ولا يشكر فى سرائه إلا لله . ولذلك نرى الآية الكريمة حذفت مفعول تشرك لإفادة هذا العموم . وقوله تعالى : ﴿ **إن الشرك لظلم عظيم** ﴾ فيه تقبيح

---

(١) يشير إلى القاعدة النحوية .

للشرك بعد أن نهاه عنه وكان هذه الجملة علة للنهى المتقدم .

وكان الشرك ظلما ؛ لأن فيه تسوية بين الخالق والمخلوق فى استحقاق العبادة ، وهذا ظلم ؛ لأنه وضع للشيء فى غير موضعه ، قال تعالى منكراً على عبدة الأصنام فى أسلوب تعجبى إنكارى : ﴿ **أفمن يخلق كمن لا يخلق** ﴾ . [من الآية ١٧ من سورة النحل] . بل إن هذا من أقبح أنواع الظلم .

روى البخارى بسنده عن ابن مسعود قال : (لما نزلت ﴿ **ولم يلبسوا إيمانهم بظلم** ﴾ . [من الآية ٨٢ : من سورة الأنعام] . قال أصحابه : وأينا لم يظلم ؟ فنزلت : ﴿ **إن الشرك لظلم عظيم** ﴾ [صحيح البخارى باب التفسير ص٧١ جـ٦ ط الشعب] .

دعـوة عيسى عليه السلام

أرسل الله تعالى عبده ورسوله عيسى (عليه السلام) قبيل محمد ﷺ مباشرة فليس بينهما فى الزمن نبى . وكانت رسالة عيسى (عليه السلام) لبنى إسرائيل خاصة ، وكانت عقيدتهم قد مالت إلى الشرك ، وقد حرفوا كثيراً من التوراة ، التى جَاء بها موسى (عليه السلام) فأرسل الله تعالى إليهم عيسى بعد أن خلقه خلقة غريبة عجيبة حيث ولد من أم بلا أب ، وأظهر الله على يديه خوارق العادات منذ صغره ، ودعا إلى الله وهو فى مهده ؛ لذا كان حديث القرآن عنه أغلبه فى أمر التوحيد وعدم اتخاذ آلهة مع الله .

وهاك النصوص القرآنية الواردة فى حقه :

١ – قال الله تعالى : ﴿ **... وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون * إن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم** ﴾ . [ختام الآية ٥٠ ، الآية ٥١ : آل عمران] .

٢ – قال تعالى : ﴿ **لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يابنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرّم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار * لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم** ﴾ . [الآيتان ٧٢ ، ٧٣ : المائدة] .

٣ – قال تعالى : ﴿ **وإذ قال الله ياعيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله قال سبحانك مايكون لى أن أقول ما ليس لى بحق إن كنت قلته**

فقد علمته تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك إنك أنت علام الغيوب * ماقلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم وكنت عليهم شهيداً مادمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد ﴾ .
[الآيتان ١١٦ ، ١١٧ : المائدة] .

٤ – قال تعالى : ﴿ **قال إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا وجعلنى مباركاً أين ماكنت وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيا * وبراً بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقياً * والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً * ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذى فيه يمترون * ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون * وإن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم ﴾** .
[الآيات من ٣٠ – ٣٦ : مريم] .

٥ – قال تعالى : ﴿ **ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون * إن الله هو ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم ﴾** . [الآيتان ٦٣ ، ٦٤ : سورة الزخرف] .

نظرة فى النصوص المتقدمة :

والناظر فى هذه النصوص المتقدمة يرى أن عيسى (عليه السلام) دعا بنى إسرائيل إلى توحيد الله تعالى ، ونهاهم عما وقعوا فيه من الشرك ، فحذرهم من عقاب الله الأليم – إن هم خالفوا أمره ولم يستجيبوا لدعوته – وأقر على مرأى ومسمع من بنى إسرائيل بأنه مربوب لله تعالى ، مخلوق من مخلوقاته ، وعبد من عباده ، أنعم الله عليه بالنّبوة والهداية إلى الطريق المستقيم كما أنهم هم أيضا عبيد الله تعالى مربوبون مقهورون تحت سلطانه وجبروته ، وبما أنهم كذلك فلابد أن يستقيموا على نهجه ، ويسلكوا طريقه ، الذى رضيه لهم . وقرر القرآن الكريم أن عيسى عبد لله ، ليس له من صفات الألوهية ولا من صفات الربوبية شىء ، فليس هو الإله ، ولا ابن الإله ، ولا ثالث الآلهة ، كما زعموا . وقد توعد القرآن من قال بذلك بالويل والثبور فى الآخرة .

كما نفت هذه النصوص الإلهية عن أمه مريم فما هى إلا صديقة من عباد الله الصالحين ، يجرى عليها ما يجرى على سائر البشر : من أكل الطعام والمشى فى الأسواق إلى غير ذلك . كما أوضحت الآيات أن عيسى (عليه السلام) اختص بأنه نطق فى مهده بكلام فصيح فيه إقرار منه بأنه عبد لله ، وأن الله أنعم عليه بنعم كثيرة : كإيتائه

الكتاب والنبوة والبركة والبر بوالدته ، وأنه نطق بذلك أيضاً فى كبره ، ودعا بنى إسرائيل إلى توحيد خالقهم ورازقهم الله ربه وربهم ورب العالمين . ثم أكد أن إخلاص العبادة لله وحده هو الطريق المستقيم الموصل إلى السعادة فى الدنيا ، والفوز والفلاح فى الآخرة . هذا ما يستفاد من مجموع هذه الآيات على طريق الإجمال . ثم نشرع الآن فى بيان معانيها على التفصيل فنقول :

النص الأول : من سورة آل عمران :

وهو قوله تعالى : ﴿ ...... **وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون إن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم** ﴾.

قبل هذه الآية مايدل على أن الله تعالى أعطى عبده ورسوله عيسى (عليه السلام) بعض الآيات الدالة على صدقه : كأن يصور لهم من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيصير طيراً يطير بين يديه بإذن الله ، وإبراء الأكمه : أى المولود أعمى ، وكذا إبراء الأبرص ، وإحياء بعض الموتى ، وإخبارهم بما أكلوا من طعام ، وما هو مدخر فى بيوتهم كل ذلك ؛ ليكون معجزة دالة على صدقه فى دعواه النبوة . أشار القرآن إلى هذا كله بقوله : ﴿ **وجئتكم بآية من ربكم** ﴾ فإن تذكيرهم بالمعجزات عند أمرهم بالتقوى والطاعة لله . يكون ألين لقلوبهم ، وأدعى إلى امتثال أمره . ولذا قال لهم بعدها مباشرة ﴿ **فاتقوا الله وأطيعون** ﴾ أى خافوا عقاب الله . وأطيعون فيما آمركم به من توحيد الله والبعد عن الشرك بأنواعه وفى كل ما أدعوكم إليه من طاعة الله وإخلاص العبادة له . ثم ذكرهم بعد ذلك كله بأنه عبد لله ، مربوب له ، فليس هو إله أو ابن الإله ، كما زعم بنو إسرائيل بل هو عبد الله ورسوله ، كما أنهم هم أيضاً عباد الله ، فهو خالقهم ومربيهم بنعمه وإحسانه ، فلا يليق بهم أن يشركوا به شيئاً ، قال تعالى على لسانه ﴿ **وإن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم** ﴾ أى أخلصوا له العبادة وحده ؛ فإن ذلك هو الطريق الوحيد الذى يوصلكم إلى السعادة والفلاح فى الدنيا والآخرة .

النص الثانى : من سورة المائدة :

وهو قوله تعالى : ﴿ **لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يابنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار . لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم** ﴾ . « اللام » موطئة لقسم مقدر ، و« قد » للتحقيق ، والتقدير : والله لقد كفر الذين قالوا كذا وكذا . والقائلون هذا القول الشنيع هم فرقة من النصارى ، تسمى اليعقوبية : نسبة إلى رجل منهم يسمى يعقوب ، كان أول من ابتدع لهم هذا القول . وليست النسبة إلى يعقوب النبى (عليه السلام) ، فحاشاه أن يتورط فى شىء من ذلك . والأصل فى هذه الفرية قولهم إن مريم ولدت إلها ، ومؤداه أن الإله حل فى جسد عيسى (تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا) .

قوله تعالى : ﴿ **وقال المسيح يابنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم** ﴾ هذا هو ردّ عيسى عليهم حين جعلوه إلها ، فكأنه يقول لهم لقد كذبتم فى وصفى بالألوهية ، فلست أنا إلها ، إنما أنا عبد الله ورسوله ، خلقنى بقدرته ، وربانى بنعمه ، وها أنذا أعبده وحده لا أشرك معه غيره ، فهيا أطيعون واعبدوه وحده ولا تشركوا معه غيره من عباده ، ولا المسيح ولا غيره ، لأنه تعالى وحده هو الذى خلقكم ، وأوجدكم من العدم ، وصوركم فأحسن صوركم ، ورزقكم من الطيبات ، فأفردوه بالعبادة ؛ فهو وحده المستحق لذلك . والواو المصدرة بها العبارة واو الحال ، والجملة بعدها حالية ، وصاحب الحال ضمير الفاعل فى قوله المتقدم « قالوا » ، والمعنى قال هؤلاء القوم ماقالوه فى شأن عيسى ، والحال أن عيسى قد تبرأ من قولهم هذا ، وقال لهم اعبدوا الله ربى وربكم .

قوله تعالى : ﴿ **إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة** ﴾ هو حكاية لما قاله عيسى لبنى إسرائيل ، يحذرهم به من عاقبة الشرك ، ويبين لهم مصير المشرك .

والهاء فى « إنه » ضمير الشأن : أى إن الشأن والحال فيمن يشرك أن يئول إلى كذا وكذا . فهذا المصير السيىء ينتظر كل من أشرك أنتم وغيركم والجملة كلها سيقت كالتعليل للأمر بالتوحيد المتقدم : وهو قوله لهم ﴿ **اعبدوا الله ربى وربكم** ﴾ . ومعنى تحريم الجنة على المشرك أى إنه لا يدخلها أبداً ؛ لأن جرمه وذنبه فى الدنيا غير مغفور قطعاً ، فقد قال الله تعالى : ﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به** ﴾ .

[من الآية ١١٦ : النساء] .

قوله تعالى : ﴿ **ومأواه النار وما للظالمين من أنصار** ﴾ . بعد أن بين الله تعالى عقوبة المشرك السلبية بحرمانه من الجنة ونعيمها بين أيضاً عقوبته الإيجابية بدخوله النار ، يأوى إليها ، وتضمه بلهيبها وسعيرها ، ليس له دار غيرها . ففريق فى الجنة وفريق فى السعير

وليس له نصير يمنعه من دخولها ، أو يخفف عنه من ويلاتها وثبورها . وهو فى هذا الذى ظلم نفسه فأوردها مورد الهلاك والعذاب بكفره فى الدنيا وشركه بربه وخالقه .
و(ال) فى « الظالمين » يحتمل أن تكون للعهد : فيكون المراد بالظالمين فريق النصارى الذى قال هذا القول فى شأن عيسى ، ويحتمل أن تكون للجنس : فتتناول كل ظالم مشرك بالله منهم ومن غيرهم ، ويكون هذا الفريق داخلا فى الظالمين دخولا أوَّلياً .
وقد جمع الأنصار هنا ولم يقل ما للظالمين نصير . للإشارة إلى أن الأنصار لو كانوا مجتمعين متعاونين فلا يستطيعون نصرهم ، فمن باب أولى لو كانوا فرادى ، فلا يملكون دفع شيء عنهم ، ولا جلب ما هو نافع . والعبارة كلها من أول قوله تعالى ﴿ **إنه من يشرك بالله** ... **الخ** ﴾ يحتمل أنها من كلام الله تعالى ساقه لتأكيد وتقرير ماقاله عيسى لبنى إسرائيل من دعوتهم إلى التوحيد ، وطرح الشرك . ويحتمل أن تكون من كلام عيسى يعلل ويقرر به دعوته الأولى ، ويكون الله تعالى قد حكاه عنه . وقوله تعالى : ﴿ **لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة** ﴾ . اللام أيضاً موطئة للقسم ، وقد للتحقيق ، وجملة ﴿ **كفر الذين قالوا** ... **الخ** ﴾ جواب القسم . وهذا بيان لما وقع فيه فريق آخر من النصارى فقد جعلوا الآلهة ثلاثة ، وهم النسطورية : نسبة إلى نسطور أحد رهبانهم الذين تزعموا هذه الأكذوبة ، والآلهة الثلاثة فى نظرهم : (الله ، عيسى ، مريم) أو على معنى أن الثلاثة (الأب ، الابن ، روح القدس) ويزعمون أن الثلاثة جوهر واحد وقد عنوا بالأب الذات ، وبالابن الكلمة ، وبالروح الحياة ، وقالوا : إن الأب إله ، والابن إله ، والروح إله ، والثلاثة إله واحد هكذا على غير منطق أو قياس أو عقل سليم ، ولا يمكن لإنسان أن يجعل الثلاثة واحداً ، والواحد ثلاثة إلا إذا كان قد ألغى عقله ، ودخل فى دائرة المجانين .

قال الإمام الرازى – بعد أن ذكر مقالتهم – : (واعلم أن هذا معلوم البطلان ببديهة العقل فإن الثلاثة لا تكون واحداً والواحد لا يكون ثلاثة ، ولا يرى فى الدنيا مقالة أشد فساداً ، وأظهر بطلاناً ، من مقالة النصارى) ا هـ . كلام الرازى .

وقوله تعالى : ﴿ **وما من إله إلا إله واحد** ﴾ بيان للاعتقاد الحق بعد أن كشف عن بطلان اعتقاد النصارى فى الإله ، والجملة مؤكدة بعدة توكيدات منها القصر بما وإلا ، وتنكير إله فى مقام النفى فيفيد العموم ، واسمية الجملة ، وكانت هذه التوكيدات ؛ لأن أمر العقيدة أهم ما فى هذا الدين ، بل هى أساسه الذى يرتكز عليه بنيانه . والمعنى

لقد كفر الذين زعموا أن الله واحد من ثلاثة آلهة فقد كذبوا فى ذلك والحق أنه ليس فى هذا الوجود إله حق يستحق العبادة والخضوع له سوى إله واحد هو الله رب العالمين ، الذى خلق الخلق بقدرته ، ورباهم بنعمته وإليه مرجعهم ومصيرهم ، فيجازيهم على أعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر . قوله تعالى : ﴿ **وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسنّ الذين كفروا منهم عذاب أليم** ﴾ . تحذير لهؤلاء المشركين الذين قالوا هذا القول الفاسد الذى خرجوا به عن توحيد الإله ، فزعموا زوراً وبهتاناً أنه ثالث ثلاثة ، أو أنه حل فى عيسى ، أو أن عيسى ابنه ، أو غير ذلك من أكاذيبهم وضلالهم ، الذى تنزه الله تعالى عنه إن لم يرجعوا عن هذا كله ويعودوا إلى حظيرة التوحيد ليمسنهم عذاب موجع مؤلم لا يستطيعون عليه صبراً ولا يطيقون له حملاً . وقد أكد الله تعالى مس العذاب لهم أى إصابته إياهم بلام القسم ، رداً على زعمهم الفاسد ، حيث ادعوا أن النار لا تمسهم إلا أياما معدودة : هى بعدد الأيام التى عبدوا فيها العجل ، حين ذهب موسى لمناجاة ربه ، وخلف عليهم هارون . وهذا من مزاعمهم الباطلة وقد ردّه الله عليهم فى قوله : ﴿ **وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة * قل أتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله ما لا تعلمون** ﴾ . [الآية ٨٠ : البقرة] .

وعبّر الله تعالى عن عذابهم بالمس للإشارة إلى أن هذا العذاب سوف يصيب جلدهم ، والجلد هو مركز الإحساس ، فكلما احترق الجلد بدلهم الله جلداً غيره ، حتى يكون إحساسهم بالألم مستمراً . قال تعالى : ﴿ **كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب** ﴾ . [من الآية ٥٦ : النساء] .

والتعبير عنهم باسم الموصول وجعل صلته كفرهم إشارة إلى علة هذا التعذيب ، والتقدير عذبوا هذا التعذيب بسبب كفرهم ، ولا يظهر ذلك لو قيل مثلا – ليمسنهم عذاب أليم . و(من) فى قوله « منهم » إما بيانية مثل قوله ﴿ **فاجتنبوا الرجس من الأوثان** ﴾ أو تبعيضية وذلك لأن البعض منهم قد أسلم ، وابتعد عن هذا الإفك ، فيكون قد نجا من هذا الوعيد .

النص الثالث : من سورة المائدة :

وهو قوله تعالى : ﴿ **وإذ قال الله ياعيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله قال سبحانك مايكون لى أن أقول ما ليس لى بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما فى نفسى ولا أعلم مافى نفسك إنك أنت علام الغيوب . ماقلت**

لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم وكنت عليهم شهيداً مادمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **وإذ قال الله ياعيسى ابن مريم** ... الخ ﴾ . الواو عاطفة لمضمون هذه القصة على مضمون ماتقدم من قوله تعالى ﴿ **إذ قال الله ياعيسى ابن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس** ... الخ ﴾ . و(إذ) ظرفية ، والعامل فيها محذوف تقديره اذكر ، والمخاطب بذلك سيدنا محمد ﷺ ، والتقدير : واذكر يامحمد لقومك ولكل عاقل يسمع هذا القول وقت أن قال الله لعيسى (عليه السلام) ﴿ **ياعيسى ابن مريم أأنت قلت للناس** .. الخ ﴾ ، وأكثر المفسرين على أن هذا القول سيكون من الله تعالى يوم القيامة فإذ فيه بمعنى إذا وقال بمعنى يقول ، وجىء بصيغة الماضى بدل المضارع لتحقيق الوقوع . ويدل على هذا سباق الكلام ولحاقه فقبله قول الله تعالى : ﴿ **يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم** ﴾ وبعده قول الله تعالى : ﴿ **هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم** ﴾ . وهذا كله واضح أنه يكون يوم القيامة . ووصف عيسى بأنه ابن مريم إشارة إلى أنه بشر ولد من بشر فليس إلها ولا ابن إله كما زعموا ولذلك نجد القرآن الكريم يصر على هذا الوصف فى معظم الآيات التى تعرضت لذكره .

والاستفهام فى قوله تعالى ﴿ **أأنت** ﴾ استفهام توبيخ وتقريع ، والمقصود به من زعموا ألوهيته أو ألوهية أمه وذلك لأن هذا السؤال يترتب عليه جواب عيسى (عليه السلام) بنفى ذلك نفياً قاطعاً ، فإذا سمع أهل الموقف هذا الجواب علموا كذب هؤلاء الزاعمين ، فزادت فضيحتهم على رؤوس الأشهاد ، وبان كذبهم فيكون لذلك وقعه الشديد عليهم فى هذا اليوم العصيب . وقوله ﴿ **اتخذونى** ﴾ إشارة إلى أن ذلك مجرد زعم باطل ، ليس من الحقيقة فى شىء . وقوله ﴿ **إلهين** ﴾ صريح فى أنهم جعلوا عيسى إلهاً ومريم أيضاً إلهاً . أما اتخاذهم عيسى إلهاً فقد تحدثت عنه الآيات الكثيرة صراحة منها قوله تعالى : ﴿ **لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم** ﴾ . وقوله أيضاً : ﴿ **لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة** ﴾ أى أحد آلهة ثلاثة ومن بين الثلاثة عيسى . فهو فى نظرهم إله . وقوله أيضاً : ﴿ **وقالت اليهود عزيز ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله** ﴾ ومادام فى زعمهم ابن إله فهو إله ؛ لأن الإبن من جنس أبيه . وأما بالنسبة لتأليه مريم فلم يرد فى القرآن صريحا إلا فى هذه الآية .

وقد اختلفت آراء المفسرين فيها على ثلاثة أقوال :

(الأول) : أن عيسى فى نظرهم إله ، ومادام ولدها فهى أيضاً إله لأن الولد من

جنس من ولده .

(الثانى) : أنهم لما عظموها تعظيما جاوز الحد أطلق عليها إله ، كما أطلق ذلك على أحبارهم ورهبانهم فى قوله تعالى : ﴿ **اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله** ﴾ .

(الثالث) : أنه من المحتمل أن يكون فيهم من عبدها ، وقال بألوهيتها .

والإمام رشيد رضا عند تفسير هذه الآية يقول : (.. وأما أمه فعبادتها كانت متفقا عليها فى الكنائس الشرقية والغربية بعد قسطنطين ، ثم أنكرت عبادتها فرقة البروتستانت التى حدثت بعد الإسلام بعدة قرون) ا . هـ ويَنقل رشيد رضا أيضا عن الأب لويس شيخو فى مقال له بمجلة المشرق قوله (إن تعبّد الكنيسة الأرمنية للبتول الطاهرة أم الإله لأمر مشهور) .

وقال صاحب – البرهان فى معرفة عقائد أهل الأديان[1] – فى معرض حديثه عن النصارى (.. وهم قوم عيسى (عليه السلام) . ومنهم من قال : إن الآلهة ثلاثة ، ظهر منها اثنان ، هما مريم وعيسى عليهما السلام وخفى منهم واحد وهو الله تعالى[2]) ا . هـ كلام صاحب البرهان .

قوله تعالى : ﴿ **قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق .. الخ** ﴾ . هذا هو جواب عيسى (عليه السلام) على سؤال ربه ، وقد بدأه بتنزيه الله تعالى عن كل ما لا يليق بجلاله ووحدانيته ، ثم نفى نفياً قاطعاً ما نسبه إليه الكفار من أمرهم بعبادة نفسه أو عبادة أمه أو اتخاذ آلهة أخرى مع الله مطلقاً ، ثم برأ نفسه وبرىء إلى الله من كل من زعم ، هذا الزعم الباطل فليس من حقه ولا حق أى مخلوق آخر أن يعتقد ذلك ، فضلا من أن يدعو إليه أو يأمر غيره به . قوله تعالى : ﴿ **إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك إنك أنت علام الغيوب** .﴾ . يستشهد عيسى بربه على أنه لم يأمر أحداً منهم بهذا الشرك الذى يتنافى تماما مع غرضه الأصلى الذى بعث هو وإخوانه المرسلون من أجله ؛ وهو توحيد الله توحيداً خالصاً . ومعنى العبارة لو كان هذا حدث منى فلاشك أنك تكون قد علمته ، لأن علمك عام وشامل يتناول ما كان ، وما يكون ، وماهو كائن ، فأنت تعلم سرى وعلنى ، وغيبى وحاضرى ،

(١) هو كتاب فى الملل والنحل يشبه كتاب الشهرستانى وابن حزم فى ذلك ولكنه مختصر وصاحبه هو الإمام الجليل العالم المجتهد الشيخ عباس بن منصور السكسكى الحنبلى المتوفى سنة ٦٨٣ هـ .

(٢) ص٥٨ البرهان فى عقائد أهل الأديان لعباس بن منصور السكسكى تحقيق خليل أحمد إبراهيم الحاج – دار التراث العربى للطباعة والنشر (ط) أولى سنة ١٤٠٠ هـ سنة ١٩٨٠ م .

وأما أنا أو غيرى من سائر المخلوقات فلا يعلم إلا ما أعلمته به ، وأما غيبك فلا يمكن لى أن أعلمه ؛ لأن علمى وكذا علم غيرى ناقص ، لا يتناول المغيبات . ثم أكد ذلك فذيل الآية بجملة ﴿ **إنك أنت علام الغيوب** ﴾ . وفى هذه الجملة عدة توكيدات ، تصديرها بإن المؤكدة والضمير ﴿ **أنت** ﴾ والإتيان بصيغة المبالغة فى ﴿ **علاّم** ﴾ والإتيان بصيغة الجمع فى ﴿ **الغيوب** ﴾ . قوله تعالى ﴿ **ماقلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم** ﴾ . فى هذا نفى قاطع أن يكون قد أمرهم بشىء من هذا الشرك فحاشاه أن يفعل شيئاً من ذلك ، فليس من حقه ولا حق أحد أن يأمر بما فيه شرك مما لا يليق بجلال الله وكماله . خاصة وأنه نبى جاء بالتوحيد وأمر به . والمعنى ماقلت لهم شيئاً يخالف ماأمرتنى به ، ولكن قلت لهم ما أمرتنى به فقط ، وهو ما أرسلتنى من أجله : أن اعبدوا الله ربى وربكم أى خصوه بالعبادة ، ولا تشركوا معه شيئاً ؛ لأنه هو الذى خلقنى وخلقكم ، وربانى بنعمه ورباكم ، وأنعم علينا جميعا بنعمه الكثيرة المتوافرة ، فهو الذى يستحق العبادة وحده لا غيره ، سواء أكان عيسى أو أمه أو غيرهما من سائر المخلوقات . قوله تعالى : ﴿ **وكنت عليهم شهيداً مادمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد** ﴾ . أى وكنت عليهم رقيبا مدة دوامى بينهم شاهداً عليهم وداعيا لهم إلى طاعتك وإفرادك بالعبادة ما قصّرت فى شىء من ذلك . فلما توفيتنى أى قبضتنى بالرفع إلى السماء حيا كنت أنت الرقيب عليهم ، والحفيظ على أعمالهم ، الخبير بتصرفاتهم ، وأنت على كل شىء شهيد ، لا تخفى عليك خافية من أمور خلقك .

هذا وتفسير ﴿ توفيتنى ﴾ بالرفع إلى السماء حيا هو مذهب الجمهور من العلماء . وهو مأخوذ من التوفى أى أخذ الشىء وافيا تقول : توفيّت حقى من فلان أى أخذته منه وافياً ووفيته حقه أى أعطيته له كاملا . ومنه قوله تعالى : ﴿ **وإبراهيم الذى وفّى** ﴾ أى وفّى وعد ربه كاملا . كما قال تعالى : ﴿ **وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن** ﴾ .
[من الآية ١٢٤ : سورة البقرة] .

وعلى ذلك سمى رفع عيسى إلى السماء توفية ؛ لأن الله رفعه إلى السماء بروحه وجسده كاملا .

وبعض العلماء يرى أن التوفى فى هذه الآية محمول على الإماتة ، فهو فى رأيهم من الوفاة التى هى انتهاء الأجل ، وقد قالوا إن الله أمات عيسى وقت أن حاصره الأعداء

ثم رفعه بعد ذلك :

وللرد عليهم نقول :

١ – إن الله تعالى ساق هذا الأمر فى معرض الامتنان على عيسى (عليه السلام) فى قوله تعالى : ﴿ **إذ قال الله ياعيسى إنى متوفيك ورافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة** ﴾ .

[من الآية ٥٥ : آل عمران]

والإماتة فى وقت حصار العدو ليس فيها امتنان على عيسى (عليه السلام) .

٢ – إن الله تعالى امتنّ عليه فى هذه الآية أيضا بالرفع إلى السماء . فإن كان الرفع بعد الموت فإما أن يكون بالروح فقط ، وإما أن يكون بالجسد فقط ، فإن قيل بالأول . قلنا : وأى مزيّة لعيسى فى هذا حتى يمتن عليه ؟ علما بأن أنبياء الله جميعا أرواحهم فى السماء . وإن قيل بالثانى : قلنا : إن الله نزّه السماء أن تكون قبراً للجثث ، وفى الأرض كفاية عنها وغنية . فبطل هذا وثبت أن الله تعالى رفعه إلى السماء بروحه وجسده خاصة وأن الله تعالى قد جعل ذلك آية على كمال قدرته تعالى ، ومنة على عيسى والامتنان فيها أظهر ، والله أعلم .

النص الرابع : من سورة مريم :

وهو قوله تعالى : ﴿ **قال إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا . وجعلنى مباركاً أين ما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حياً . وبرًّا بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقياً . والسلام علىّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً . ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذى فيه يمترون . ماكان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون . وإن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **قال إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا** ... الخ ﴾ . لما ولد عيسى من غير أب ثار قوم مريم عليها ، واتهموها بالفاحشة ، فأوحى الله إليها أن تسكت ولا تجيب على هذا الاتهام فلما أنكروا عليها الغلام ، وسألوها من أين أتت به ؟ أنطق الله لها هذا الوليد الذى مازال فى مهده بكلام فصيح لا يتكلم به إلا العقلاء الحكماء ، فلما أشارت إليه ليكلموه تعجبوا ، وقالوا : كيف نكلم من كان فى المهد صبياً ؟

رد عيسى – عليه السلام – عليهم ؟

فردّ عليهم بهذا الكلام البليغ ، واصفا نفسه بثمان صفات :

(أولها) : العبودية لله تعالى ، وكأن الله ألهمه بما سيقولون فيه من قولهم إنه ابن الله ، أو هو الله ، فنبههم عيسى من أول الأمر إلى أنه عبد لله ، مخلوق من مخلوقاته ، فلا يمكن أن يكون إلها ، ولا ابن إله .

(ثانيها) : إيتاء الله له الكتاب أى الإنجيل والتعبير عن المستقبل بالماضى إشارة إلى تحقّق وقوعه ،ويكون (عليه السلام) قد أخبرهم بما كتب له فى اللوح المحفوظ ، بناء على إخبار الله له . وقال بعضهم : إنه نُبِّىء فى صغره ، فيكون الماضى على حقيقته .

(ثالثها) : قوله ﴿ **وجعلنى نبيا** ﴾ أى الآن فيكون نُبِّىء فى صغره أو على معنى سيجلعنى ، وعبر بالماضى عن المستقبل لتحقّق الوقوع كما مر .

(رابعها) : قوله ﴿ **وجعلنى مباركا أين ماكنت** ﴾ أى نفاعا كثير الخير أينما توجهت ، وذلك لأنه كان يحيى الموتى ، ويبرىء الأكمه والأبرص وهذا نفع دنيوى ، وكان آمرا بالمعروف ، ناهيا عن المنكر ، موصيا بالخير أينما حل وهذا نفع أخروى .

(خامسها ، وسادسها) : قوله : ﴿ **وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حياً** ﴾ واختلف فى الزكاة التى أمر بها هنا فقال قوم : هى زكاة المال . والمعنى إذا ملكته . وقال قوم هى : زكاة الفطر . وقال قوم : المراد تطهير النفس من الرذائل . والأمر بالصلاة والزكاة : قيل : أوصاه الله بهما منذ صغره إلى آخر حياته . وقال بعضهم أوصاه بهما إذا بلغ . وقال بعضهم إن ولادته وبلوغه وتكليفه كل ذلك كان فى لحظة واحدة . بل قال البعض والحمل به أيضا مع ولادته وتكليفه كان فى لحظة واحدة والأمر كله مبنى على خرق العادة والإعجاز ولا مانع من ذلك عقلا .

(سابعها) : قوله : ﴿ **وبرًّا بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقياً** ﴾ .

وقد ذكر برّ والدته لأن الله تعالى يقرن طاعة الوالدين بعبادته غالبا فى القرآن الكريم ، كقوله تعالى : ﴿ **وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً** ﴾ . [الآية ٢٣ : الإسراء] .

وكقوله : ﴿ **أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير** ﴾ . [من الآية ١٤ : لقمان] .

وقد نفى عن نفسه أن يكون جباراً شقياً لأن عقوق الوالدين غالبا مايكون سببا فى الشقاوة ، وقلما نجد إنساناً عاقاً إلا وهو جبار شقى . والمعنى ولم يجعلنى جباراً مستكبراً عن عبادته تعالى عاقاً لوالدتى فأكون شقياً بذلك . وفى هذا تركيز منه على عقيدة التوحيد ، وإقرار منه أنه عبدٌ لله تعالى طائع خاضع لجلاله مقهور تحت سلطانه

خائف من عقابه . وذلك ما يؤيده قوله تعالى : ﴿ **لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً** ﴾ . [الآية ١٧٢ : النساء] .

(ثامنها) : قوله ﴿ **والسلام علىّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً** ﴾ السلام : بمعنى الأمان ، واختلف فى (ال) فيه فقال بعضهم للعهد الذكرى حيث تقدم ذكر مصحوبها صراحة فى قوله تعالى حكاية عن يحيى عليه السلام ﴿ **وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا** ﴾ . فالسلام الذى فى حق عيسى هو السلام الذى فى حق يحيى . وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ **كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً فعصى فرعون الرسول** ﴾ . [من الآيتين ١٥ ، ١٦ : المزمل] .

ويكون المعنى ذلك السلام الموجه إلى يحيى هو السلام الموجه إلىّ . وقال آخرون إن (ال) هذه للجنس : فتفيد الاستغراق ، والمعنى إن جنس السلام كله علىّ خاصة . وفى ذلك تعريض لمن اتهموا أمه ، بأن عليهم اللعنة التى هى ضد السلام . قال الزمخشرى عند تفسيرها كما نقله عنه الجمل (.. والصحيح أن يكون هذا التعريف تعريضاً باللعنة على متهمى مريم عليها السلام وأعدائها من اليهود ، وتحقيقه أن اللام للجنس ، وإذا قال : وجنس السلام علىّ خاصة فقد عرّض بأن ضده عليكم ونظيره « والسلام على من اتبع الهدى) ا . هـ . كلام الزمخشرى من الفتوحات الإلهية ص٦١ جـ ٣ .

وتخصيصه الأوقات الثلاثة بالسلام وهى وقت الولادة ، ووقت الموت ، ووقت البعث ؛ لأنها أوقات خوف فأخبرهم أن الله تعالى أمّنه فيها تكرما منه ، ومنّة عليه .

وفى هذا أيضا إشارة إلى أنه (عليه السلام) عبدٌ من عباد الله ، يجرى عليه مايجرى على سائر البشر : من ولادة : وموت وبعث ، فليس هو إله ، ولا ابن إله ، كما سوف يزعمون فهو مولود من بطن أمه كما يلد سائر البشر . والإله ليس بمولود . وهو سوف يموت حتما كسائر الناس والإله الحق لا يجوز عليه الموت . وهو سوف يبعث من قبره حتما ، ويحشر مع الخلائق ، والإله الحق لا يجوز عليه ذلك .

قال الإمام ابن كثير عند تفسير قوله تعالى : ﴿ **والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً** ﴾ .

(إثبات منه لعبوديته لله عز وجل وأنه مخلوق من خلق الله يحيى ويموت ويبعث كسائر الخلائق ولكن له السلامة فى هذه الأحوال التى هى أشق مايكون على العباد

(صلوات الله وسلامه عليه) ا . هـ كلام ابن كثير . قوله تعالى : ﴿ **ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذى فيه يمترون** ﴾ . الكاف فى ﴿ **ذلك** ﴾ حرف خطاب ، والمخاطب هو سيدنا محمد ﷺ والمعنى : ذلك الذى قصصناه عليك يامحمد من خبر عيسى هو قول الحق الذى فيه يمترون . أى يتجادلون فالمبطلون اعتقدوا فيه الألوهية أو البنوة للإله .

والمحققون اعتقدوا فيه : أنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه .

فما أخبرناك به من أمره هو الحق الذى لا محيد عنه فقد دفع الله عنه غلوّ اليهود والنصارى فقد تغالى النصارى فى تعظيمه حتى رفعوه إلى درجة الألوهية وتغالى اليهود فى تحقيره ، حتى جعلوه ابن سِفاح وبغاء وقالوا : هو ابن يوسف النجار قاتلهم الله أنى يؤفكون .

فجاء القرآن الكريم ليردّ هؤلاء وهؤلاء إلى القصد والاعتدال ، ويخبرنا بحقيقة أمره ، ويدلنا على أوصافه التى تليق به كعبد من عباد الله الصالحين ، ﴿ **إن الحكم إلا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين** ﴾ . [من الآية ٥٧ : الأنعام] . قوله تعالى : ﴿ **ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون** ﴾ .

بعد أن بين الله تعالى أمر عيسى ونفى عنه البنوة لله نفياً قاطعاً نزه نفسه عن اتخاذ الولد مطلقا فلا يصح ولا يجوز أن يكون عيسى ولا غيره ولداً لله . والنفى هنا معناه نفى الانبغاء أى : ما كان ينبغى ولا يجوز ذلك على الله بل يستحيل . ثم زاد نفسه تنزيهاً وتقديساً عن مثل هذا وعلل ذلك بقوله ﴿ **إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون** ﴾ أى فلا يحتاج فى اتخاذ الولد إذا أراده إلى إحبال أنثى ولا غيره ، ففيه إفحام وإلزام لهم بالحجة . قوله تعالى : ﴿ **وإن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم** ﴾ .
هو من كلام عيسى عليه السلام ، قيل : مما قاله لقومه فى صغره . وقيل مما دعاهم إليه فى كبره . وهو إقرار منه بأنه مربوب لله تعالى فهو خالقه وخالقهم ورازقه ورازقهم ؛ ولهذا فهو الذى ينبغى أن يعبدوه وحده ، والمعنى وحدوه لأنه ربى وربكم فجملة إن الله ربى وربكم علة للأمر بالتوحيد ، وإفراده تعالى بالعبادة . قوله تعالى : ﴿ **هذا صراط مستقيم** ﴾ هو أيضا من كلام عيسى (عليه السلام) ، والمعنى : أن ما دعوتكم إليه وأمرتكم به من توحيد الله ، والأمر بعبادته وحده ، ونفى كونى ابن الإله ، أو كونى إلها أو ثالث ثلاثة ، هو الصراط المستقيم ، والطريق السوى الذى من سلكه فقد رشد وهُدِى ومن خالفه فقد ضل وغَوىَ .

النص الخامس : **من سورة الزخرف :**

وهو قوله تعالى : ﴿ **ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبيّن لكم بعض الذى تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون . إن الله هو ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم** ﴾ . وإذا كان النص المتقدم يوضح دعوة عيسى إلى التوحيد، ونفى الشرك عن الله (تعالى) فى حال صغره فإن هذا النص من سورة الزخرف يصرح بأن عيسى (عليه السلام) قد دعا إلى ذلك أيضا فى كبره بعد أن أكرمه الله برسالته .

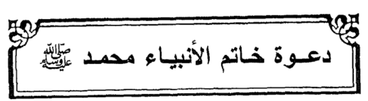
فقوله تعالى : ﴿ **ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة** ﴾ مجيئه (عليه السلام) كان لبنى إسرائيل كما قال الله تعالى ﴿ **وإذ قال عيسى ابن مريم يابنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم** ﴾ . [من الآية ٦ : الصف] .

المراد بالبينات هنا المعجزات الدالة على صدق دعواه الرسالة كإبراء الأكمه والأبرص وغير ذلك مما أيده الله به . أو آيات الإنجيل ولاشك أنها بينات واضحات . أو الشرائع التى جاء بها . وهى أيضا لاشك واضحة جلية . و(قال) أى عيسى قد جئتكم يابنى إسرائيل بالحكمة أى بالنبوة ، أو شرائع الإنجيل . وقوله : ﴿ **ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه** ﴾ معطوف على قوله ﴿ **بالحكمة** ﴾ أى وجئتكم لأبين لكم وقد علق التعليل بفعل مستقل إشارة لأهميته حتى جعله كلاما مستقلا . والمراد بما بينه لهم مما اختلفوا فيه هو أمر الدين لا أمر الدنيا والمعنى أبان لهم حكم الله فيه من حلّ وحرمة وأمر ونهى ، وأما أمور الدنيا فهى موكولة إلى اجتهاد العباد كما ورد من قول نبينا ﷺ (أنتم أعلم بأمر دنياكم)[1].

قوله : ﴿ **فاتقوا الله وأطيعون إن الله هو ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم** ﴾ أى فأطيعون فيما أمرتكم به وخافوا عقاب الله إن خالفتم أمرى . إن الله ربى وربكم أى أنا وأنتم عبيد لله تعالى مقهورون تحت سلطانه فأخلصوا له العبادة والطاعة وأفردوه بالتوحيد وحده لا شريك له . هذا الذى أدعوكم إليه صراط مستقيم يوصل إلى الفوز والسعادة فى الدارين ، فاسلكوه تفلحوا ، وتنجوا من النيران والخزى يوم الميعاد .

---

(١) حديث طلحة المشهور فى تأبير النخل – وقد أخرجه ابن ماجه بهذا المعنى فى باب تلقيح النخل ص ٨٢٥ جـ ٢ . كما أخرجه أيضا عن عائشة بلفظ آخر فى نفس الصفحة المذكورة.



دعـوة خـاتم الأنبيـاء محمـد ﷺ

أرسل الله تعالى نبيه محمداً ﷺ على حين فترة من الرسل فى أمة أمية ، عكفت على عبادة الأصنام والأوثان ، وابتعدت عن منهج الله تعالى فى عقيدتها وسلوكها وأخلاقها بل وفى مشاعرها وطبائعها . ولم تكن حال الأمم من غير العرب بأحسن مما عليه العرب ، فقد وقع الجميع فى الشرك والبعد عن طريق الله التى يرضاها لعباده . ولما كان (عليه الصلاة والسلام) خاتم أنبياء الله كان من الحكمة أن تكون رسالته عامة شاملة لسائر الأمم والشعوب من وقت أن أرسله (جلا وعلا) . وإلى أن تقوم الساعة . قال تعالى : ﴿ **هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين** ﴾ .

[الآية ٢ : الجمعة] .

وقال أيضاً ﴿ **وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً** ﴾ .

[من الآية ٢٨ : سبأ] .

بم بدأ خاتم الأنبياء ﷺ دعوته ؟

وقد بدأ عليه الصلاة والسلام دعوته بالحث على عقيدة التوحيد وطرح الشرك الذى تأصل فى النفوس . فظل أكثر من نصف عمر الدعوة يعمل على إقتلاع الشرك من النفوس وغرس الإيمان والتوحيد الخالص . وإليك بعض النصوص التى توضح ذلك .

١ - قوله تعالى : ﴿ **قل إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله قل لا أتبع أهواءكم قد ضللت إذاً وما أنا من المهتدين** ﴾ . [الآية ٥٦ : من سورة الأنعام] .

٢ - قوله تعالى : ﴿ **قل أندعوا من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله كالذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا قل إن هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين** ﴾ .

[الآية ٧١ : من سورة الأنعام] .

٣ - قوله تعالى : ﴿ **قل من رب السموات والأرض قل الله قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضراً قل هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل الله خالق كل شىء وهو الواحد القهار** ﴾ . [الآية ١٦ : من سورة الرعد] .

٤ – قوله تعالى : ﴿ **قل إنما أنا منذر وما من إله إلا الله الواحد القهار * رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار** ﴾ . [الآيتان ٦٥ ، ٦٦ : سورة ص] .

٥ – قوله تعالى : ﴿ **قل إنى أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين * وأمرت لأن أكون أول المسلمين * قل إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم * قل الله أعبد مخلصا له دينى * فاعبدوا ماشئتم من دونه قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين** ﴾ .

[الآيات من ١١ – ١٥ : من سورة الزمر]

٦ – قوله تعالى : ﴿ **قل إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءنى البينات من ربى وأمرت أن أسلم لرب العالمين** ﴾ . [الآية ٦٦ : سورة غافر] .

٧ – قوله تعالى : ﴿ **قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين** ﴾ . [الآية ٦ : من سورة فصلت] .

٨ – قوله تعالى : ﴿ **قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين** ﴾ . [الآية ٩ : من سورة فصلت] .

٩ – قوله تعالى : ﴿ **قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات ائتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين** ﴾ . [الآية ٤ : سورة الأحقاف] .

١٠ – قوله تعالى : ﴿ **قل يأيها الكافرون * لا أعبد ما تعبدون * ولا أنتم عابدون ما أعبد * ولا أنا عابد ماعبدتم * ولا أنتم عابدون ما أعبد * لكم دينكم ولى دين** ﴾ .

[سورة الكافرون]

ما تبينه الآيات :

وهذه الآيات الكريمة فى جملتها تبين مسلك النبى ﷺ مع المشركين حيث دعاهم إلى الإيمان وتوحيد الله (تبارك وتعالى) توحيداً خالصاً ونبذ ماهم فيه من عبادة الأصنام والأوثان . وعرض عليهم الأدلة العقلية والنقلية مما أوحاه الله إليه من القرآن الكريم ، ولكنهم أعرضوا عن سماعه وطاعته ، وتعنتوا معه ، وبلغت بهم سخافة العقول وعدم الحياء أنهم طلبوا منه (عليه الصلاة والسلام) أن يتخلى عن دعوته ، بل وأن يتبع أهوائهم وباطلهم . حتى قالوا له : تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة . وقالوا للمؤمنين متهكمين وساخرين : اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم أى أوزاركم يوم القيامة . ومع هذا

فقد صبر النبى ﷺ على سخفهم وعنجهيتهم ، وأخذ يناقشهم فى هدوء وحلم فائق . فقال لهم : إن الله تعالى نهانى أن أعبد آلهتكم ، وأن أتبع أهوائكم ، فلو اتبعتها فرضاً وتقديراً لكنت ضالا مثلكم ، والحقيقة أن الله هدانى ، بل وجعلنى أول المهتدين الذين أسلموا وجههم إلى الله ، وفوضوا أمورهم إليه ، ثم وضح لهم أن من عاد إلى الضلال بعد إذ هداه الله أصبح كالإنسان الذى احتوشته الشياطين فسلبت منه عقله فأصبح تائها عن الطريق المستقيم يناديه أصحابه إلى الاستقامة على الطريق الصحيح فلا يجيبهم ويظل سائراً فى ضلاله ، وهى من أقبح الصور . ثم أخذ (عليه الصلاة والسلام) يقررهم بما هم معترفون به من أن الله (تعالى) هو خالق السموات والأرضين ، ومادام هو القادر على ذلك فهو الحقيق بالعبادة وحده ، فلا يصح ولا يليق بعاقل أن يشرك معه غيره فى العبادة ؛ فإن ماعبدوه من هذه الأصنام عاجزة لا تملك شيئاً ولا تخلق شيئاً ، وليس لها من صفات الألوهية أو الربوبية أدنى شىء فهل تستوى هذه الأصنام العاجزة . فى استحقاق العبادة . مع الله القادر على كل شىء . سبحان الله ! هذا بهتان عظيم . ثم يبين النبى ﷺ لهؤلاء القوم أنه (عليه الصلاة والسلام) ليس له من الأمر شىء ، وليس هو الآمر الناهى ، وإنما صاحب الأمر والنهى هو الله الواحد القهار ، وماهو (عليه الصلاة والسلام) إلا بشر أوحى الله إليه بهذه الأوامر والنواهى ، فهو أول من يمتثلها ، ثم يبلغها بعد ذلك للناس ، كما أمر الله (تعالى) . ولما اشتد عنادهم هددهم بأنه (عليه الصلاة والسلام) طائع لله (تعالى) مخلص له العبادة ، مقر له بالتوحيد ، وهو أول المسلمين الذين أسلموا الوجه إلى الله ، وذلك لأنه يخاف عقابه فى الآخرة - إن هو عصاه . هذا هو موقفه النهائى ، قد حدده وبينه فلا مطمع لكم فى سخافاتكم التى دعوتمونى إليها . وأما أنتم فاعبدوا ماشئتم ، فسوف تلقون جزاءكم فى الآخرة من الله (تعالى) وهذا تهديد لهم ووعيد بعد أن بين لهم عاقبة من أشرك مع الله على حد قوله تعالى : ﴿ **اعملوا ماشئتم** ﴾ . ثم ختمت الآية ببيان حال المشركين فى الآخرة وهو الخزى والخسران المبين .

تفصيل بعد إجمال :

هذا هو معنى الآيات الكريمة على سبيل الإجمال . ثم نتكلم عليها تفصيلا فنقول :

النص الأول : من سورة الأنعام :

وهو قوله (تعالى) : ﴿ **قل إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله قل**

لا أتبع أهواءكم قد ضللت إذا وما أنا من المهتدين ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **قل إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله** ﴾ . أمر من الله تعالى لنبيه ﷺ أن يصارح المشركين بما يقطع أطماعهم فى استمالته ﷺ إلى باطلهم الذى دعوه إليه فقد بلغ بهم الغباء أن يطمعوا فى صرف رسول الله ﷺ عن دعوته وجره إلى اتباع أهوائهم وما تمليه عليهم شياطينهم . فعرضوا عليه أن يعبد أصنامهم سنة ويعبدوا إلهه سنة فأمر (عليه الصلاة والسلام) أن يرد عليهم فى وضوح وحسم بما يخيب فيهم هذه الآمال ويبدد عنهم هذه الأحلام . وبناء الفاعل فى قوله ﴿ **نهيت** ﴾ للمجهول للعلم به ، إذ من الواضح أن المعنى : نهانى الله . والتعبير عن الأصنام باسم الموصول الذى يستخدم للعقلاء عادة مع أنها جمادات لا تعقل مجاراة للمشركين الذين عاملوا هذه الأصنام معاملة العقلاء ، حيث جعلوها آلهة تعبد . فأتى لهم بما يحكى اعتقادهم . ومعنى ﴿ **تدعون** ﴾ إما بمعنى تسمون ، من قولهم دعوت ولدى فلانا أى سميته والمعنى نهانى الله تعالى أن أعبد الذين تسمونهم آلهة ، وفيه إشارة إلى أن إطلاقهم على الأصنام آلهة هو مجرد تسمية ليس تحتها مسميات حقيقية . وذلك ما يؤيده قوله تعالى ﴿ **إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان** ﴾ .
[من الآية ٢٣ : النجم] .

أو هى بمعنى تعبدون ، وعليه يكون المعنى – إنى نهيت أن أعبد الذين تعبدون من دون الله ، أو تدعون بمعنى تطلبون منهم حوائجهم وتلجأون إليهم فى أموركم . والمعنى لا أعبد الذين تطلبون منهم حوائجكم وطلب الحوائج من الأصنام هو عين عبادتها .

وقوله : ﴿ **من دون الله** ﴾ فيه تجهيل لهؤلاء العابدين للأصنام حيث تجاوزوا عبادة من يملك جلب النفع ودفع الضر إلى عبادة من لا يملك لهم شيئا من النفع ، ولا يقدر لهم على شىء من دفع الضر . وقوله تعالى : ﴿ **قل لا أتبع أهواءكم** ﴾ جملة مستأنفة و لم تعطف على الجملة التى قبلها بالواو فيقال (قل إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله وقل لا أتبع أهواءكم) للإشارة إلى أن هذه الجملة الأخيرة غرض مستقل فى نفسه وزيادة فى تأكيد هذا المعنى أعاد معه الأمر بالقول . وقد أفاد هذا الاستئناف معنيين زيادة على ما تقدم . الأول منهما : أن نهى النبى ﷺ عن اتباع المشركين ليس قاصراً على عبادة الأصنام فقط بل يشملها ويشمل كل مادعوه إليه من الأباطيل والضلال مثل طلبهم منه (عليه الصلاة والسلام) أن يطرد المؤمنين عن مجلسه ، أو أن يفرد

لهم يوما للموعظة والدعوة : بحيث لا يختلطون بالسوقة والفقراء فهم فى نظرهم أشراف القوم ووجوههم ، فيجب أن تكون لهم ميزة عن الفقراء والصعاليك . فدلت هذه الجملة الأخيرة على نفى استجابته ﷺ إلى هذه المطالب المبنية على التعالى والتكبر على عباد الله . الثانى منهما : الدلالة على أن المشركين فى عبادتهم للأصنام من دون الله وفى مطالبتهم لرسول الله ﷺ بهذه المطالب الظالمة إنما يصدرون فى ذلك كله عن الهوى والظن الفاسد ، فهم فى ذلك أبعد مايكون عن الحجة والبرهان . كما قال الله تعالى عنهم فى آية أخرى ﴿ **إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس** ﴾ . [الآية ٢٣ : النجم] .

وقوله تعالى : ﴿ **قد ضللت إذاً** ﴾ استئناف مؤكد لانتهائه ﷺ عما نهى عنه ، و﴿ **إذاً** ﴾ حرف جواب وجزاء ، وهى لا عمل لها : لعدم وجود فعل تعمل فيه ، والمعنى إن اتبعت أهواءكم ضللت وما إهتديت . فهى فى قوة شرط وجزاء . وقوله : ﴿ **وما أنا من المهتدين** ﴾ معطوف على قوله ﴿ **قد ضللت إذاً** ﴾ وهو مؤكد لمضمون ماقبله .

والمعنى إنى إن فعلت ذلك أى أجبتكم إلى ما طلبتم منى على سبيل الفرض والتقدير . خرجت عن كونى من المهتدين إلى كونى فى عداد الضالين . والعدول عن التعبير بالفعل إلى التعبير باسم الفاعل . أى قال من المهتدين ولم يقل وما اهتديت للدلالة على الاستمرار والدوام . والمعنى أنه (عليه الصلاة والسلام) لو أجابهم فرضاً وتقديراً لانتفت عنه الهداية على سبيل الدوام والاستمرار . وحاشا لرسول الله ﷺ عن ذلك .

النص الثانى : من سورة الأنعام أيضاً :

وهو قوله تعالى : ﴿ **قل أندعوا من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله كالذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا قل إن هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين** ﴾ . قوله تعالى : ﴿ **قل أندعوا من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا** ﴾ روى ابن كثير عن السدى فى سبب نزولها أن المشركين قالوا للمسلمين : اتبعوا سبيلنا واتركوا دين محمد ، فنزلت . والمعنى قل يامحمد لهؤلاء المشركين الذين يدعون المؤمنين إلى العودة إلى الشرك . قل لهم : أنعبد من دون الله مالا ينفعنا إن دعوناه ، ولا يضرنا إن تركنا عبادته ، بعد أن هدانا الله إلى الإسلام وذقنا حلاوة الإيمان ، إن هذا لأمر عجيب لا يمكن أن يتحقق أو يكون . والاستفهام هنا للإنكار والنفى . والنون فى (ندعوا) للمتكلم ومعه غيره والمراد رسول الله ﷺ ومعه المؤمنون . والمراد بما لاينفع ولا يضر .. الأصنام ؛ لأنها لو كانت تملك

الضر لأضرت بالمؤمنين الذين خلعوا عبادتها ، أو بالنبى الذى لم يسجد لها أبداً حتى قبل أن يبعثه الله رحمة للعالمين . ولو كانت تملك النفع لنفعت عابديها ، ولوقتهم من بأس الله ومن الهزائم المتتالية التى لقوها على أيدى المؤمنين . وقوله : ﴿ **ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله** ﴾ . جملة معطوفة بالواو على قوله « ندعوا » وهى داخلة معها فى حيز النفى الإنكارى . والتعبير عن الشرك بالرد على الأعقاب أى الرجوع إلى الجهة التى فيها العقب أى القهقرى – وهى أقبح مشية – لتصويره فى أقبح صورة تنفيراً منه خصوصاً إذا كان بعد الهداية إلى الطريق القويم وبعد أن ذاق المرء حلاوة الإيمان فمستحيل أن يعود إليه من تمكن الإيمان من قلبه ، فقد جعل النبى ﷺ ذلك من علامات الإيمان الكامل . روى البخارى بسنده فى باب حلاوة الإيمان[1] عن أنس عن النبى ﷺ قال : « **ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار** » .

وقوله : ﴿ **كالذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا** ﴾ . الكاف للتشبيه والمعنى إن أجبناكم إلى ما طلبتم فعدنا إلى الكفر بعد الإسلام كان حالنا مشبهاً حال من استهوته الشياطين ، فسلبت عقله وصيرته حيران فى الأرض ، تائها فيها ، لا يلوى على شيء ، ولا يعقل نداء من يناديه ؛ لينجيه من الهلكة ويدله على الطريق . ومعنى ﴿ **استهوته** ﴾ أى زينت له هواه والعرب تقول : فلان استهوته الشياطين لمن اختطفت الجن عقله وجعلته تائها فى الأرض لا يدرى أين يتجه .

قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية : (إن مثل من يكفر بالله بعد إيمانه كمثل رجل خرج مع قوم على الطريق فضلّ الطريق فحيَّرته الشياطين واستهوته فى الأرض ، وأصحابه على الطريق فجعلوا يدعونه إليهم يقولون : ائتنا فإنا على الطريق فأبى أن يأتيهم فذلك مثل من يتبعهم بعد المعرفة بمحمد ﷺ ومحمد – ﷺ – هو الذى يدعو إلى الطريق . والطريق هو الإسلام) ا . هـ كلام ابن كثير .

وقوله : ﴿ **قل إن هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين** ﴾ أى قل لهم يامحمد إن هدى الله أى الإسلام الذى دعا إليه النبى ﷺ بالحجة والبرهان هو الهدى على الحقيقة ، وماسواه فهو ضلال مبين ، فطريق الإسلام هو الذى يؤدى إلى النجاة والفوز

---

(١) ص ١٠ جـ ١ (ط) الشعب .

فى الدنيا والآخرة ، وغيره من الطرق التى تدعون إليها كلها تؤدى إلى الهلاك والشقاء فى الدنيا والآخرة ، ولتأكيد هذا المعنى وأهميته كرر الأمر بكلمة ﴿ **قل** ﴾ .

وقوله ﴿ **وأمرنا لنسلم لرب العالمين** ﴾ داخل تحت الأمر بقل فكأنه قال : قل لهم : إن ﴿ **هدى الله هو الهدى** ﴾ وقل لهم أيضاً : ﴿ **أمرنا لنسلم لرب العالمين** ﴾ . أى أمرنا أن نخلص له العبادة وحده لا شريك له فلا نفوض أمورنا إلا إليه ولا نسلم الوجه إلا له .

النص الثالث : من سورة الرعد :

وهو قوله تعالى : ﴿ **قل من رب السموات والأرض قل الله قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً قل هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل الله خالق كل شىء وهو الواحد القهار** ﴾ . قوله تعالى : ﴿ **قل من رب السموات والأرض قل الله** ﴾ المأمور بأن يقول هو رسول الله ﷺ ، وقد أمر أن يسأل قومه هذا السؤال على سبيل التقرير وحملهم على الاعتراف ، وقد جاء فى كثير من آيات القرآن أن هؤلاء القوم كانوا معترفين بأن الله تعالى هو خالق السموات والأرض ومتولى أمورهما .

قال تعالى : ﴿ **ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله** ﴾ .

[من الآية ٢٥ : لقمان] .

ويؤيد ذلك قراءة ابن مسعود وأبّى : ﴿ **قل من رب السموات والأرض قالوا الله** ﴾ . ويحتمل أن يكون المعنى من قبيل التلقين أى اسألهم يامحمد هذا السؤال وسوف يجيبون حتما بهذا الجواب لشدة ظهوره ، وقوة الحجج والبراهين الدالة عليه ، فإذا عاندوا ولم يجيبوا فأجب أنت عنهم يامحمد بهذا الجواب إذ لا جواب يعقل غيره . وقوله: ﴿ **أفاتخذتم من دونه أولياء** ﴾ الاستفهام فيه للتوبيخ والتقريع ، والفاء عاطفة لجملة – اتخذتم الخ – على مقدر دخلت عليه الهمزة ، والتقدير : أأقررتم بأن خالق السموات والأرض ومدبر أمورهما هو الله فاتخذتم من دونه أولياء . وقوله : ﴿ **لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً** ﴾ راجع إلى الأصنام التى عبدها هؤلاء الكفار ، واتخذوها أولياء من دون الله . وإذا كانت هذه الأصنام لا تملك الضر والنفع لنفسها فمن باب أولى لا تملكهما لعابديها . فما أشد ضلال هؤلاء القوم الذين عبدوا العاجز وتركوا عبادة القادر خالق الأرض والسماء !! وقوله تعالى : ﴿ **قل هل يستوى الأعمى والبصير** ﴾ الاستفهام هنا إنكارى بمعنى النفى . والمعنى أن الأعمى والبصير لا يستويان . والمراد بالأعمى هنا الكافر ،

والبصير المؤمن ، أو المراد بالأعمى الأصنام ؛ لأنها لا حياة فيها فلا تبصر . والبصير أى الله (تعالى) الذى لا تخفى عليه خافية . وعليه فالمعنى لا يستوى فى استحقاق العبادة هذه الأصنام العمياء التى لا تدرك شيئاً . والله السميع البصير الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور . وقوله : ﴿ **أم هل تستوى الظلمات والنور** ﴾ أم المنقطعة هنا مقدرة ببل والهمزة ، ومافيها من استفهام فهو إنكارى أيضاً بمعنى النفى . والمعنى لا تستوى الظلمات التى هى ملل الكفر ، والنور الذى هو الإيمان ، وقد جمع الظلمات ؛ لأن الكفر ملل ونحل كثيرة متفرقة مختلفة ووحد النور ؛ لأن الإيمان شىء واحد لا يختلف .

قال تعالى : ﴿ **وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرّق بكم عن سبيله** ﴾ . [من الآية ١٥٣ : الأنعام] .

قوله:﴿ **أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم** ﴾ أم هنا منقطعة مقدرة ببل والهمزة أيضاً ، والتقدير : – بل أجعلوا لله شركاء .. الخ – وما فيه من الاستفهام فهو إنكار بمعنى النفى ، والتقدير : ما جعلوا لله شركاء خالقين كخلق الله فاشتبه خلق الأصنام بخلق الله فقالوا باستحقاق الأصنام للعبادة كما يستحق الله : بل انتفى ذلك كله أى انتفى كون الأصنام خالقة كخلق الله فانتفى ما تفرع عليه ، وهو اشتباه خلق الأصنام بخلق الله ، ومادام الأمر كذلك فينتفى استحقاق الأصنام للعبادة .

قال صاحبُ الفتوحات الإلهية عند هذه الآية نقلاً عن الكرخى : (والمعنى أن هذه الأشياء التى زعموا أنها شركاء لله ليس لها خلق يشبه خلق الله حتى يقولوا إنها تشارك الله فى الخالقية ، فوجب أن لا تشاركه فى الإلهية بل هؤلاء المشركون يعلمون بالضرورة أن هذه الأصنام لم يصدر عنها فعل ولا خلق ولا أثر ألبتة وإذا كان كذلك كان حكمهم بكونها شركاء لله فى الإلهية محض سفه وجهل) ا . هـ .

قوله : ﴿ **قل الله خالق كل شىء وهو الواحد القهار** ﴾ أمر من الله (تعالى) لرسوله أن يقول للمشركين هذا القول مقرراً أن الله (تعالى) هو المتفرد بالخلق والإيجاد فلا يليق ولا يصح أن يكون له شريك فى الخلق ، ومادام الأمر كذلك فلا يصح ولا يليق أن يكون له شريك فى استحقاق العبادة ، فما وقع من هؤلاء المشركين من عبادة الأصنام مع الله هو أمر لا يقبله عقل ، ولا يقره تفكير سَوِىّ ، خاصة وأن هؤلاء المشركين مقرون بأن الخالقية لله (تعالى) وحده . وأن هذه الأصنام مربوبة لله (تعالى) مملوكة

له مقهورة تحت سلطانه ، فليست خالقة ، ولا قادرة على جاب نفع ، أو دفع ضر عن نفسها ، أو عن عابديها . وقد كانوا يصرحوا بذلك فى تلبيتهم عند حجهم لبيت الله الحرام فقد كانوا يقولون : (لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك ، تملكه وماملك) . وقد أخبر الله (تعالى) عنهم بأنهم ما كانوا يعتقدون فى هذه الأصنام أنها آلهة حقة ، وإنما كانوا يعتقدون أنها وسائط تقربهم إلى الله .

قال (تعالى) حكاية عنهم ﴿ **مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى** ﴾ .

[من الآية ٣ : الزمر] .

وأما جملة ﴿ **وهو الواحد القهار** ﴾ فإما أن تكون داخلة فى مقول القول فهى مما أمر النبى ﷺ أن يقوله للمشركين . وإما أن تكون جملة مستأنفة جيء بها للتذييل فهى مقررة لمضمون ماتقدمها . وأيا ماكان فهى تدل على توحيد الله تعالى فى ربوبيته وألوهيته . أى هو وحده الذى خلقكم ، وأوجدكم من العدم ورباكم بنعمه ، وهو وحده القهار الغالب على أمره فلا يغالب ولا يعجزه شيء فى الأرض ولا فى السماء .

النص الرابع : من سورة (ص) :

وهو قوله تعالى : ﴿ **قل إنما أنا منذر وما من إله إلا الله الواحد القهار . رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **قل إنما أنا منذر** ﴾ أمر من الله تعالى لرسوله ﷺ أن يقول هذا القول للمشركين وأخبرهم ﷺ بأنه منذر فقط مع أنه مبشر أيضا لأن الخطاب مع مشركى مكة ، وهم وأمثالهم إنما يناسبهم الإنذار والتخويف . وهذا القول رد على زعمهم الفاسد ، وادعائهم على رسول الله ﷺ بأنه ساحر أو كذاب ، كما جاء فى أول هذه السورة فى قوله تعالى : ﴿ **وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب** ﴾ . [الآية ٤ من سورة ص] .

وكأنه قال لست ساحراً ولا كذاباً كما زعمتم ، وإنما أنا رسول الله أنذركم وأخوفكم عاقبة شرككم . وقوله : ﴿ **وما من إله إلا الله** ﴾ أى لا إله يستحق العبودية ؛ لأن له شيئاً من صفات الألوهية أو الربوبية إلا الله تعالى فإنه وحده الذى تفرد بصفات الألوهية الحقة والربوبية الحقة ، فهو وحده الذى يستحق العبادة والتأليه وإسلام الوجه إليه . وهذه الجملة تنفى نفياً قاطعاً تعدد الآلهة ، كما زعم المبطلون ، وتثبت وحدانية الله تعالى ، واستحقاقه للعبادة دون ماسواه ، وتنطق بأنه (جل وعلا) لا ندَّ له ولا شريك

ولا نظير . وهى داخلة فى مقول القول أى داخلة ضمن ما أمر أن يقوله النبى ﷺ لهؤلاء المشركين . أى قل لهم ﴿ **إنما أنا منذر** ﴾ وقل لهم ﴿ **ما من إله إلا الله** ﴾ . وكأنه (عليه الصلاة والسلام) أمر أن يثبت لهم أنه يوحى إليه . ثم يثبت لهم أن الإله الحق الذى يجب أن يفرد بالعبادة هو الله تعالى . وقوله تعالى : ﴿ **الواحد القهار . رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار** ﴾ .

هذه أوصاف خمسة لله تعالى ، جاءت مؤكدة ومقررة لمضمون التوحيد المستفاد من الجملة السابقة ، وهى ﴿ **وما من إله إلا الله** ﴾ ؛ لأنه لو لم يتصف بها ما أمكن أن يتفرد بالألوهية والربوبية الحقة . ومعنى ﴿ **الواحد** ﴾ أى المتفرد فى ذاته وصفاته وأفعاله ، فلا مشارك له فى شئ من ذلك من قريب أو بعيد . ومعنى ﴿ **القهار** ﴾ أى المبالغ فى قهر كل شئ يريد قهره . ومعنى ﴿ **رب السموات والأرض وما بينهما** ﴾ أى خالقهما ومدبرهما ومُتولى أمورهما فهو صاحب الملك والربوبية فى العالم أجمع . ومعنى ﴿ **العزيز** ﴾ أى القوى الذى يغلب ولا يغلب . ومعنى ﴿ **الغفار** ﴾ أى المبالغ فى غفرانه لمن يشاء من أهل التوحيد .

وفى وصفه تعالى نفسه بأوصاف القهر والغلبة إنذار ووعيد للمشركين ، وفى وصفه بأوصاف الربوبية والمغفرة وعد وبشارة للمؤمنين . وقدم أوصاف القهر والغلبة على أوصاف البشارة ؛ لأن الخطاب مع المشركين فالمناسب للمقام تقديم أوصاف الإنذار والوعيد . والله أعلم .

النص الخامس : من سورة الزمر :

وهو قوله تعالى : ﴿ **قل إنى أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين . وأمرت لأن أكون أول المسلمين . قل إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم . قل الله أعبد مخلصا له دينى . فاعبدوا ماشئتم من دونه قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **قل إنى أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين** ﴾ .

الخطاب هنا لرسول الله ﷺ والمعنى أخبر قريشا بأن الله أمرك بعبادته ، والإخلاص فيها بمعنى أن تكون العبادة خالصة لله (تعالى) متمحضة لِوجهه الكريم ، لا تشوبها أى شائبة من شرك ظاهر أو خفى .

وقوله : ﴿ **وأمرت لأن أكون أول المسلمين** ﴾ أى وقل لهم أيضاً إن الله أمرنى أن

أكون أول المسلمين من أمتى أى أمرنى أن أعمل بدعوة الإسلام فى نفسى أولا فأوحّد الله وأقدسه وأعمل بطاعته وأجتنب نواهيه مطبقا ذلك على نفسى أولا ثم أدعو إليه غيرى[١]، وهذه سنة الأنبياء ، يطبقون أمر الله على أنفسهم أولا ، ثم يأمرون أقوامهم ، فكل نبى يعتبر سابقا لأمته فى الاستجابة إلى أمر الله فهو أول بالنسبة إليهم .

أو يكون المعنى أن الله تعالى أمر نبيه محمدا ﷺ أن يكون أول المسلمين على الإطلاق ، من أمته ومن غيرهم ، وذلك لأن الإخلاص يقتضى السبق المطلق : والمعنى وأمرت أن أكون سابق المسلمين ومقدمهم فى الدنيا والآخرة ، لأننى أمرت بالإخلاص ، وبمقدار مايكون المرء من إخلاص بمقدار مايكون سابقاً على غيره . ولا شك أن نبينا ﷺ قد امتثل أمر الله ، فكان فى غاية الإخلاص لله ، فهو لا شك أسبق المسلمين على الإطلاق ، مَن تقدَّمه منهم ومن تأخر عنه ، فهو أعلاهم منزلة ، وأعظمهم مكانة ، فى الدنيا والآخرة .

وقوله : ﴿ **قل إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم** ﴾ . أى قل يامحمد لقومك من أهل مكة إنى أخاف الله ، وأخشى عقابه فى الدنيا والآخرة – إن عصيته وخالفت أمره على سبيل الفرض والتقدير – وهذه الآية نزلت للرد عليهم حين دعوه إلى عبادة ما كان يعبد آباؤه وأجداده من الأصنام فقد نقل النسفى والخازن وغيرهما من المفسرين أن أهل مكة قالوا للنبى ﷺ (ماحملك على هذا الذى أتيتنا به ، ألا تنظر إلى ملة أبيك وجدك وقومك فتأخذ بها ؟ فأنزل الله تعالى هذه الآيات) . وهذه الآية فيها وعيد شديد ، وزجر عن المعصية ، فإذا كان النبى (عليه الصلاة والسلام) مع جلالة قدره ، وعلو منزلته ، وشرف منصبه ، يخاف من المعاصى ، ويخشى عقوبة الله ، فما بال غيره ممن ليس له هذه المكانة ولا حتى يقاربها !.

قوله : ﴿ **قل الله أعبد مخلصاً له دينى** ﴾ أمر من الله (تعالى) لنبيه ﷺ أن يخبر قومه بأن عبادته وإخلاصه كائن لله (تعالى) على حد قوله : ﴿ **قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين** ﴾ . [الآية ١٦٢ : الأنعام] .

وليس هذا تكرار مع قوله فى أول هذا النص ﴿ **قل إنى أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين** ﴾ . فإن الأولى مسوقة للإخبار بالعبادة والإخلاص فالكلام واقع على تحصيل الفعل ووقوعه . والثانية أى الآية التى معنا مسوقة لبيان من فعل الفعل لأجله وابتغاء مرضاته وهو الله رب العالمين .

وقوله تعالى : ﴿ **فاعبدوا ماشئتم من دونه** ﴾ كلمة ﴿ **من دونه** ﴾ هنا معناها من غيره والتقدير فاعبدوا ماتريدون غير الله . وهذا الأمر ليس للتنفيذ والامتثال ، وإنما هو للتهديد والوعيد والتبرى من فعلهم القبيح ، الذى هو عبادة غير الله . وهذا القول مترتب على قوله : ﴿ **قل الله أعبد مخلصاً له دينى** ﴾ . وكأنه قال لهم أما أنا فقد وجهت وجهى لله ، وأخلصت عبادتى كلها له ، فلا أشرك معه أحداً ، لا رجعة لى فى ذلك ، ولا أحيد عن هذا الطريق أبداً . وأما أنتم فحودوا عن هذا الطريق كما تشاءون ، واعبدوا غيره كما تحبون ، فسوف تلقون النكال والدمار ، وينزل بكم الانتقام والعقاب من الله فى الدنيا والآخرة . فقد قطع أطماعهم الفارغة فى رجوعه عن دينه وعبادة آلهتهم فى القول الأول وهددهم وأنذرهم عقاب الله فى القول الثانى .

قوله تعالى : ﴿ **قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة** ﴾ وهذا أيضاً أمر من الله (تعالى) لرسوله ﷺ أن يقول هذا القول .

وينقل النسفى : أنه نزل حين قال المشركون للنبى ﷺ إن خالفت دين آبائك وأجدادك فقد خسرت ، فأمره الله (تعالى) أن يبين لهم ولغيرهم أن الخاسر على الحقيقة هو الذى خسر نفسه وأهله يوم القيامة ، وذلك بأن يكون قد أشرك بالله فى الدنيا فخسر نفسه يوم القيامة ، حيث أوردها مورد العذاب ، وخلدها فى النار – والعياذ بالله – ويكون قد أمر أهله فى الدنيا بالشرك ، وجرهم إليه فيكون قد تسبب فى هلاكهم وخسرانهم يوم القيامة بتخليدهم فى النار . وخسرانه لهم فى هذه الحال على أساس أنهم فى النار لا يلتقون ولا يتزاورون تزاور أنس ومودة ، فذلك عنهم بعيد ، فهى دار حزن وغم وألم ، وكل منهم مشغول بنفسه – أعاذنا الله تعالى منها – . وأما إذا كان الأبعد قد أشرك هو وحده . وأهله ماتوا على الإيمان فخسرانه حينئذ لنفسه ظاهر ، وخسرانه لأهله ؛ لأنهم صاروا إلى الجنة وصار هو إلى النار ، وقد انقطعت صلته بهم ، فلا يلتقى بهم أبداً . وفى ذلك خسارة له تزيده ألماً على ألمه وهما على همه .

ويصح أن يكون المعنى : أن المشرك بصيرورته إلى النار قد خسر نفسه ، وخسر ما كان الله (تعالى) قد أعده له فى الجنة : من زوج وخدم إذا أسلم ومات على الإيمان ، فبإصراره على الكفر وصيرورته إلى النار قد فاته ذلك .

قال الخازن عند تفسير هذه الآية : (قال ابن عباس : وذلك أن الله تعالى جعل لكل إنسان منزلا وأهلاً فى الجنة : فمن عمل بطاعة الله كان ذلك المنزل والأهل له ،

ومن عمل بمعصية الله دخل النار ، وكان ذلك المنزل والأهل لغيره ممن عمل بطاعة الله تعالى فخسر نفسه وأهله ومنزله) ا . هـ .

وقوله : ﴿ ألا ذلك هو الخسران المبين ﴾ . جملة مستأنفة ، سيقت لبيان فظاعة خسران هذا الكافر ، وأن خسرانه هو الجدير بأن يسمى خسرانا على الحقيقة ، وقد أكد هذا المعنى بعدة توكيدات . منها : تصدير الجملة بأداة التنبيه التى هى ﴿ **ألا** ﴾ ، وجعل الجملة اسمية ، فهو من المؤكدات أيضاً . والإتيان بلام البعد فى اسم الإشارة ، فإنه يدل على بعد مكانتهم ومنزلتهم فى الخسران ، أى إنه خسران مبالغ فيه غاية المبالغة ، والإتيان بضمير الفصل بين المبتدأ ﴿ **ذلك** ﴾ والخبر (الخسران) .. وتعريف طرفى الجملة ، فذلك من المؤكدات أيضاً . ووصف الخسران بأنه مبين ، أى واضح وظاهر فى مقام الخسارة .

فهذه مؤكدات ست فى هذه الجملة القصيرة تدل : على فداحة ما أصاب هذا الكافر من خسارة فى نفسه وأهله . والله أعلم .

النص السادس : من سورة غافر :

وهو قوله تعالى : **﴿ قل إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءنى البينات من ربى وأمرت أن أسلم لرب العالمين ﴾** .

قوله تعالى : ﴿ قل إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله ﴾ أمر من الله تعالى لنبيه ﷺ أن يقول هذا القول للمشركين رداً على ما طلبوه منه ﷺ من عبادة آلهتهم .

وقال الخطيب كما نقله عنه الجمل : (لما أورد على المشركين تلك الأدلة الدالة على إثبات إله العالم أمره بقوله : قل إنى نهيت إلخ . أى قل لهؤلاء الذين يجادلونك فى البعث ، مقابلا لإنكارهم بالتوكيد ، إنى نهيت أى نهياً عاماً ببراهين العقول ، ونهياً خاصاً بأدلة النقل ، أن أعبد الذين تدعون الخ) ا . هـ .

فهو بذلك يربط بين هذه الآية وبين ماقبلها من الآيات فى نفس السورة .

وأما الرأى الأول : ففيه مقابلة بين هذه الآية وبين غيرها من آيات القرآن الكريم فى غير هذه السورة ، وهى الآيات التى أخبرت أن المشركين طلبوا من النبى ﷺ أن يعبد آلهتهم .

وقوله : ﴿ لما جاءنى البينات من ربى ﴾ أى دلائل التوحيد العقلية والنقلية . وهذا أعم وأوفى من قول النسفى عند تفسيرها : (هى القرآن وقيل العقل والوحى) ا . هـ .

و﴿ لما ﴾ هنا حينية . والتقدير نهانى ربى أن أعبد آلهتكم حينما جاءتنى منه الدلائل العقلية والنقلية على أنه وحده هو المستحق للعبادة دون ماسواه ، فقد نهانى ونهى غيرى عن عبادة الأصنام والأوثان ونصب للناس الأدلة الكونية وأنزل عليهم الآيات التنزيلية تبطل كلها عبادة الأصنام وتدعو إلى عبادة الواحد الديان .

قوله : ﴿ **وأمرت أن أسلم لرب العالمين** ﴾ لما بين الله (تعالى) أنه نهى نبيه ﷺ ونهى عباده أجمعين عن الشرك ، واتخاذ الأنداد والنظراء . قابل ذلك ببيان أنه أمره ﷺ وأمر معه عباده أجمعين بالتوحيد الخالص ، وإسلام الوجه إلى الله رب العالمين ، والتوجه بالعبادة إليه وحده ، دون ما سواه . ومعنى ﴿ **أسلم** ﴾ أى انقاد أو أخلص . فعلى الأول يكون ﴿ **أسلم** ﴾ بمعنى أفوض ولا يتحقق هذا المعنى إلا بالرضا والإذعان والتسليم لحكمه عن طواعية واختيار .

قال تعالى : ﴿ **فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما** ﴾ . [الآية ٦٥ : النساء] .

وعلى الثانى فيكون قوله ﴿ **أسلم** ﴾ من باب قولك أسلمت له الشىء : أى جعلته سالماً خالصاً له .

والمعنى عليه : أمرت أن أخلص توحيدى له تعالى فأجعله سالماً من شوائب الشرك الظاهر والخفى . والله أعلم .

النص [illegible] من سورة فصلت :

وهو قوله تعالى : ﴿ **قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد** ﴾ .

أمر من الله (تعالى) لرسوله ﷺ أن يقول للكفار هذا القول ، رداً على قولهم قبل هذه الآية مباشرة وهو ما حكاه الله عنهم بقوله : ﴿ **وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون** ﴾ .

[الآية ٥ : فصلت] .

أى إننا صم الآذان عن دعوتك غفل القلوب عنها وبيننا وبينك حاجز يمنعنا عن القرب منك فادع ماشئت فإننا مصرون على شركنا . فكان الرد عليهم بهذا الجواب أى ما يمنعكم عن قبول دعوتى ، ويحجبكم عنى مع أننى بشر مثلكم تبصروننى

بأعينكم ، وتشاهدون معجزاتى ودلائل صدق ! فلست مَلكا ولا جنا مستوراً عنكم ، خافيا عليكم .

ينقل الجمل عن أبى السعود عند تفسيره هذه الآية قوله : ﴿ **قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد** ﴾ ، تلقين للجواب عنه أى لست من جنس مغاير لكم حتى يكون بينى وبينكم الحجاب ، وتباين مصحح لتباين الأعمال والأديان ، كما ينبىء عنه قولكم : فاعمل إننا عاملون . بل إنما أنا بشر مثلكم مأمور بما أمرتم به حيث كلفنا جميعاً بالتوحيد بخطاب جامع بينى وبينكم ؛ فإن الخطاب فى إلهكم محكى منتظم للكل لا أنه خطاب منه عليه السلام للكفرة) ا . هـ .

وقيل معنى هذا القول أى إنما أنا بشر مثلكم يمكنكم التلقى عنى بما فى تكوينى من الطبيعة البشرية التى تتكون من الروح والمادة . كما أنكم أنتم تتكونون من هاتين الطبيعتين ، فأنتم مساوون لى فى هذه الناحية ، فيمكنكم الأخذ عنى . بخلاف ما إذا أرسل إليكم الملك مباشرة فإنكم لا تستطيعون الأخذ عنه ؛ لأنه روح صرفة وأنتم روح ومادة فلا تثبتون له ولا تستطيعون التلقى عنه . فإذا قيل إن رسول الله ﷺ روح ومادة . فكيف أمكنه التلقى عن الملك الذى هو روح صرفة ؟ فالجواب أن نقول : إن الله تعالى قد اختار الأنبياء على عينه ، واصطنعهم لنفسه ، فأودع فيهم من الصلاحية للتلقى عن الملك ما لم يكن فى غيرهم .

قال تعالى : ﴿ **الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس إن الله سميع بصير** ﴾ .
[الآية ٧٥ : سورة الحج] .

وقال أيضاً : ﴿ **الله أعلم حيث يجعل رسالته** ﴾ . [من الآية ١٢٤ : الأنعام] .

فرسولنا ﷺ جعل الله (تعالى) روحه أقوى من مادته ، فإذا ما جاءه الوحى سمت روحه ، وارتفعت ، حتى غلبت مادته ، وصار كأنه روح صرفة ، فتساوى بذلك مع الملك ، فأمكنه الاتصال به ، والتلقى عنه ، وكانت آثار ذلك تبدو عليه ﷺ يعرفها الحاضرون كثقل بدنه الشريف ، وتصبب وجهه بالعرق فى اليوم الشاتى ، وتغير لونه ، فإذا ما انفصم عنه الوحى عاد إلى طبيعته البشرية ، وقد وعى كل ما قيل له على لسان الملك ، فيبلغ ذلك للناس بما فيه من هذه الطبيعة البشرية التى عاد إليها وأصبح مساويا فيها لسائر البشر .

وقيل معنى الجملة : أى إنما أنا بشر مثلكم أشابهكم فى البشرية . ولكنى تميزت

عليكم بالوحى . والوحى معجزتى ودليل صدق فى ادعائى النبوة ، فبالوحى صحت نبوتى ، وإذا صحت نبوتى فقد وجب عليكم اتباعى وطاعتى فى كل ما أدعوكم إليه . ومن بين ما أدعوكم إليه بل جوهر ما أدعوكم إليه وأساسه هو قول : ﴿ **إنما إلهكم إله واحد** ﴾ . وقول : ﴿ **فاستقيموا إليه واستغفروه** ﴾ أى فأخلصوا له العبادة على منهاج ما أمركم به على ألسنة الرسل . واستغفروه من سوء العقيدة والعمل .

قوله ﴿ **وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة .. الخ** ﴾ .

الويل : كلمة عتاب بمعنى الهلاك والدمار ، والجملة دعائية أى دعاء على المشركين ومانعى الزكاة بالويل والثبور ، وفى هذا تنفير لهم من الشرك ، عقب ترغيبهم فى تحصيل التوحيد .

وتخويف أيضاً من منع الزكاة ، حيث وصف المشركين بأنهم لا يؤتون الزكاة وقرن المانعين بمنكرى البعث ، وذلك بقوله عقيبه ﴿ **وهم بالآخرة هم كافرون** ﴾ .

سؤال وجوابه :

فإن قيل كيف يصح التسوية بين المشركين ومانعى الزكاة ؟ وكيف يتوعد الله المانعين للزكاة بهذا الوعيد الشديد ؟ فإنا نقول لأن المال شقيق الروح ، وهو أعز شيء لدى الإنسان ، فإذا بذله فى سبيل الله ، وامتثالا لأمره ، دل ذلك على قوة يقينه ، وثبات إيمانه .

وفى هذا المعنى يقول الله تعالى : ﴿ **ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة ..** ﴾ . [الآية ٢٦٥ : البقرة] .

وأبو بكر الصديق (رضى الله عنه) حارب مانعى الزكاة والمرتدين عن الإسلام كلية فى وقت واحد ، ولام عمر حين أشار عليه بعدم حرب المانعين للزكاة .

وقال أبو بكر قولته المشهورة : « والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونها لرسول الله ﷺ لقاتلتهم عليها » .

فهذا أكبر دليل على أهمية هذه الفريضة فى الإسلام وخطورة أمرها .

ونقل عن الحسن وقتادة : أنهما حملا هذا الوعيد الشديد على المانع لها جحوداً وإنكاراً لوجوبها ؛ لأنه يكون قد أنكر أمراً علم من الدين بالضرورة . وبذلك يكون قد تساوى مع الكافر الذى أنكر التوحيد .

والرأى الأول الذى ذكرناه هو الظاهر من سياق الآية ، والمتبادر إلى الذهن ، وبه قال جمهور المفسرين ، واختاره ابن جرير الطبرى ، ولكن يعترض عليه بأن الآية مكية والزكاة إنما فرضت بالمدينة .

والجواب أنه يحتمل أن تكون أصل الزكاة وإنفاق المال كان مأموراً به فى أول البعثة . كما قال تعالى ﴿ **وآتوا حقه يوم حصاده** ﴾ . [من الآية ١٤١ : الأنعام] .

وأما بيان فرضيتها ونصابها ومقدارها ومصارفها وغير ذلك فإنما كان بالمدينة ، فى السنة الثانية للهجرة . وبذلك يندفع الاعتراض .

هذا وقد روى عن ابن عباس أنه فسر الزكاة فى هذه الآية بقول (لا إله إلا الله) لأن كلمة التوحيد طهارة للأنفس .

فالمعنى على ذلك : ويل للمشركين الذين لا يزكون أنفسهم ، ولا يطهرونها بكلمة التوحيد .

وهذا المعنى وإن كان معنى وجيها فى ذاته . إلا أنه يبعده التعبير بالإيتاء لأن التوحيد أو كلمة التوحيد لا يقال لمن حصلها آتاها . إنما الإيتاء للمال فيقال فلان أعطى زكاة ماله ولا يقال أعطى التوحيد أو أعطى طهارة نفسه . والله أعلم .

النص الثامن : من سورة فصلت :

وهو قوله تعالى : ﴿ **قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين** ﴾ .

قوله : ﴿ **قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين** ﴾ .

أمر من الله (تعالى) لنبيه ﷺ أن ينكر على المشركين شركهم فالمعنى : قل يا محمد للمشركين كذا وكذا منكراً عليهم شركهم ، أو قل أيها العاقل لمن أشرك بالله هذا القول منكراً عليه شركه محتجا عليه فى إنكار وحدانية الله بهذه الحجة المذكورة فى الآية .

وينقل الجمل عن الخطيب قوله عند هذه الآية : (ولما ذكر سبحانه سفههم فى كفرهم بالآخرة شرع فى ذكر الأدلة على قدرته عليها وعلى كل ما يريد كخلق الأكوان ومافيها الشامل لهم ولمعبوداتهم من الجمادات وغيرها الدال على أنه واحد لا شريك له ، فقال منكراً عليهم ، ومقرراً بالوصف ؛ لأنهم كانوا عالمين بأصل الخلق قل أئنكم لتكفرون .. الخ) ا . هـ .

وبناء على ذلك يمكن أن نقول : إن الهمزة التى صدرت بها الجملة للاستفهام التقريرى . وهو حمل المخاطب على الإقرار ومعلوم أن الاستفهام له الصدارة فقدمت الهمزة على الجملة .

والمراد هنا : حملهم على الإقرار بكيفية الخلق للأرض فهم مقرون به كما يشير إليه كلام الخطيب المتقدم .

وكما يدل عليه قوله تعالى : ﴿ **ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله** ﴾ . [من الآية ٢٥ : لقمان] .

و(إن) و(اللام) كلاهما للتوكيد أى توكيد الإنكار على هؤلاء الكافرين .

وقوله فى ﴿ **يومين** ﴾ يروى عن ابن عباس أنهما الأحد والاثنين .

اعتراض والرد عليه :

وقد يعترض على هذا بأن الأيام إنما نشأت من حركة الأفلاك وما وجدت الأفلاك إلا بعد خلق الأرض فوقت خلق السموات والأرضين لم تكن الأيام موجودة فكيف يقول الله فى يومين ؟

ويمكن أن يجاب على ذلك بأن الله تعالى خلق الأرض فى مقدار يومين أو المعنى أن الله خلق الأرض فى نوبتين كل نوبة أسرع من مقدار يوم .

وقوله : ﴿ **وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين** ﴾ .

أى وتجعلون له نظراء وأشباهاً تشركونهم معه فى العبادة مع أنهم ليس لهم من صفات الألوهية الحقة ولا الربوبية الصادقة أدنى نصيب .

وقوله ﴿ **ذلك رب العالمين** ﴾ إشارة إلى الإله الحق الواجب الوجود ، المتفرد بالألوهية ، والربوبية ، المتصف بكل كمال يليق بذاته المقدسة .

قال أبو السعود : (قوله : ذلك رب العالمين – إشارة إلى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة) ا . هـ .

والعالمين جمع عالم – بفتح اللام – وهو كل ما سوى الله وقد جمع باعتبار أنواعه .

وكان جمعه بالياء والنون أى جمع العقلاء مع أن فيه غير العقلاء بل إن غير العقلاء أكثر . من باب التغلب .

والمعنى أنه تعالى خالق كل الكائنات فهو الجدير بالعبادة وحده فلا يليق بكم أن تتخذوا معه أنداداً وأمثالاً . والله أعلم .

النص التاسع : من سورة الأحقاف :

وهو قوله تعالى : ﴿ **قل أرأيتم ماتدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات ائتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين** ﴾ .

قوله : ﴿ **قل أرأيتم ماتدعون من دون الله .. الخ** ﴾ .

خطاب من الله تعالى لنبيه ﷺ أن يقول هذا القول للمشركين .

وقوله ﴿ **أرأيتم** ﴾ بمعنى أخبرونى .

وقوله : ﴿ **ماتدعون** ﴾ أى « ماتعبدون » .

وقوله : ﴿ **أرونى** ﴾ بمعنى أرشدونى .

فينحل المعنى إلى ما يأتى : قل يامحمد لهؤلاء المشركين الذين يعبدون مع الله آلهة أخرى أخبرونى عن هذه الأصنام التى تعبدونها مع الله . أرشدونى عن أى جزء من الأرض تكون قد خلقته هى ، أو استقلت به عن الله فى الملك والتصرف .

ومعلوم أن هذا السؤال سؤال إنكار وتوبيخ ، فإذا انتفى أن تكون هذه الأصنام قد خلقت شيئاً من الأرض أو شيئاً من كائنات على الأرض فإنه لابد وأن ينتفى مشاركتها لله تعالى فى الخلق والإيجاد بالنسبة للعالم العلوى من باب أولى فقال تعالى ﴿ **أم لهم شرك فى السموات** ﴾ فهو استفهام إنكار أيضا بمعنى النفى . فإذا انتفى أن تكون هذه الأصنام قد خلقت شيئاً فى الأرض ولا فى السماء . لا على سبيل الاستقلال ولا على سبيل الشركة مع الله . فقد تجردت كلية عن صفات الألوهية .

فكيف يليق بكم أيها العقلاء أن تتخذوها آلهة فتخصوها بالعبادة ، أو تشركوها مع الله .

وفى هذا إنكار عليهم بمقتضى العقل والمنطق أن يعبدوا هذه الأصنام .

ولما أنكر الله عليهم ذلك بطريق العقل توجه إلى إنكاره عليهم بطريق النقل فقال : ﴿ **ائتونى بكتاب من قبل هذا** ﴾ واسم الإشارة فى ﴿ **هذا** ﴾ يعود إلى القرآن الكريم . أى إن القرآن الكريم جاء بالتوحيد الخالص ونفى الشريك عنه (جل وعلا) وكذلك الكتب السماوية قبله التى أنزلها الله على رسله كلها ناطقة بالتوحيد داعية إليه .

فليس هناك كتاب واحد سماوى يوافق هواكم فى الإشراك مع الله . فإن وجدتم كتاباً واحداً يدعو إلى الشرك فأتونى به .

وهذا الأمر للتبكيت والتحدى ، والمعنى : لا حجة لكم عقلية ولا نقلية على ما أنتم فيه من الشرك . فأقلعوا عنه .

قال الإمام النسفى عند تفسير هذه الآية : (﴿ **ائتونى بكتاب من قبل هذا** ﴾ أى من قبل هذا الكتاب وهو القرآن يعنى أن هذا الكتاب ناطق بالتوحيد وإبطال الشرك ومامن كتاب أنزل من قبله من كتب الله إلا وهو ناطق بمثل ذلك فأتوا بكتاب واحد منزل من قبله شاهد بصحة ما أنتم عليه من عبادة غير الله) ا . هـ كلام النسفى .

وقوله ﴿ **أو أثارة من علم** ﴾ أثارة . مصدر بوزن فعالة بفتح الفاء . والمعنى بقية من علم تؤثر وتروى عمن قبلكم ويكون ذلكم من قبيل التنزل مع الخصم للعلم بكذبه فى دعواه .

وكأنه قال : لا دليل لكم على صحة ما أنتم عليه من الشرك من العقل ، ولا دليل من النقل الصحيح الذى هو من كتب الله المنزلة . ولا حتى شبهة دليل من خبر يروى وينقل عن الأولين .

وفى بعض القراءات « أو أثرة من علم » والمعنى عليه أى خبر صحيح مسند إسناداً صحيحاً عمن قبلكم .

وروى فيها غير ذلك مما هو قريب من هذين المعنيين .

وقوله ﴿ **إن كنتم صادقين** ﴾ جملة شرطية محذوفة الجواب والتقدير : إن كنتم صادقين فى زعمكم هذا فأتونى بدليل عقلى ، أو نقلى ، أو حتى شبه دليل ، يدل على صحة دعواكم . فإذا لم يجدوا دليلا فقد بطلت دعواهم وبطل ماهم عليه من الشرك .

النص العاشر : وهو سورة – الكافرون :

هذه السورة الكريمة سورة مكية . وقيل مدنية وتسمى هى والإخلاص المقشقشتان أى المبرئتان من النفاق .

وقد روى عن ابن عباس قوله عن هذه السورة : ليس فى القرآن أشد غيظا لإبليس منها ؛ لأنها توحيد وبراءة من الشرك .

وقد روى فى سبب نزولها : أن رهطا من قريش قالوا : يا محمد هلم فاتبع ديننا ونتبع دينك تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة فقال : معاذ الله أن أشرك بالله غيره ، قالوا : فاستلم بعض آلهتنا نصدقك ونعبد إلهك فنزلت ، فغدا إلى المسجد الحرام وفيه الملأ من قريش فآيسوا .

ويقول القرطبى فى سبب نزولها أيضاً (ذكر ابن إسحاق وغيره عن ابن عباس أن سبب نزولها أن الوليد بن المغيرة والعاصى بن وائل والأسود بن عبد المطلب وأمية ابن خلف لقوا رسول الله ﷺ فقالوا : يامحمد هلم فلتعبد ما نعبد ونعبد ما تعبد ، ونشترك نحن وأنت فى أمرنا كله ، فإن كان الذى جئت به خيراً مما بأيدينا كنا قد شركناك فيه وأخذنا بحظنا منه ، وإن كان الذى بأيدينا خيراً مما بيدك كنت قد شركتنا فى أمرنا وأخذت بحظك منه فأنزل الله عز وجل ﴿ **قل يا أيها الكافرون** ﴾) ا . هـ . كلام القرطبى .

قوله تعالى : ﴿ **قل يٰأيها الكافرون** ﴾ أمر من الله تعالى لنبيه ﷺ أن يخاطب هؤلاء الكفار بهذا الخطاب ردا على ما طلبوه منه عليه الصلاة والسلام من عبادة آلهتهم الباطلة كما وضح فى سبب النزول .

وقوله : ﴿ **لا أعبد ما تعبدون** ﴾ نفى قاطع منه ﷺ أن يقع فيما وقعوا فيه هم من الشرك وعبادة الأصنام ، فهو تيئيس لهم فيما طلبوه منه ﷺ ، وطمعوا فيه .

وجاء الفعل المضارع المنفى بلا ؛ ليدل على أنه (عليه صلوات الله) ليس عابداً آلهتهم الآن ، ولا يمكن له أن يعبدها فى المستقبل ؛ لأنه معصوم من الشرك فلا هو واقع فيه الآن ولا سوف يقع فيه فى المستقبل . وما الموصولة فى هذه الآية واقعة على ما لا يعقل وهى الأصنام .

وقوله : ﴿ **ولا أنتم عابدون ما أعبد** ﴾ وما الموصولة هنا أى فى هذه الآية واقعة على البارى جل وعلا فهى بمعنى (من) والتقدير ولا أنتم أيها الكفار عابدون الآن الذى أعبده أنا وهو الله تبارك وتعالى وهذا على من يجوّز وقوع (ما) الموصولة على العقلاء . هذا رأى .

والرأى الثانى فيها أنها ليست موصولة ، وإنما هى (ما) المصدرية : فتسبك مع ما بعدها بمصدر ويصبح التقدير ولا أنتم الآن عابدون عبادتى أى مثل عبادتى أنا التى هى أساسها التوحيد الخالص لله (تعالى) . وذلك لأن عبادتهم هم الواقعة منهم أساسها الشرك بالله (تعالى) وشتان بين التوحيد والشرك .

قوله : ﴿ **ولا أنا عابد ما عبدتم** ﴾ وقد اختلف فى (ما) هنا أيضاً فقيل هى موصولة وتكون مستخدمة فى أصل وضعها حيث أنها واقعة على غير العقلاء . وهى أصنامهم . والمعنى عليه — ولا أنا عابد الآن أو فى المستقبل ماتعبدونه أنتم من الأصنام والأنداد .

وقيل هى مصدرية : تسبك مابعدها بمصدر وعليه فيكون المعنى . ولا أنا عابد عبادتكم أى مثلها .

وذلك لأن عبادة النبى ﷺ مبنية على اليقين والنظر الصحيح ، وعبادتهم مبنية على الشك والتقليد ، وشتان بين اليقين والشك ، والنظر والتقليد .

وقوله : ﴿ **ولا أنتم عابدون ما أعبد** ﴾ اختلف فى (ما) أيضاً فى هذه الآية فقيل هى موصولة .

والمقصود بها الله (جلا وعلا) فتكون بمعنى (من) والتقدير – ولا أنتم الآن أو فى المستقبل عابدون الذى أعبده وهو الله وحده لا شريك له .

وإنما قلنا أو فى المستقبل لأن الآية واردة فى شأن كفار مخصوصين علم الله تبارك وتعالى أنهم سيموتون على الكفر وسوف لا يهتدون . وقد تقدمت أسماؤهم فى سبب النزول .

وقيل إن (ما) هنا مصدرية : وعليه فالتقدير ولا أنتم عابدون الآن أو فى المستقبل مثل عبادتى التى هى توحيد خالص لله رب العالمين .

قال ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية والتى قبلها : (﴿ **ولا أنا عابد ما عبدتم . ولا أنتم عابدون ما أعبد** ﴾ أى ولا أعبد عبادتكم أى لا أسلكها ولا أقتدى بها وإنما أعبد الله على الوجه الذى يحبه ويرضاه ولهذا قال : ﴿ **ولا أنتم عابدون ما أعبد** ﴾ أى لا تقتدون بأوامر الله وشرعه فى عبادته بل قد اخترعتم شيئاً من تلقاء أنفسكم كما قال : ﴿ **إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى** ﴾ . [من الآية ٢٣ : النجم] . فتبرأ منهم فى جميع ماهم فيه ؛ فإن العابد لابد له من معبود يعبده وعبادة يسلكها إليه ، فالرسول ﷺ وأتباعه يعبدون الله بما شرعه ولهذا كان كلمة الإسلام (لا إله إلا الله محمد رسول الله) أى لا معبود إلا الله ، ولا طريق إليه إلا بما جاء به الرسول ﷺ والمشركون يعبدون غير الله ، عبادة لم يأذن بها الله ..) ا . هـ كلام ابن كثير .

هذا وبقى أن نقول : الجملة الأولى ﴿ **لا أعبد ما تعبدون** ﴾ والثالثة : ﴿ **ولا أنا عابد ما عبدتم** ﴾ . بمعنى واحد فيكون فى ذلك تكرار .

ومثل ذلك تماما الجملة الثانية ﴿ **ولا أنتم عابدون ما أعبد** ﴾ والرابعة هى ﴿ **ولا أنتم عابدون ما أعبد** ﴾ فما سر هذا التكرار ؟

وقد أجاب عن ذلك ابن عطية بقوله : (لما كان قوله : ﴿ **لا أعبد** ﴾ محتملا أن يراد به الآن ويبقى المستقبل منتظراً ما يكون فيه ، جاء البيان بقوله ﴿ **ولا أنا عابد ماعبدتم** ﴾ أى أبداً ثم جاء قوله : ﴿ **ولا أنتم عابدون ما أعبد** ﴾ الثانى حتما عليهم بأنهم لا يؤمنون أبداً . فهذا معنى الترديد فى هذه السورة وهو بارع الفصاحة وليس بتكرار فقط بل فيه ماذكرته) ا . هـ كلام ابن عطية فيما نقله عنه الجمل ص ٤٩٧ جـ ٤ .

وقال الزمخشرى فيما نقله عنه الجمل أيضا : (لا أعبد أريد به العبادة فيما يستقبل ؛ لأن لا لا تدخل إلا على مضارع بمعنى الاستقبال ، كما أن ما لا تدخل إلا على مضارع بمعنى الحال ، والمعنى لا أفعل فى المستقبل ما تطلبونه منى من عبادة آلهتكم ولا أنتم فاعلون فيه ما أطلبه منكم من عبادة إلهى ﴿ **ولا أنا عابد ما عبدتم** ﴾ أى ما كنت قط عابداً فيما سلف ما عبدتم فيه يعنى ماعهد منى قط عبادة صنم فى الجاهلية فكيف يرجى منى فى الإسلام ؟ ﴿ **ولا أنتم عابدون ما أعبد** ﴾ أى وما عبدتم فى وقت ما أنا على عبادته) ا . هـ كلام الزمخشرى .

والذى نرجحه أن السر فى هذا التكرار هو المطابقة لقول الكفار حيث قالوا للنبى ﷺ : (تعبد آلهتنا ونعبد إلهك فنجرى على هذا أبداً سنة وسنة) فأجيبوا عن كل ما قالوه بضدّه ، أى إن هذا لا يكون أبداً .

وقوله تعالى : ﴿ **لكم دينكم ولى دين** ﴾ الجملة الأولى تأكيد لقوله تعالى ﴿ **لا أعبد ما تعبدون** ﴾ ولقوله ﴿ **ولا أنا عابد ما عبدتم** ﴾ فعلى ذلك فى هاتين الجملتين نفى قاطع لاتباعه ﷺ للمشركين فى عبادة الأصنام .

وفى قوله ﴿ **لكم دينكم** ﴾ قصر لعبادة الأصنام على المشركين ، فلا تتجاوزهم إلى النبى ﷺ فتحصل من ذلك أن الله (تعالى) أخبر عن عصمة نبيه ﷺ عن عبادة الأصنام مرتين : مرة بأسلوب النفى القاطع ومرة بأسلوب الإيجاب الذى فيه قصر عبادة الأصنام على المشركين فقط .

وذلك مبالغة فى التوكيد وقطعاً لأطماع هؤلاء المشركين الذين كانوا يطمعون فى أن يتحول النبى ﷺ إلى آلهتهم ولو لبعض الوقت .

وأما الجملة الثانية وهى قوله : ﴿ ولى دين ﴾ :

فهى تقرير وتأكيد لقوله ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ وعلى ذلك يكون الله (تعالى) قد أخبر أولا بأن المشركين سوف لا يعبدون الله الذى يعبده محمد وأتباعه وذلك كما

قدمنا لأن الله (تعالى) علم أزلا أن هؤلاء الكفار سوف لا يؤمنون . بل يستمرون على كفرهم إلى الموت .

وهذا الإخبار من الله (تعالى) كان بطريق النفى لأن الجملة مصدرة بـ (لا) النافية .

ثم زاد الله هذا المعنى توكيداً بقوله ﴿ **ولى دين** ﴾ أى ولى دينى المقصور علىّ وعلى أتباعى فلا يتعدانى إليكم أيها الكفار المخاطبون . فيكون هذا المعنى قد عبر عنه مرة بأسلوب النفى ومرة بأسلوب الإيجاب .

قال أبو السعود فيما نقله عنه الجمل عند تفسير هذه الآية : (وقوله تعالى ﴿ **لكم دينكم** ﴾ تقرير لقوله تعالى : ﴿ **لا أعبد ما تعبدون** ﴾ ولقوله ﴿ **ولا أنا عابد ما عبدتم** ﴾ كما أن قوله تعالى : ﴿ **ولى دين** ﴾ تقرير لقوله تعالى ﴿ **ولا أنتم عابدون ما أعبد** ﴾ .

والمعنى إن دينكم الذى هو الإشراك مقصور على الحصول لكم لا يتجاوزه إلى الحصول لى أبداً كما تطمعون فيه فلا تعلقوا به أمانيكم الفارغة ؛ فإن ذلك من المحالات وإن دينى الذى هو التوحيد مقصور على الحصول لى لا يتجاوزه إلى الحصول لكم أبداً ؛ لأنكم علقتموه بالمحال الذى هو عبادتى لآلهتكم أو استلامى إياها ؛ ولأن ما وعدتموه عين الإشراك ...) ا . هـ كلام أبى السعود .

هذا وبقيت بعد ذلك شبهة يثيرها بعض الناس فيلبسون بها على المسلمين ومفاد هذه الشبهة أن قوله تعالى ﴿ **لكم دينكم** ﴾ فيه اعتراف من القرآن بأن ما عليه الكفار من اعتقاد فاسد يسمى دينا .

ويتشدّق بهذا بعض أهل الكتاب فيزعمون أن القرآن اعترف بأن ما هم عليه دين .

والحق أن هذه الشبهة أوهى من بيت العنكبوت فليس فى القرآن الكريم اعتراف بدين غير الإسلام .

قال تعالى : ﴿ **إن الدين عند الله الإسلام** ﴾ . [من الآية ١٩ : آل عمران] .

وقال : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً** ﴾ . [من الآية ٣ : المائدة] .

وقال أيضاً ﴿ **ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين** ﴾ . [الآية ٨٥ : آل عمران] .

وقد اغتر بعض ضعاف المسلمين ممن تسمى بأسماء المسلمين ، وغفل عن جوهر الإسلام ، وحقيقته ، فقالوا أقوالا باطلة مجافية للحق بعيدة عن الإسلام . مثل قولهم (الأديان السماوية ثلاثة) والحقيقة الناصعة التى لا جدال فيها أن الدين السماوى الموجود الآن فى الأرض منذ أن بعث الله نبيه محمداً ﷺ وإلى أن تقوم الساعة إنما هو دين واحد . هو الإسلام .

ومثل قولهم عن المسلمين واليهود والنصارى (الكل يعبد الله بطرق مختلفة) وهذا أيضا قول فاسد مناقض للحق بعيد عن الصواب فالمسلمون وحدهم هم الذين يعبدون الله وغيرهم يعبد الشيطان . إلى غير ذلك من الأراجيف والسخافات . فإذا ما عدنا إلى الشبهة لنرد عليها فإننا نقول : إن كلمة (دين) لغة تطلق ويراد بها : الانقياد للشريعة أحياناً ، ويراد بها : الجزاء أحياناً ، أو العبادة أحياناً . أو بمعنى الدعاء أحياناً . فإذا أريد بالآية التى معنا الإطلاق الأول فالمعنى لى دينى أى شريعتى التى أدين بها وأنقاد لها . ولكم دينكم أى شريعتكم وملتكم التى تنقادون لها . وسمى ماهم عليه دين . لأنهم تولوه وانقادوا له وتمسكوا به وإن كان باطلا .

ويصح أن يكون ذلك من قبيل المشاكلة فإن ماهم عليه لما كان فى مقابلة الدين الإسلامى الحق . سمى دينا على حد قوله **﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾** .

وعلى الإطلاق الثانى يكون المعنى – لكم جزاءكم ولى جزائى ؛ لأن الدين هنا بمعنى الجزاء .

وعلى الإطلاق الثالث يكون المعنى لكم عبادتكم ولى عبادتى . أى أنا مختص بمسلك فى العبادة وأنتم مختصون بمسلك . والمسلكان متغايران فمسلكى مبنى على التوحيد ومسلككم مبنى على الشرك .

وعلى الإطلاق الرابع . يكون المعنى . لكم دعاؤكم المختص بكم ولى دعائى المختص لى .

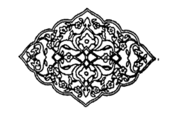
ولاشك أن الدعائين مختلفان فهو ﷺ يدعو الله تعالى . وهم يدعون آلهتهم الباطلة . فاندفع بذلك ما ألقاه الشيطان من شبهة حول هذه الآية . وكيف يسوغ ذلك لعاقل مع أن السورة كلها من أولها مسوقة لإخلاص العبادة والدين لله (تبارك وتعالى) .

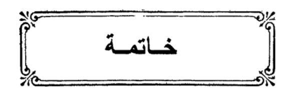
وقد تقدم لنا قول ابن عباس (رضى الله عنهما) : (ليس فى القرآن أشد غيظاً

لإبليس منها لأنها توحيد وبراء من الشرك) .

وروى نوفل الأشجعى (أن رجلا قال للنبى ﷺ أوصنى : فقال : **اقرأ عند منامك ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾فإنها براءة من الشرك**) . أخرجه أبو بكر ابن الأنبارى وغيره .

والله تبارك وتعالى أعلا وأعلم .





خاتمة

وبعد : فهذا عرض واف ضاف فيما نرى للنصوص القرآنية الدالة على توحيد الله تعالى ، ونفى الشرك عنه سبحانه والحاثة لجميع الناس على اختلاف ألوانهم وأجناسهم على الالتزام بهذا المنهج القويم والاتباع لهذا الصراط المستقيم متضمناً ما هدانا الله إليه من تفسير موضوعى لتلكم الآيات أردنا من خلاله أن نبرز مدى اهتمام القرآن بقضية التوحيد بصفة خاصة والبون الشائع بين ما قاله الله عز وجل عن نفسه وأحديته ، وبين ما قاله الجدليون والفلاسفة فى هذا الميدان وكيف لا يكون الفرق هائلا والمتحدث فى قضية التوحيد هو الواحد الأحد الفرد الصمد الذى يعلم ذاته وصفاته علما محيطا لا يستطيع أى من البشر أن يدركه كائناً من كان ﴿ **ما قدروا الله حق قدره** ﴾ . [من الآية ٧٤ : الحج] .

وأردنا أيضاً أن نظهر للقارىء الكريم أن توحيد الله تعالى أمر تدور عليه قواعد الدين كلها وأن خلط هذا التوحيد بالشرك هو بالضرورة تضييع لكل مبادىء هذا الدين وهدم لها .

فلو أن إنسانا ملأ الأرض بالحسنات والصدقات والسلوك الأمثل ونبذ التوحيد ما حاز من ذلك كله إلا كما يأخذ المخيط من البحر ﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به** ﴾ . [من الآية ٤٨ : النساء] .

﴿ **والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب** ﴾ . [الآية ٣٩ : النور] .

ولعلنا نكون قد وفقنا إلى ما كنا نصبوا إليه من عملنا هذا ونهدف إلى تحقيقه فإن يكن ذلك كذلك فالله الحمد والمنة .

وإن تكن الأخرى فما إليها قصدنا ولا فيها رغبنا ومن اجتهد وأصاب فله أجران

ومن اجتهد وأخطأ فله أجر واحد والله نسأل أن يهدينا ويهدى بنا وأن يجعل لنا على هذا العمل الذى نبتغى به وجه الله سبحانه أجراً إنه سميع قريب وصلى الله على خاتم النبيين وإمام المرسلين سيدنا محمد المرسل رحمة للعالمين صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه ومن تمسك بشرعه إلى يوم الدين .

كتبه المعتز بالله تعالى

الدكتور عبد العزيز الدردير موسى

مدرس التفسير وعلوم القرآن

بكلية أصول الدين بأسيوط

عفا الله تعالى عنه

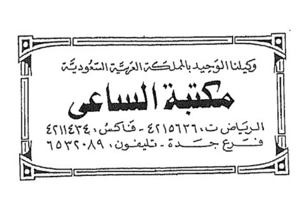


الفهرس

الموضوع	الصفحة
نبذة عن حياة المؤلف العلمية	٥
مقدمة	٩
تمهيد	١٣
اختلاف العلماء فى مفهوم الإيمان	١٧
أقسام الشرك	١٩
الفرق بين منهج القرآن فى هذه العقيدة وبين غيره من المناهج	٢٧
الفروق بين منهج القرآن ومناهج الجدليين	٢٧
فطرية التوحيد فى نفوس البشر	٣٢
دعوة القرآن إلى التوحيد ونفى الشرك	٣٥
لتوحيد دعوة جميع الأنبياء	٥٧
هذه الدعوة هى الإسلام	٦١
نماذج من دعوة الرسل إلى التوحيد	٧٦
حال من سلك طريق الهدى	١٢٢
خاتمة	١٨٩



رقم الايداع ـ ٢٩٩٠ ـــ ١٩٩٠



وكيلنا الوحيد بالمملكة العربية السعودية
مكتبة الساعى
الرياض ت ٤٢١٥٦٣٦٠ - فاكس ٤٢١١٤٣٤٠
فرع جدة - تليفون ٦٥٣٢٠٨٩



Bibliotheca Alexandrina
0412734

٤٠٠ قرش